
ب . هـ . ليدل هارت
المناوَرَات الحربيّة الدِّفاعيّة

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

المناورات الحربية الدفاعية

ب . هـ . ليدل هارت

المناورات الحربيّة الدّفاعيّة

نقلها الى العربية

ابراهيم جزيني

دار العلم للجميع - بيروت - لبنان

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

مقدمة الكتاب

يعتبر هذا الكتاب تجربة لاجمال الوضـــع الستراتيجي في حالته الحاضرة واعطاء تفسير واف له . لقد مرت عشر سنوات منـذ أن نشرت مؤلفاً عن الامور الدفاعية العامة . ولكن كتبت ، في ذلك الحين من الوقت ، مقالات كثيرة حول نفس الموضوع وعالجت مختلف نواحيـه .. انما بقيت شخصية ولم احاول نشرها الا بين الاصدقاء . وأثناء السنتين الاخيرتين خصصت سلسلة من الدراسات الخاصة للقضايا التي بدت لي انها تحتاج إلى دراسة وتحليــل اوفى . ووزعت المقالات بالتتابع بقصد النقاش... بعدها عمدت الى توسيعها معتمداً على النقد الذي كان يوجه اليها... واستخدمت الكثير منها في هذا الكتاب، ولجأت الى وسائق هامة ولها ارتباط دائم بالقضايا الاساسية المعلقة من الحاضر والمستقبل.

وفي كتاب صغير تحت عنوان « الثورة في فن الحرب » ، طبع مباشرة بعد ان القيت القنابل الذرية الاولى فوق اليابان سنة ١٩٤٥ ، ناقشت مداخلات الحرب النووية .

اشرت بالتالي الى الاخطار على المدى الطويــل والتي بدا لي ان القصف سيعكسها على الخطط السياسية والستراتيجية ، كما اشرت الى الثقـة بالاسلحة النووية لتطبيق سياسة ما والحفاظ على السلام .

وفي كتاب آخر : « الدفاع عن الغرب » ، وطبع سنة ١٩٥٠ ، لجأت الى توسيع خلاصاتي حول النتائج — وخاصة فيما يتعلق بالتحديدات — الناجمة عن استعمال مثل هذه الاسلحة كرد على اعتداء او رادع . وبعد طبع هذا الكتاب

حصل غزو كوريا الجنوبية ... واشار توسيـع الغزو الى فكرة التحديد ... وهكذا حصل بالنسبة للحرب الهند الصينية .

ازدادت قوة التسلح الذري سنة ١٩٥٤ بعد ظهور السلاح النووي الفتاك اي مع اختراع القنبلة الهيدروجينية . ولكن ، في نفس الوقت ، لم تعد هـذه القوة خاصة بأميركا وحدها : فقد توفقت روسيا عليها وسبقتها في حقـل الصواريخ ذات المدى البعيد، والتي تسمح بانجاز هجوم ذري فعال ولا يستطيع طيران العدو اكتشافه .

ان امتلاك المعسكرين للاسلحة النووية يميل الى التقليل من اهميتها ... ان تفوقاً بالعدد لا يؤكد النصر... كما هي الحالة بالنسبة لانواع الاسلحة الاخرى... ولكنه يدفع الى الدمار المحتم .

ليس هناك من درجات على غاية من الأهميـة في مسألة الانتحار . (يجب العودة تكراراً والتأكيد على هذه الكلمة . فمن الصعب التكيف مع هـذا المبدأ اذا كنا قد اعتدنا التفكير باسلحة اخرى .. وهكذا نميـل الى اعتبار الأسلحة النووية كسلاح جديد يضاف الى السلسلة) . ان النتيجة الطبيعية لمراهنة نووية هي الانعدام النووي نفسه ، اي الدمار التام .

وهكذا تلاشى الرادع النووي الذي وثق فيه الغرب ، ولم يبق الا كرادع تنوع عمله الخاص اذ انه عندما يتسبب الاستعمال بانتحار المستعمل ، معناه ان اسلحة اخرى قد تستخـدم لتلقين درس قاس ، اذا ما كانت محددة في هدفها وعملها .

وخاصة ان حالة كهذه تقدم حقلاً لعمل يتجدد يومياً وعلى قدر من المساواة مع المفاجأة التي يحدثها بسرعة وبدون اراقة دماء، اي عمل رد مفروغ من امره.

ان كتابي معـد خصيصاً لقضية تلاشي الرادع والشيء الآخر الذي يقوم مقامه .

ب . ه . ليدل هارت

القسم الاول

انعكاسات او العودة الى الماضي

التكهن الروسي سنة ١٩٥٢

كتبت هذه الصفحات في اواخر عام ١٩٥٢ ، رداً على سؤال طرح علي آنذاك حول معرفة كيف ينظر الروس الى الوضع الستراتيجي وما هو الحل الذي تقترحه لو كنت قائداً اعلى للقوات الروسية ؟

تساعد الصفحات هذه على فهم الاخطار التي كانت محدقة في تلك الحقبة من الزمن ، والوضع الذي كانت عليه قبل تكاثر الاسلحة الذرية وظهور القنبلة الهيدروجينية .

يقول ويلنغتون ، في حديث شهير :

« لقد صرفت حياتي كلها لأعلم ماذا يوجد وراء الجبل » انه يهدد بدقة متناهية وعدالة مهمة القائد الأعلى ورئيس الدولة : الوصول الى معرفة ماذا يحدث وراء الجبهة وماذا يدور في خلد الخصم .. والتخيل ، هنا عامل هام يوازي أهمية الانباء رغم ما ترتكز عليه هذه الأخيرة من ايمان .

واذا واجهنا المسائل التي تطرحها روسيا علينا اليوم ، نجد انفسنا تنوء باعباء ثقيلة اكثر منها في اي وقت مضى . احدها المزج بين الموارد المادية الهامة والتعصب . فديناميكيتها أقوى من المتفجرات في عالمنا الحاضر . أما الشيء الآخر فيتكون من طبع الفكرة الروسية التي لا تفك رموزها وفي الصعوبة التي يبديها الغربيون لفهم محتواها . ومرد الاختلافات بين الروس وجيرانهم الأوروبيين عائد الى ازدياد رقعة انتشار الماركسية والعزلة .

وهناك امر ثالث هو نقص المعلومات الجديرة بالاحترام عن الحالة ضمن

روسيا عن المخططات الاقتصادية والسياسية ، وحتى في الفترة التي تتراوح من ١٩٤٢ — ١٩٤٥، عندما كنا شركاءهم في الصراع ضد هتلر، كنا لا نعلم شيئاً عن قواتهم اكثر مما نعلم عن كل ما يعود الى القوات الالمانية .

***

وبينما كنا نعلم تقريباً اين يوجد كل طابور مسلح او كتيبة مدفعية المانية ، لم يكن لدينا سوى فكرة عن الكتائب التي يتكوّن منها الجيش الروسي . لقد ازدادت هذه الفكرة غموضاً في العصر الحاضر .

ويؤكد رؤساء الدول والقواد الحربيون المتحالفون ، ان الجيش الروسي مؤلف من ١٧٥ فرقة ... والتدقيق في هذا امر مثير جداً ... ولكنها لا تؤلف سوى لحمة واحدة . ومن الممكن تقييم صورة دقيقة عن قواتهم في البلدان المحتلة والبلدان التي تدور في فلكهم . انما صعب جداً تقييم ما يجري في الوراء ، اي في روسيا ... وليس ذلك لأن شبكة امنهم كثيفة جداً ، بل ان مسافات بلادهم الشاسعة تساعد على ذلك .

ان المعلومات المتوفرة لدينا عن روسيا اليوم هي في مجالات عديدة غامضة اكثر منها في اي وقت آخر ، وحيث تظهر دقتها يشك في صحتها . فلو نحن حاولنا ان نحدد الأعمال المحتمل ان يقوم بها القواد ، لكان من الأفضل والايسر ان نفحص من وجهة نظرهم في المخطط الاستراتيجي .

***

ان الستراتيجية وسيلة عملية واقل غموضاً من النظرة السياسية ... كما انها لا تتأثر كثيراً بطرق الأفكار الوطنية.. وعلى الرغم من ان المهنة الحربية كانت احسن خادم للوطنية ، فهناك طريقة تفكير عالمية لدرس قضاياها .

لو كنت قائداً أعلى للقوات الروسية لشعرت بسرور كبير بامتلاكي سلطة كهذه على الصعيد الحربي ورؤية حكومتي تملك واحــدة مماثلة ، على الصعيد الأعلى ... ولا احاول استبــدال اوراقي باوراق الأخصام الغربيين والتي من المحتمل انهم لعبوها على صعيد او آخر .

ولكني سأضع ستالين امامي وانبهه ضد حرب عالمية ، الا اذا تمكنت من حل مشكلة اولى والتأكد من ان الحظ سيحالفني في حل المشكلة الثانية . سوف لن اعرض القضية المرعبة متحدثاً الى ستالين ، ولكني سأنبهه الى حزمه ومهارته وكيف اعلن انه لن يكرر اخطاء هتلر مرة ثانية .

***

واستطردت قائلاً :

يجب ان تثق روسيا من كونها قادرة على التغلب على روسيا ، وليس بسبب قدرة هذه الأخيرة الخاصة ، انما نظراً لوضعها الستراتيجي هناك ، وامام العالم الأوروبي...وهو يتحول قاعدة لصد التهجمات الاميريكية، وخاصة استفزازها للشعوب بالقنبلة الذرية .

بعد هذا يجب ان نكون قادرين على ايجاد المنطق الصحيح وهو شل الحركة الصناعية في الولايات المتحــدة طيلة فترة من الزمن . ثم استدركت واضفت : « ولكن هذا لا يكفي ، كيف نفرق اوروبا ونطرد الأميركيين ؟ ان هذا لا يتم ما لم تتوفر لنا فرصة تكفي لتهدأتهم ، والتمكن من عدم قوتهم .

وبعد ان عرضت هذه النقاط الأساسية ، ساعمد الآن الى توسيعها : سوف لن اترك الدعاية الغربية تتملكني وتجعلني اثق بالدعاية التي بثها الحزب مباشرة بعد الحرب وهي ان بريطانيا لم تساهم كثيراً في تقهقر هتلر . يبدو لي بوضوح ان

خطأ هتلر الوحيد ، هو انه لم يفكر بغزو بريطانيا ولم يعدها بعد ان تمزق العالم الأوروبي .

اجبر هتلر على الالتفات نحو الشرق ، لأنه لم يستطع عبور (بادي كاليه) ، فضرب روسيا دون ان يكون قادراً على تجميع كل قوته . وهكذا خسر الأفضلية الكبرى التي كان يتمتع بها بعد سقوط فرنسا . كما اصبحت بريطانيا قاعدة لانطلاق قوات القصف الاميريكية وبالتالي منطلقاً لغزو يحرر اوروبا بكاملها ... ووجدت علي لزاماً الا انتبه الى هذه النقطة فاستفيد منها ولا اسقطها من حساب خطتي الخاصة .

***

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، جعلت القائد الاعلى يعمل على ايجاد وسيلة لابقاء بريطانيا خارج المعركة . وبالفعل فقد بدأت هذه الدراسة باكراً جداً ... اذ ما ان بدا لي ان روزفلت وتشرشل يحاولان سحق المانيا كلياً ، دون ان يدعا لها القوة الضرورية لانشاء حاجز دفاعي، حتى اصبح من الواضح انهما يفتحان الطريق لنا نحو الغرب وجنوب اوروبا . كم كانوا عمياناً . وهكذا بدأنا نفكر بحل لمسألة الجزيرة البريطانية التي هزمت هتلر .

وتوصلت بسرعة الى خلاصة مفادها انه يجب على روسيا خلق قوات محملة كثيرة اكثر من المعقول ، لكي يتسنى لها ان تقفز من فوق « بادي كاليه » والاسطول البريطاني – لأن بحريتنا دون بحرية هتلر قوة – وتحصل على التفوق البحري . دربنا – اكثر من اي بلد آخر اثناء الحرب العالمية – المظليين واعددناهم للعمل ، انما كانت تنقصنا وسائل النقل الجوي الفعال ... ولكن ليس هذا السبب الوحيد الذي دفعنا الى عدم تجربة العمليات النقلية ... فهي لم تكن ضرورية ما زلنا نفوق الالمان . كان يهمنا الاحتفاظ بهذه الورقة في المانش ويبيت اعداؤنا على خطر غزو جوي محمل .

لم تستخدم كتائبنا المحملة منذ ان انهارت المانيا ، حتى اننا صرفنا النظر عن اسطول طائرات الشحن والمقاتلات البعيدة المدى . ركزنا اهتمامنا ، اثناء الحرب العالمية الاولى ، على دعم الجيوش « تكتيكيا ». اذا لم يكن ذلك النوع من المقاتلات معتمداً لضرب الاهداف البعيدة .

ومن الطبيعي ، انا اعلم ان قوة جوية كبيرة يصعب نقلها وتوجيهها الى الهدف بسرعة ، فهي تعجز عن اصابته ولو تعرضت ، لدفاع ارضي معتدل . ولكن كانت اوراق كثيرة تعمل لصالحنا ... تقضي الاولى بأن نقذف بقوتنا الجوية ضد بريطانيا ، وقبل ان تعلن الحرب لضرب الانكليز ويتم تجنيدهم ... ان اختيار عطلة نهاية الاسبوع يلائم لعمل كهذا ويفي بالغرض . فهم دون مراقبة ويسهل علينا شل حركتهم . سيتلو هـــذا الهجوم الجوي هجوم آخر تقوم به قواتنا المرابطة في اوروبا ... وبطريقة ان يضمن الهجوم الاول نجاح الثاني والعكس بالعكس . وهكذا سوف لن يتسنى للعدو استجماع قواته من جديد .

قلقنا قليلاً ، في العام الماضي ، عندما ابدى الانكليز اشارات تدل عـــلى انهم يترقبون خطراً يهبط عليهم فجأة من السماء .

***

يميل الانكليز ، بطبيعتهم ، الى اعتبار مثل هذه العمليات على طريقتهم الخاصة وحسبما يوحيه اليهم تفكيرهم . كان قوادهم الحربيون في الحرب الاخيرة ماهرين كعادتهم ، ويسعون الى تأمين اكبر عدد ممكن من المؤونة والذخيرة... وفكروا انه ليس هناك من سيغامر ويقذف بقوة هائلة فوق هذه الجزيرة نظراً لتردي احوال التغذية فيها ... ولم يكونوا قد استفاقوا بعد من فشل الضربة التي تلقوها في ارنهايم .

لا يفهم الاميركان والانكليز ان قواتنا الروسية اعتادت الحياة الشاقة وان جنودهم يكفيهم القليل من المأكل والمشرب فيستمرون اسابيع طويلة دون ان نعمد الى مدهم بالذخيرة ، وبعكس الجيوش الغربية التي تزيد الى مؤونتها ما تستولي عليه من البلاد التي تحتلها !! كذلك لا يفهم خصمنا اننا قوم لا شفقة في قلوبهم وان رجالنا لا يتراجعون اذا ما دفعوا الى عمليات انتحارية... وحتى لو منينا بخسارة فيلقين محملين بهبوطنا فوق انكلترا ، فان هذا اشبه بوخزة الذبابة ولا يقاس الى جانب ما تكبدناه من خسائر في معاركنا الاولية ضد الالمان . اننا لا نتراجع امام خسائر اولية عندما يكون الاشتباك على هذا القدر من المستوى .

هناك وسيلة اخرى لانزال قوة فجائية في بريطانيا قبل ان نكون اكتسبنا التفوق الجوي والبحري ... وتقضي بان نقوم بغزو بالغواصات وبكتائب محملة فيها ... وبالفعل درسنا هذه المسألة ... ولكنها تتطلب توسعاً كبيراً ووقتاً كما تجلب تعقيدات كثيرة... وعلى ضوء تجربة البحرية الروسية المحدودة، واستناداً الى النتائج التي حصلت عليها ، ومقارنة بنتائج الجيش ، لم اكن اثق بان مهارتها ستمكنها من المضي قدماً بمشروع كهذا حتى نهايته ... وهكذا بدا لي ان غزواً جوياً هو افضل ، وخاصة في المستقبل القريب .

ويحتمل ان يرفض ستالين هذه الطريقة... لأنه لم يعتد القصف ما لم يتأكد من النجاح ... ولم تؤثر فيه جرأة اعمال هتلر او تستهويه ... يضاف الى ذلك ان احسن ما يقوم به هو الهجوم المفاجىء عندما يكون الانكليز غير مستعدين له . ولكننا سنتحمل ، بعد ذلك ، مغبة الاعتداء . وباستطاعته ، لأسباب سياسية ونفسية ، ان يفعل ويرفع الستار بواسطة معركة ارضية ... وهكذا بامكاننا ان ندعي بان هجومنا ما هو إلا رد على العدو لاختراقه حرمة حدودنا .

لا يفكر ستالين كستراتيجي فقط ، انما كقائد من الطراز الاول وعلى

درجة من الرفعة وعندما تكون الاعمال السياسية والحربيــة على درجة كبيرة من التقارب . واذا رفض ستالين مثل هذا الهجوم ، فهناك وسائل اخرى ، لقواتنا المحملة الذين هم على اتم الاستعداد لمهاجمة ارضية .

تقضي احدى هذه الخطط بان نرميهم وراء جسور نهر الرين ، والهدف هو حراستهم للجسور حتى يتسنى لجيوشنا ان تعبر النهر وتحاصر القوات الموجودة في شرق الرين ، وتمنع وصول امددة حليفة .

وقضت اخرى بان نرميهم عند مضائق الالب — التي تجمـــع بين النمسا وايطاليا او عند مضائق ازر بيدخان الايرانية التي تفيض على السهول العراقية .

ان هذين العملين الاخيرين لا يتطلبان الا قوات قليلة نسبياً ... وبامكاننا ان نقودهم ، دون ان نقلل القوات الضرورية لكل من الاعمال الهامة . ان مجموع قواتنا يفوق بكثير القوات التي يمكننا ان ندفعها بها فعلياً لتعمـــل في اوروبا الغربية . وهكذا يمكننا ان ندعم القوات المحملة الاخرى والموجودة في ايطاليا والشرق الاوسط ، وبقدر ما يتسع مدى تهديداتنا ، بقدر ما نزيد من الفوضى والانحطاط في صفوف الاعداء . ولو اتيحت لنا الفرصة لاكمال توسيع قواتنا الجوية والمحملة ، لاستطعنا ان ننفذ ، في آن واحد ، العملين الاساسيين على مستوى مناسب ، وكذلك بالنسبة للاعمال الثانوية الاخرى .

لو اصبــح ضرورياً ان اختار بين المرور فوق الرين او عبر مضائق البلطيق لكنت اخترت هذه الاخيرة . لانه مهم جداً ان ندفع باكبر عدد ممكن من قواتنا المائية الى البلطيق ، فتقطـــع جميع خطوط الامدادات الاوقيانوسية ابتداء من اميركا حتى اوروبا وخاصة حتى انكلترا .

●

انا لا اتكل على حصار يتم بواسطة الغواصات كي اثير القرار ، كما كان هتلر والاميرال يأملاني ان افعل . وعلى الرغم من اننـا حصلنـا على احدث التصاميم للغواصات . وهذا يمثل ثروة هائلة لنا ، فان هذا لا يدل على اننا نملك اسطولاً من الغواصات يفوق الاسطول الالماني . ان همنا الوحيد الآن هو حل مشكلة تعطيل القاعدة الاميركية المتقدمة في بريطانيـا ، وعلى ان يتم ذلك في اولى مراحل الحرب . وتساءلنا كيف سيتم هذا ؟ وما ان اجتحنا القسم الغربي من هذا العالم واحتلينا الساحل ، كان يجب على القوات الروسية الجوية ان تتفوق على القوات الانكليزية والاميركية التي بقيت مرابطة في جنوب انكلترا . وعندئذ فقط ، باستطاعتنا ان نسيطر كلياً على « بادي كاليه » لنفتح الطريق لجيش الغزو . وهل احتاج هتلر الى مجهود كبير لينتصر عام ١٩٤٠ ، ومباشرة بعد « معركة بريطانيا الجوية » ؟ ولنعلم انه لم يكن مستعداً تماماً للقضية التي تعرض لها ... مع انه كان يفتقر الى المباني الكبيرة والمستودعات الضرورية لايواء الذخيرة والجنود ، بينما بنينا نحن منها الكثير وتوفرت لنا جميع الوسائل.

***

اما اذا فشلنا في كسب السيطرة على كاليه وفتح الطريق امام الجيش ليفرق كل شيء ، فاننا سنبحث عن حلول اخرى . كان احد هذه الحلول ان يقوم الطيران بقصف ذري او تفجير الصواريخ الموجهة التي صنعناها حديثاً... وحل آخر تبادر الى ذهني في الحال : القصف الجرثومي .

واستناداً الى تقدمنا الهائل في حقل القوات المعدة للدفاع الارضي ، يمكننا ان نحتفظ بهذه الحلول حتى تبدأ اميركا باستخدامها ... وهنا يثور عليها حلفاؤها لتعرضها لقصف المدن ذرياً ، مع ان الهدف المهم الآن هو غير ذلك.. نؤلب الرأي العالمي ضدها ونقف نحن بصفة المتفرج لنعد الضربة المحكمة ... ويجب الا ننسى ان وقوفنا لمتفرجين محفوف بالاخطار ، الا ان الكسب منه

كبير ولا يقدر بثمن ... وهناك أيضاً قصف انكلترا وبعـــد ان تصاب السواحل الفرنسية والبلجيكيـــة ... فكل هذا نستطيع تحقيقه بقوة استراتيجيتنا الجديدة . ومن الامور الحيوية لنـــا جميعاً كان حذف بريطانيا بسرعة . وانجح طريقة هو أن نجعلهـــا جزيرة مهجورة لا تصلح للسكن ... وهذا اسهل بكثير من أن نحاول حمل الانكليز على اعتناق الشيوعية . نستطيع احتلالها وجعلها صالحة للسكن من جديد كما يحلو لنا .

* * *

يعتبر القضاء على المعارضة من الوسائل الفعالة — وربما هذا صحيح — لحل جميع المسائل نهائياً . لقد فهم النازيون ذلك جيداً ، رغم انهم قاموا به بطرق مخزية ومخجلة افسدت كل شيء . ونؤكد على ان الماركسيين هم اكثر فعالية من النازيين العاطفيين والمتهوسين .

والآن ، بعـــد ان استولت اميركا على جنوب اوروبا والشرق الاوسط واوروبا الغربية ، يجب ان نقر ونعترف باستحالة تمركزنا في تلك المناطق دون التسبب بحرب عالمية . وهكذا ، اذا ما تحولت القضية الى عمل حربي ، يصعب تحديد الاهداف وضبط الاعصاب . هذا كل شيء او لا شيء ... وضروري لنا ان نركز على دحر بريطانيا ونعطي لهذا الهدف الأفضليـــة في خطتنا . فإذا استطعنا ازالة بريطانيا نكون قد تقدمنا شوطاً بعيداً واصبحت السيطرة على اوروبا امراً حتميـــاً . فالفرنسيون ما زالوا يعانون من التأخر نظراً لتباطؤ الانتاج الاميركي ... وكذلك الالمان الغربيون الذين يعتبرون كعزل .. وان قضية تسليحهم تستغرق عامين او اكثر .

يجب ان نغزو اكبر قسم من ذلك العالم بعد ان مكننّا القسم الكبير والمهم من جيشنا .

* * *

كانت قوات حلف الاطلسي تتكون من عشرين فرقة معدة للحرب على وجه التقريب، بينما كان لدينا ثلاثة اضعاف هذا العدد لنعد فرقة القاذفات المكننة، وكانت قوات الحلف الاحتياطية اقل من ذلك بكثير. اما اذا وجدنا ان هذا ضروري فبامكاننا التهديد باستعمال القنابل الذرية لتسهيل مرور جيشنا ... حتى ولو تعرضنا مؤقتاً، لفشل في غابات اسبانيا وافريقيا الشمالية، فكل هذه لا تقدم تسهيلات شبيهة بتسهيلات بريطانيا من اجل هجوم اميركي مضاد. وليس من الصعب تكوين فرق من سكان غابات افريقيا الشمالية لنؤخر نمو القواعد الاميركية الى الوقت الذي نستطيع فيه نحن مهاجمتها. ولنعلم ان جميعها بلغت درجة قصوى من الغليان. كان لدينا فرصة جديدة لابقاء الاميركيين على مسافة بعيدة ما، ولمدة طويلة، لنثبط اندفاعهم، اذا ما امكن تدمير بريطانيا. وستقدم دعايتنا مساعدة كبري لنا ... فهي تقول: «سوف لن تروا ابناءكم ثانية ان ارسلتموهم الى اوروبا: انكم تقدمون لهم تذكرة ذهاب، فقط، الى معسكرات التجمع في سيبيريا».

* * *

كان من المنتظر ان نقصف على مسافات طويلة .. من جانب الاميركيين، ولكن لدينا حظاً اوفى بدحرهم، او على الاقل ابعادهم عنا مسافة... ولا فرق ا كان مصدر القصف من القواعد الاميريكية او على مقربة منها... وهناك سبب وجيه آخر يدفعنا الى التساؤل اذا ما الاميركيون يقبلون باطالة مدة القصف الذري لمدنهم الكبيرة وبشروط كهذه. فبقدر ما تكون الحضارة نامية بقدر ما كانت عرضة للخسارة ... ولا شك انها ستتألم اكثر في تضارب مماثل حتى ولو القت عدداً اوفر من القنابل.

سوف لن يقبل حلفاء اميركا في اوروبا بهذا ولا ينظرون اليه بارتياح ... وربما طلبوا اليها ان تحميهم ضد اي غزو يتعرضون له ... ولكنهم لا يرتاحون

الى فكرة تحررية محتملة تنجم عن دمار ذري مفجع . وفي احتمال كهذا سنهتم بمشاطرتهم الرعب .

علّه من الأفضل لنا ان نجرب بعض الغارات فوق نيويورك والمدن الاميركية الكبرى ... وهدفنا من هذا هو تفادي امتداد القصف الذري الذي يبعث على الارتباك والهلع . فجميع هذه المدن تقع في متناول قاذفاتنا ، كما ان بعضها يستطيع اصابة الهدف فيما بعد الاطلنطي ... وقد اعتاد طيارونا ان يعتبروا المهمات الانتحارية كأمر طبيعي في سبيل الواجب ... يضاف الى هذا ان طيارينا سيجدون مكاناً للهبوط في أمريكا الوسطى ، اما الطيارون الاميركان فلن يجدوا شيئاً في اوروبا بعد ان نكون قد اجتحناها .

***

عارضت كثيراً باستعمال القنابل بكميات كثيرة في غارات الارهاب فوق الاطلنتيك ، قبل ان تمتلأ مستودعاتنا بها . سنحتفظ ، في مرحلة الحرب الأولى ، بأكبر قسم منها لانكلترا او للبلدان الاوروبية الأخرى التي نلمس لديها معارضة قوية ضدنا . كانت انكلترا والبلدان الدائرة في فلك اميركا تعتبر سهلة المنال ويمكن ضربها دون مقاومة تذكر ... أي يسهل علينا شلها دون ان نلجأ الى استعمال قوات كثيرة. ويعود الفضل الى المسافات الشاسعة في روسيا والى تيقظ ستالين الذي عرف كيف يوزع الصناعة في البلاد ... والى طريقة الحياة البسيطة والمريحة ، في اننا نستطيع احتمال ضربات القنابل الذرية اكثر بعشرة أضعاف من اعدائنا .

ولكني أفضل بالطبع تفادي هذا الخطر ولو كانت الخسائر المادية قليلة . كنت ارغب بكف قصفنا الذري ما زال اعداؤنا يترددون في استعماله ... اذ

ليس هناك ما يلح ويدعو الى الاقدام عليه مـــا دمنا نتفوق عليهم في مجالات اخرى . كما ان قواتنا البرية والجوية تكفي للضرب على جميع الجبهات ... واكتسبنا نسبة عددية على أعدائنا ويسرنا أن نجد عملاً مناسباً لفرقنا الكثيرة غير الممكننة .

سوف استعمل في الشرق الأقصى قسماً من جيشنا الرابع الموجود الآن بالقرب من مضيق بهرنغ ، والمستعد لمهاجمة الاسكا ... ليس هذه وجهة صالحة لعملية هامة ، ولكن ضربـــة خفيفة توقظ من مخاوف الاميركان والكنديين وتسبب ذعراً وتشتتاً في قواتهم .

* * *

سأوجه الضربة الهامة من ساكالين وكوريل ، تدعمها القوات المرابطة في القواعد القريبة لها ، باتجاه اليابان . اذ ليس هناك سوى حاجز مائي صغير ويستطيع سلاحنا الجوي كسب التفوق ... يضاف الى ذلك أن لدينـــا ثمانية فرق محملة قوية ... وعندما هاجمت القوات الأميركية ، سنة ١٩٥٠ ، كوريا منطلقة من اليابان ، وددت ان ارمي بقواتي المحملة فوق اليابان وهكذا أتمكن من الاستيلاء على القواعـــد الاميركية فيها ... ففي هذا يكمن الرد التام على حركتهم الجبارة ساعة هبوا لمساعدة كوريا الجنوبية ... وكم كان مسلياً أن يقع الجنرال ماك ارثر في الفخ ... ولكن ستالين ارتأى أن من الأفضـــل جعل الاميركيين يتوغلون في كوريا حتى تتشتت قواتهم وتضعف قوتهم الدفاعية على المواقع الأخرى الهامة .

* * *

كان ستالين على حق وتبين لي فيما بعد صواب فكرته ... اذ ان آمالنا كانت

كبيرة باجتيـــاح أوروبا ، بينما كانت قوات المقاومة التي تعرضنا لها غير ذي شأن ... اذا مـــا نحن عبرنا العراق وايران باتجاه الخليج الفارسي وشواطىء البحر الأبيض المتوسط . ان غزو الشرق الأوسط لا يسمح لنا باستعمال موارده البترولية بسرعة ، ولكنه يدفع بأخصامنا الى البعيد ويقدم لنا تغطية أفضـل لحقولنا البترولية في القوقاز والاورال ... فهي ، في الوقت الحاضر ، تتعرض لقصف قد يؤدي الى انفجارها .

علينا أن نعلم ان اعادة عملية كوريا وتجديدها في الشرق الاوسط سيؤدي ، حتماً ، الى حرب عالمية ... ولذلك فكرت في ايجـــاد مكان آخر يمكننا أن نجر الاميركيين اليه دون ان يتأثر السلام العالمي به . وبـــدا لي ان الهند هي المكان المناسب . وليس من الصعب أن نجعل الهند والباكستان يقتتلان من أجل كاشمير ، فما أن يتذوق الباكستانيون طعم الشقاء ، حتى يسارعون الى طلب النجدة منا ... ومن الصعب جداً أن يهب خصمنا الى مساندة الهند في معركة كهذه .

يجب أن تصل مساعدتنا جوياً ... اذ أن النقل الجوي ساعدنا على تحويل احلام روسيا القيصرية الى حقيقة واقعية في عهد روسيا السوفياتية ... وأكدت أن مساعدتنا للباكستان ستفتح الطريق أمامنا لنخلف الانكليز هناك ، كما خلف هؤلاء المغول واستولوا على الحكم في الهند ... وهكذا سندخل الى آسيا من الجنوب الشرقي قبل حلفائنا الصينيين ، فنحن بحاجة لهم الآن ... انما سيزداد نفوذهم ويشتد ساعدهم فيما بعد .

كانت الفرص كبيرة امامنا لنتقدم في عدة جهات دون ان نحـــدث حرباً عالمية ... وعلى هذا المبدأ عملت ولا زلت اعمل . ليس معنى هذا انا نتخوف من قوة خصمنا .

ومن المدهش ان نرى الاميركيين يدعون انهم مجبرون على كسب هـــذه

الحرب على المدى الطويل وان انتاجهم من الفولاذ والبترول يفوق انتاجنا . فهم لا يفهمون انه باستهلاكنا المدني المقنن نستطيع اعطاء الجيش ما يريده واعداده لأي نوع كان من الحروب ... واننا نملك ذخيرة تفوق ذخيرتهم بعشرات المرات ، وفي رأيي انه ضرب من الغباوة الاقدام على وصف حرب طويلة حيث يتوالى القصف الذري . الم نرَ قنبلتين تخضعان اليابان ، البلد القوي المتعجرف ؟ ولا استطيع ان اتخيل حضارة كحضارة اميركا يمكنها ان تقاوم طويلاً تجربة من هذا القبيل .

***

وهكذا ، على وجه العموم ، يمكننا ان نخلص الى نتائج ايجابية من تحليل وضعنا ومقارنته بوضع خصمنا ... انما انبه الى ان الغزو يجب ان يعد بدقة ... وان العوامل في تطوير الاسلحة لا تحصى ولا تعد .

انا مقتنع جداً ، بصفتي كجندي ، من فكرة لينين التي طبقها ستالين كاملة .

« ان استراتيجية الحرب السليمة تقضي بتوزيع العمليات حتى تنهار اخلاقية العدو وتجعل الضربة الموجهة اليه سهلة ومميتة !! » .

تفجير القنبلة الهيدروجينية الاولى

كتبت هذه الصفحات في شهر نيسان سنة ١٩٥٤ ، بعد تفجير اول قنبلة هيدروجينية واعلان التكهنات الاميركية الجديدة .

وجاءت الاحداث ، فيما بعد ، تؤكد التنبيهات والنقد الذي وجهته واستخدمت كشاهد على النتائج المؤسفة في تلك الحقبة الزمنية .

القى تفجير القنبلة الهيدروجينية في ربيع عام ١٩٥٤ ، الرعب في قلب العالم باجمعه ، وحمل العالم الحر على التساؤل عن النتائج التي ستترتب عن ذلك... وابدى الذين كانت القنبلة قد اعدت لحمايتهم ، ابدوا استغراباً ورهبة وفضولاً متزايداً ... فانحوا باللائمة على القرار السريع الذي اتخذه قوادهم سنة ١٩٤٥ عندما فكوا غلالة الوحش الذري ، وهكذا فعلوا يوم طرح الرئيس ترومان دراسة القنبلة الهيدروجينية على بساط البحث .

اعتبرت هذه القنبلة الثمن الذي دفع من اجل هيروشيما ... اذ انها احدثت دوياً عالمياً بدا لرجال الدولة المسؤولين كوسيلة سهلة وبسيطة لتأمين النصر وبالتالي لتوطيد السلام في العالم . ولا يزال العالم يتحمل آثار حماقة واهمال اولئك المسؤولين .

***

ان السؤال الملح والمهم والذي نود جواباً عليه ينير اذهاننا ، هو : من أين جاءت تسمية « التكهن الجديد » في السياسة والستراتيجية الحربية ؟ فهناك صلة وثيقة بين السؤال هذا وبين اختراع القنبلة الهيدروجينية .

تماماً قبل عيد الميلاد ، اعلنت اميركا ان منهجاً حربياً جديداً يتضمن فكرة ستراتيجية مهمة ولد في البنتاغون ، وانه لقي تأييداً من جميع المسؤولين ... وقيل ان نتائجه الاقتصادية مهمة ومذهلة . ففي عام ١٩٥٧ ، نأمل ان يهبط حجم القوات الاميركية من ٣٤٥٠٠٠٠ الى ٢٨١٥٠٠٠ ، اي بمعدل ستمائة الف رجل وبنسبة مئوية تتراوح بين ١٨ و ٢٠ ٪ وستكون نسبة الانخفاض بمعدل ٣٠ ٪ في الجيوش البرية . وهذا ما يوفر للخزينة ، سنوياً ، مبلغاً يتراوح بين ٤ و ٦ مليارات من الدولارات .

انه لمن الضروري ان نربط الاقتصاد بالفعالية . فالجيش البري يتألف من ٢٠ فرقة ولكنه سيضغط فيما بعد ... وكذلك الجيش البحري . اما الطيران فلا ، اذ له الافضلية وستخصص له مبالغ طائلة لتطويره وتحديثه .

***

احدث البرنامج الجديد ضجة كبرى ودلت ميوله العامة على حسن نية . ان من يدرك الامر ويملك ثقافة حربية جيدة يستنتج من تنظيم القوات المقاتلة انها تسعى دائماً نحو التطوير والتحديث وبسرعة مذهلة ... فكما هناك ميل لخفض التوازن ، هناك ميل آخر لزيادته .

ولكن السياسة الاميركية الجديدة اتخذت مظهراً آخر عندما اعلن وزير خارجيتها فوستردالس : « يجب ان يقوى الدفاع المحلي بقوة رادعة وكثيفة ».. وهكذا يتضح ان الوزير يحدد السياسة الجديدة لاميركا وانها يجب ان تتركز على قواعد دفاعية كثيرة وبوسائل وفي امكنة نختارها نحن .

وهكذا بدأ التقييم الجديد للأمور ينذر بالتهديد في نظر الاوروبيين .

اما الصحافة فقد اكتفت بـــذكر بعض فقرات خطاب نائب الرئيس ، ريتشارد نيكسون ...

●

قال نيكسون في مستهل تصريحه :

لقد اعتنقنا مبدأ جديداً . فبدل ان ندع الشيوعيين يخدشونا ثم يلحقون بنا الدمار ويخيم الموت في سمائنا وفي جميع انحاء العالم ، جئنا نقدم سلاحاً رادعاً نثق به كلياً ويؤمن سلامتنا » .

يشتم من هذا التصريح ان اميركا تلوح بقصف استراتيجي وباسلحة حـديثة هدامة .

وقال الأميرال ستراوس ، رئيس الطاقة الذرية ، ان قنبلة هيدروجينيـــة واحدة تكفي لتدمير مدينة بكاملها . اما المراقبون للشؤون الدولية فقـــد اعتقدوا أن هذا سيترك اثراً في نفوس اسياد الكرملين ويحط من عزيمتهم وبالتالي يدفع الاميركيين الى الصدارة والتفوق في جميع المجالات الحربية ... ولكنهم تناسوا الاشمئزاز الذي تركته القنبلة في نفوس حلفاء اميركا وكيف بدأت تؤلب الرأي العالمي عليها !

وكانت المفاجأة ! ففي شهر آب عام ١٩٥٣ ، أي بمدة أشهر فقط بعـــد التفجير الأميركي، علمت الدول القريبة ان روسيا فجرت قنبلتها الهيدروجينية .

وامام هذه البادرة وجد الاميركيون وحلفاؤهم انفسهم عراة وان الروس لا يزالون في الطليعة .

***

استاء فوستر دالس واستبد به القلق وراح يبحث عن تهدئة النفوس المرتعبة ... لذلك عقد مؤتمراً صحفياً في ١٦ آذار واعلن فيه :

« لم يسبق لي أن قلت اننا سنرد بسرعة ، رغم كوننا قادرين على ذلك وفي الظروف التي تقتضيها الاوضاع. ان المهم هو المرونة والقدرة على الرد السريع.. واؤكد أن جهل هذا تسبب بخسائر فادحة كلها من نوع بيرل هاربر » .

يتضح لنا من تصريح دالس انه يود تطمين حلفاء أميركا وانـــذار روسيا وحلفائها بأن اعتداءً على نمط غزو كوريا بات وشيكاً . ولكن اشارته الى بيرل هاربر لم يكن لها علاقة بهذا النوع من « الحروب الصغيرة » .

●

واستناداً الى مصادر وردت على عجل من واشنطن ، بدأت الأوضاع تتغير وتتخذ مجرى آخر ... ومرد ذلك الى تسلم ايزنهاور سدة الرئاسة الاميركية وعودة تشرشل ، في بريطانيا ، الى الحكم من جديد ... اذ كان القلق يساور الاثنين معاً في خفض ميزانية البلاد وعصر النفقات ، ويتوقان الى ايجاد الحلول الملائمة وأهمها تلك التي توطد الأمن في البلاد وتسوي الاوضاع الاقتصادية فيها .

ويؤكد المراقبون ان تشرشل راودته هذه الفكرة قبل أن يعود الى الحكم وقد تحدثت الصحيفة الأميركية « القوات المقاتلة » عن الستراتيجية الأميركية الجديدة في مقال كتبه لويد نورمان .

ومما جاء في مقال لويد تأكيده :

« وافق تشرشل على ضرورة ايجاد القوة الجوية الذرية ، بعد الاجتماع الذي عقد في وزارة الطيران في البنتاغون حول موضوع الدفاع الستراتيجي والتزام

القائـــد الأعلى للطيران الذري بتنفيذ أهم ما ورد فيه للدفاع عن البلاد ضد اي غزو خارجي محتمل » .

***

وما أن انتهت حرب كوريا حتى انطلقت النداءات الوطنية تـــدعو الى اقتصاد المال وتوفيره بشتى الوسائـــل ... فتجاوب المواطنون ولاحت في الأفق بوادر سياسة جديدة لرفع مستوى الادارة وتحسين اوضاع الخزانة .

ان احتمال استخدام القنابل الهيدروجينية لا يحتاج الى امتلاك قوة طيران استراتيجية ، كما كانت تقتضيه غارات القصف ابان الحرب العالمية الثانية . انه قضية عدد اكثر منها قضية كمية وان عدداً قليلاً نسبيـــاً يفي بالغرض وينال الهدف تماماً .

اما القضية الملحة الاولى بالنسبة لنا هي ان نفهم بأن الاستخدام الكلاسيكي لقصف الطيران الستراتيجي لم يعد وارداً البتـة ... لأنه يفتح الطريق ، ولعله الطريق الوحيد ، امام ازدياد الاحتياطات من القوات التي نحن بحاجة اليها أي القوات الثلاث : البحرية والجوية والبرية ؛ ولكنه في نفس الوقت لا يزيد في الاستهلاك ، وهذا ما لا يحتمله وضعنا الاقتصادي .

ان ما نحتاج اليه ، قبل كل شيء ، للحفاظ على أمننا هو التروي والقدرة على التفكير في الأمور جيداً ، وأهم الاخطار المحدقة بنا متلخص في ثلاثة : الاهمال ، الانفعال ، وعدم التفكير ... فامتزاجها ببعض يؤدي الى انفجار ميت .

●

الاساطيل السوفياتية ومتاعب اميركا الاقتصادية

كتبت هذه الصفحات بعد حرب ١٩٦٧ . وفيها نقرأ التطورات التي حدثت في الشرق الاوسط والتخبط الذي تعيش فيه اميركا والازمات التي يعانيها اقتصادها . كما نقرأ فيها انفتاح الشرق على العالم السوفياتي ودخول اساطيله الى مياه البحر الابيض المتوسط ... ونلمس كـذلك الانتصارات الجديدة التي حققها الاتحاد السوفياتي في جميع المجالات ...

لا يشك أحد بأن الاقتصاد الأميركي يتعرض لهبوط مستمر . ويلمس ذلك على الاخص بالازدياد المتواصل لعدد العاطلين عن العمل . فقد خسر ٤٠٠ الف اميركي عملهم في الآونة الأخيرة ، وبلغ العدد الاجمالي للعاطلين عن العمل بالتالي حوالي ٣ ملايين و ٨٠٠ الف شخص ، أي بمعدل ٤،٢ بالمائة من اليـد العاملة الاميركية . كما أن مستوى البطالة ارتفع أيضاً في بعض الفروع الصناعية . وقد ازداد في الانشاءات الميكانيكية . فهناك ٨ بالمئة من عمـال البناء لا يجدون عملاً ... وترد من كل انحاء المدن والولايات في أميركا انباء عن تسريح آلاف العمال .

وراحت الشركات التي تتوصل الى الابقاء على انتاجها على مستواه ، راحت تخفض نفقاتها لشراء معدات جديدة ، الامر الذي يثبط الطابع المستمر للهبوط في الاقتصاد الاميركي .

كل ذلك يجـري في ظروف تضخم متعاظم . ففي شهر شباط ، ٦٨ ، ارتفعت الأسعار بمعدل ٦٪ سنوياً ... وهذا ما يساعد على استفحال البطالة...

ووفقاً لهذه الوقائع تعتقد أوساط واشنطن الى أن الهبوط هو وسيلة لتبرير الاقتصاد الذي حماه كثيراً سباق التسلح ... والحرب في فيتنام والنفقات الحكومية الهائلة لاغراض عسكرية ... ولكن الحكومة الأميركية لا تهتم بالعواقب المؤلمة التي ستتركها هذه الوسيلة على الملايين من الاميركيين .

* * *

يقول الباحث الاقتصادي هاين ليومر :

أخذ ارتفاع الأسعار يشتد بسرعة منذ ١٩٦٥ . فمن ١٩٦٠ الى ١٩٦٥ ، ازداد سعر السلع الاستهلاكية ١٫٣ بالمئة بمعدل وسطي في العام ، لكنه ارتفع ٢٫٥ بالمئة في ١٩٦٦ و ٣ بالمئة في ١٩٦٧ ، حتى بلغ زهاء ٥ بالمئة . والاتجاه بالنسبة لأسعار الجملة هو نفسه تقريباً ، ولو أنه أكثر انتظاماً .

وهذا التضخم السريع مصدره الرئيسي تصاعد الحرب العدوانية في فيتنام ومايوازيه للنفقات العسكرية .

فقد ارتفعت النفقات العسكرية المباشرة من ٤٩ مليار و ٦٠٠ مليون دولاراً في السنة المالية ١٩٦٥ الى ٨١ مليار و ٣٠٠ مليون دولاراً في أوائل ١٩٦٩ . وخلال هذه الفترة نفسها ازداد عجز الميزانية الاتحادية ايضاً وبلغ في ١٩٦٨ رقماً قياسياً : ٢٥ مليار و٢٠٠ مليون دولاراً . وازداد الدين العام ١٤ بالمئة والفوائد المتوجب دفعها على هذا الدين ٢٣ بالمئة .

ورافقت ارتفاع الأسعار زيادة في الضرائب . ان تخفيض الضرائب في ١٩٦٤ ، التي كانت قد خففت بعض الشيء عن الطبقة العاملة ، سرعان ما تبدد بسبب زيادة الضرائب من أجل الضمان الاجتماعي والزيادة المتواصلة

للضرائب المحلية وضرائب الولايات . وقد أضيف الى ذلك منذ ١٩٦٨ رسم الـ ١٠ بالمئة . واضيفت ، منذ كانون الثاني ١٩٦٩ ، زيادة جديدة في الضرائب من أجل الضمان الاجتماعي . وباختصار ، فان الضرائب تمتص في الوقت الراهن زهاء ٣٧ بالمائة من أجر العامل .

وفي أفضل الحالات ، فإن زيادة الأجور ، التي كان قد أحرزها العمال في الأعوام الأخيرة ، وفي أغلب الأحيان نتيجة لنضالات عسيرة ، لا تكاد تكفي للتعويض عن ارتفاع الأسعار والضرائب . فقد توقفِ الأجر الفعلي عن الارتفاع منذ ١٩٦٥ .

وعلى العكس ، فإن كبار الرأسماليين قد استفادوا . فمن ١٩٦٥ الى النصف الأول من ١٩٦٩ ازدادت أرباح الشركات الكبرى ، بعد دفع الضرائب زهاء ١٢ بالمئة . وقد تضاعفت منذ ١٩٦٠ ، في حين أن الأجر الأسبوعي الصافي للعمال قد ازداد أقل من ٢٧ بالمائة والاجر الاسبوعي الفعلي أقل من ١٠ بالمائة . وهذا هو الوجه الآخر لتصاعد الحرب الفيتنامية .

كان من نتيجة تصعيد الحرب في البداية ، تحفيز الاقتصاد تحفيزاً قوياً وازالة الانكماش الخطر . واعتباراً من الربع الأخير من عام ١٩٦٤ ، حتى الربع الأخير من عام ١٩٦٥ ، ازداد الإنتاج الوطني غير الصافي ٦،٤ بالمائة ، وازداد ٧،٣ بالمئة في ١٩٦٥ و ٩ بالمئة في ١٩٦٦ . وبلغ حجم الانتاج رقماً قياسياً في صناعة الفولاذ وصناعة السيارات .

وتدفقت الرساميل بوفرة ، وسجلت النفقات من أجل شراء الماكينات والمعدات قفزة بلغت ١٤،٦ بالمئة في ١٩٦٤ ، و ١٥،٧ بالمئة في ١٩٦٥ و ١٦،٦ بالمئة في ١٩٦٦ . وفي عام ١٩٦٥ ، وللمرة الاولى منذ عشر سنوات ، استخدمت الطاقات الانتاجية بنسبة تزيد عن ٩٠ بالمائة ، وفي نفس العام المذكور ، وفي أول مرة منذ حرب كوريا ، انخفض معدل البطالة ، وفقاً للاحصاءات الرسمية ، الى أقل من ٤ بالمائة .

ولكن في عام ١٩٦٦ ، ظهرت الأعراض الأولى لتباطؤ وانخفاض الإنتاج . وأصبحت أكثر بروزاً في عام ١٩٦٧ . وخلال النصف الأول من العام لم يرتفع تقريباً الانتاج الوطني الفعلي غير الصافي . بل ومن كانون الأول ١٩٦٦ الى أيار ١٩٦٧ سجل مؤشر الانتاج الصناعي انخفاضاً يبلغ ٢،٥ بالمئة وانخفض انتاج السيارات وانتاج الفولاذ انخفاضاً كبيراً . كما انخفضت أيضاً نفقات المعدات . وهبط استخدام الطاقات الإنتاجية ٨٥ بالمائة . وشهد الاقتصاد الأميركي ، على حد تعبير بعض المعلقين البورجوازيين انكماشاً صغيراً .

ومن المحتم أن ينعكس كل هذا على التسليف في البلاد .

* * *

ومع استمرار التصعيد ، فان زيادة الطلبات العسكرية ، والمستوى المرتفع للتوظيفات ، والطلب المتزايد جداً على السيارات وغيرها من سلع الاستعمال الدائم ، قد أثارت احتياجاً فورياً للاعتمادات . وقد ضاعفت المصارف التجارية وغيرها من مؤسسات التسليف قروضها ، وشوهد ، الى جانب ذلك ، تضخم سريع في الكتلة النقدية (أي النقد المتداول والحسابات المصرفية) . ففي شهر نيسان ازداد النقد المتداول بمعدل ٦،٣ بالمئة ، أي أكثر من ضعفي المعدل المعتبر كمعدل طبيعي . وكانت الفائدة على المال ، ترتفع أيضاً من دون توقف .

ومن أجل وقف المد التضخمي لاتساع التسليف ، دشن مصرف الاحتياط المركزي في نهاية ١٩٦٥ ، سياسة نقدية قاسية جداً تهدف الى تقييد أموال التسليف المتوفرة بصورة شديدة ... ورفع معدل الحسم من ٤ الى ٤،٥ بالمئة . وقد تبع ذلك بدوره ارتفاع في معدلات الفائدة على القروض الممنوحة من قبل المصارف التجارية ، في حين اتخذت تدابير من أجل تخفيض الاحتياطات التي يمكن أن تعوزها لهذا الغرض . وكان من نتيجة ذلك الابطاء

التدريجي لوتيرة زيادة الكتلة النقدية ، بشكل أنه في نيسان سنة ١٩٦٦ ، انخفضت كمية النقد المتداول بعض الشيء كذلك .

ان احدى نتائج تضييق التسليف ، كانت فرار الودائع المصرفية نحو قطاعات أكثر نفعاً ، لمدة بعيدة وعادية ، تحدد معدلات فائدتها انظمة مصرف الاحتياط الاتحادي . ونتج عن ذلك انخفاض كبير في الأموال المتوفرة للقروض الرهنية ، الأمر الذي تسبب بأزمة جدية في بناء المساكن .

* * *

ان التضخم الذي حفزته الحرب قد أزم المصاعب النقدية التي تشهدها الولايات المتحدة على الصعيد الدولي . فقد جعل الصادرات الأميركية أقل قدرة على المزاحمة في السوق العالمية في وقت جعلت فيه الطفرة الناتجة عن الحرب زيادة المستوردات شيئاً ضرورياً . وهبط فائض الميزان التجاري في الولايات المتحدة من ٥ مليارات و ٣٠٠ مليون دولار في ١٩٦٥ ، الى مستوى سنوي يقل ٥٠٠ مليون دولار بالنسبة للاشهر السبعة الأولى من ١٩٦٧ ، وفضلاً عن ذلك ، فمن أصل أكثر من ٣٠ مليار دولاراً بددت كل عام على الحرب في فيتنام ، وانفق مليار واحد في البلدان الأجنبية ، الأمر الذي انبثق عنه استفحال مزمن لعجز ميزان المدفوعات وفرار جديد للذهب ساهم في تقويض موقع الدولار كعملة دولية .

وأثار تخفيض الجنيه الاسترليني في خريف ١٩٦٧ ، أزمة جدية للدولار امتدت حتى بداية ١٩٦٨ . وقد أمكن مؤقتاً وقف هذه الأزمة ، لكن المصارف المركزية للبلدان الرأسمالية الرئيسية ، التي تحوز مبالغ ضخمة بالدولارات قد اعلنت بأنها لن تحتفظ بها إلا اذا وضعت الولايات المتحدة حداً لعجز مدفوعاتها ، أي اذا اتخذت تدابير ضد التضخم .

وهذا الضغط هو بالدرجة الاولى الذي حث الاوساط الحاكمة الاميركية على شن النضال ضد موجة التضخم . ولم تلبث حكومة جونسون ان عملت بسرعة وقدمت برنامجاً ينص على :

١ — خفض النفقات الاتحادية للاغراض المدنية .

٢ — خفض الاستهلاك الخاص .

ومن اجل بلوغ هذه الاهداف كانت تعتمد بالدرجة الاولى على رسم اضافي اتحادي يبلغ ١٠ بالمائة . وكانت تأمل على هذا النحو مكافحة الغليان المفرط ، وابطاء الانتاج وزيادة البطالة بعض الشيء ، الامر الذي من شأنه ، كما كانت تعتقد ، ان يتيح اضعاف الضغط التضخمي .

وهذه السياسة كانت تهدف عمداً الى ابطاء النمو الاقتصادي وتوفير عناصر الانكماش .

وتقوم هذه السياسة على المفهوم الزائف ، مفهوم الدائرة اللولبية التضخمية ، اذ ان هذا المفهوم يقول بان التضخم هو نتيجة لقوة شرائية مفرطة لليد العاملة ولا يمكن معالجته إلا بتخفيض مستوى حياتها .

عجز في ميزان المدفوعات ، ودين عام متزايد ، وصعود في التضخم . بهذا الثمن استطاعت الامبراطورية العالمية للامبريالية الاميركية ان تظل باقية حتى اليوم . إلا ان هذه السياسة تفضل ان لا ترى ذلك . وقد حان الوقت الآن لدفع فاتورة حساب حرب فيتنام : فالعبء الذي يرهق كاهل العمال سيزداد ثقلاً ايضاً .

***

كانت الاوساط الرسمية تأمل بأن يتبع الضريبة الاضافية بعض الركود في الاعمال . ولكن نتائجها الفورية لم تحقق آمال هذه الاوساط ابداً . صحيح ان التوسع الاقتصادي قد خف في عام ١٩٦٨ ، اذ ان زيادة الانتاج الوطني غير الصافي ، خلال الربع الاخير لم تبلغ سوى ٣,٩ بالمئة مقابل ٧,٢ بالمئة خلال الربع الثاني . بل قد لوحظ انخفاض وتأثر نمو الانتاج الصناعي خلال النصف الثاني من العام . لكن هذا الانخفاض يجد تفسيراً له بصورة تامة تقريباً بتخفيض النفقات العامة .

ونتيجة لانخفاض القدرة الشرائية بسبب الضرائب المرتفعة اكثر فاكثر ، فان الطلب الخاص لم يستطع ان يتقدم الا باقتطاع من الادخار وبلجوء واسع الى الاستلاف . وقد هبط معدل الادخار عن ٧,٣ بالمئة من الدخل الصافي خلال النصف الاول من ١٩٦٨ الى ٦,٦ بالمئة خلال النصف الثاني ، في حين ان التسليف في الاستهلاك قد ازداد ، خلال النصف ذاته ، وبسرعة تزيد مرتين عن السرعة في النصف الاول .

ومثل هذا التطور للاستهلاك لم يكن من الممكن ان يستمر الى ما لا نهاية له بالطبع ، إلا انه يظل مع ذلك ان الانتاج قد استمر بالازدياد في نهاية العام في القطاعات الرئيسية للاقتصاد ، بالرغم من الجهود المبذولة من قبل الحكومة من اجل وقف هذا الاتجاه .

وهناك واقع ايضاً تجدر الاشارة اليه : الزيادة البطيئة ولكنها متواصلة التي ارتفعت في اوائل ١٩٦٩ من ٣,٣ بالمئة الى ٣,٥ بالمئة وقفزت بالتالي الى ٤٪ فيما بعد ، الامر الذي يشكل تغييراً نوعياً يعبر ، من جملة ما يعبر عنه ، عن تخل عام ، تحت تأثير الانكماش ، عن عادة الابقاء على فائض اليد العاملة ضمن بعض الحدود . وتشير بعض الدلائل الى انه في الاشهر القادمة ستواصل البطالة ازديادها ، ومن المحتمل ان تبلغ ٥ بالمئة عما قريب .

ان العمال الزنوج ، الذين توجد لديهم نسبة بطالة ارفع بكثير نسبياً ، هم الذين اكثر من سيعانون من ذلك . وقد جاء في دراسة لوزارة العمل تتعلق بمناطق البؤس في مئة مدينة ، ان المستوى العام للبطالة قد كان فيها ٧و٥ بالمئة في الربع الاول من ١٩٦٩ . اي انه بقي كما كان عليه في ١٩٦٨ . ولكن خلال العام ، فان معدل البطالة بين العمال الزنوج قد ارتفع من ٣و٧ بالمئة الى ٨ بالمئة ، في حين انه هبـــط بين العمال البيض من ٤و٦ بالمئة الى ٤ بالمئة . وتثبت الاحصائيات الشهرية للبطالة ايضاً ان البطالة قد انخفضت بين الشبيبة البيضاء فهبطت من ١و١٠ بالمئة في حزيران ١٩٦٨ الى ٥و٩ بالمئة في اوائل العام التالي ، في حين ارتفعت بين الشبيبة الزنجية من ٢٢ بالمئة الى ٢٨و٦ بالمئة ، الامر الذي يعني ان شاباً زنجياً على الاقل من اصل ٤ لا يجد عملاً .

ان بطء النمو قد تجسد ايضاً في انخفاض شديد في البورصة ، فمن اواسط ايار الى بداية تشرين الاول ، فان قيمة الاسهم قد انخفضت زهاء ١٧ بالمئة . وفي اواسط تشرين الاول ، اثناء المظاهرات الكبرى في سبيل السلم ، لوحظ بعض الانتعاش ، العائد على الاخص الى الامل في وقف العمليات الحربية في فيتنام . لكن هذا الانتعاش لم يكن كافياً لمقاومة الاتجاه العام نحو الهبوط .

ان الامر الذي له دلالته هو ان الحملة الصليبية المضادة للتضخم هي ابعد من ان تكون ، الآن على الاقل ، قد بلغت هدفهـــا : وقف التضخم دون اثارة الانكماش . ففي بداية ١٩٦٩ توقعت حكومة نيكسون ان تهبط وتيرة النمو الاقتصادي في كانون الاول الى ٣ — ٥و٣ بالمئة ، وان البطالة ستبلغ ٤ بالمئة بل اكثر ، وان ارتفاع الاسعار لن يتخطى ٣ او ٥و٣ بالمئة . والجدير بالذكر انها لم تتوقع ابداً العودة الى المعدل الوسطي لارتفاع الاسعار بنسبة ٣و١ في العام ، كما كان الحال قبل بداية التصعيد . ومع ذلك وبالرغم من ان المعدل الوسطي السنوي لوتيرة النمو الاقتصادي قد هبط ٢ بالمئة ، فان اسعار السلع الاستهلاكية

قد واصلت صعودها بنسبة ٥ الى ٦ بالمئة في العــــام ، وفضلا عن ذلك ، فمن المشكوك فيه بصورة عامة امكان خفض هذا الرقم في السنوات المقبلة .

❋

وهكذا فان السياسة التي تتلخص بالتعويض عن البطالة باستقرار الاسعار لم تعط نتيجة حتى الآن ، ولا يحتمل ان تتوصل الى ذلك ذات يوم .

لا تأخذ السياسة الحكومية بعين الاعتبار أبداً ، النتائج التضخمية لحرب فيتنام . الا أنه لا يمكن أن تكون موضوع بحث مسألة تخفيض ملموس للتضخم اذا لم يوضع حد لهذه الحرب واذا لم تخفض الميزانية العسكرية تخفيضاً ملحوظاً.

ان التضخم ومعـــدلات رفع الفائدة الهائلة ، وأزمة الدولار ، والبطالة المثارة بصورة اصطناعية ، كل ذلك من أعراض عدم الاستقرار المتزايد للاقتصاد الرأسمالي الأميركي . وبقدر ما يستفحل عدم الاستقرار هذا ، يسعى الرأسمال الاحتكاري جاهداً كي يلقي على كاهل العمال عبء المصاعب التي يستتبعها. الا أن مقاومة العمال لا بد وان تتعزز هي أيضاً . وسيصبح صراع الطبقات مريراً أكثر فأكثر .

ومن الصراع المالي الذى تعانيه أميركا ننتقل الى التزاماتها الأخرى بالدفاع عن القارة الأوروبية والتي من أجلها انشأت حلف الأطلسي لترد به على حلف وارسو وكيف أن الدولتين — روسيا وأميركا — تتصارعان على مد رقعة نفوذهما في الشرق الأوسط وبعد راحت الأساطيل تجوب مياه البحر الابيض المتوسط.

✲

ان قضية تدعيم أمن القارة الاوروبية تستأثر بأفكار الملايين من الاوروبيين

الذين يسعون ويبذلون جهوداً كبيرة من أجل التوصل الى حل لهذه القضية التي يرتبط بهـا مستقبل كافة شعوب القارة التي اندلعت منها شرارات الحربين الأخيرين ، في النصف الاول من القرن العشرين ومـا جرته من ويلات على شعوب العالم أجمع .

وهنا تبرز الاهمية الخاصة للمبادرات المتلاحقة التي أبدتها الدول الاشتراكية الاعضاء في حلف وارسو ، والتي جاءت بشكـل نداءات لعقد مؤتمر أوروبي شامل لبحث قضايا الأمن في أوروبا والتعاون السلمي ، والتي كانت تسعى الى اقتراح جدول اعمال يتضمن قضيتين هامتين ، الاولى : قضية الحفاظ على الأمن الأوروبي والتخلي عن استخدام القوة او التهديد بها في العلاقات ما بين الدول الأوروبية .

والثانية قضية اقامة وتوسيع علاقات تجارية واقتصادية وعلمية متكافئة تسهم في تطوير التعاون السياسي بين الدول الاوروبية .

وكان لهذه الاقتراحات اصداء واسعة لدى الرأي العام الاوروبي بما تحمله من ايجابية في معالجة قضية معقدة تتعلق بأحدى أهم معضلات نتائج الحرب العالمية الثانية .

ولمواجهة هذه الاقتراحات الايجابية بادرت الولايات المتحدة بالاتفاق مع المانيا الغربية وبريطانيا على حمل الدول الأعضاء في الحلف الاطلسي الى اتخاذ مواقف سلبية وذلك في الدورة التي عقدت في اوائل عام ١٩٦٩ في بلجيكا حيث صدرت قرارات تشكل في جوهرها محاولة لعرقلـة التحضير للمؤتمر الاوروبي وبالتالي تضمين هذه القرارات اقتراحات خاصة كقضية « التخفيض المتبادل والمتوازن للقوات المسلحة في اوروبا » وقضيتي المانيا وبرلين. هذه القضايا التي لم تؤد مناقشتها الى نتائج ايجابية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

والذي ظهر فيما بعد للحلف ان الموقف من مؤتمر للامن الأوروبي مع الاساس المقترح من جانب دول اعضاء حلف وارسو لا يزال يتعرض الى محاولات العرقلة من جانب الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيـــا ، وذلك بالتأكيد على الاقتراحات التي تضمنتها قرارات الدورات السابقة للحلف ، بالاضافة الى المقترحات حول لجنة استطلاعية لبحث الطرق المؤدية الى تخفيض التوازن .

هذا مع العلم ان الدول الصغيرة في الحلف اعربت عن استعدادها للمشاركة في التحضير للمؤتمر ، وبرز ذلك في عدة مواقف رسمية اتخذت على سبيل المثال في الجمعية الاستشارية للمجلس الاوروبي الذي يضم عـــدة بلدان من اوروبا الغربية وبعض البلدان السكندينافية .

ولكن هـــذا الاتجاه لم يبرز بشكل واضح في الاجتماعات الأخيرة وبقي غامضاً . اذ ان البيان النهائي الذي صدر عن الدورة لم يشر الى المؤتمر المقترح من قبل دول اعضاء حلف وارسو بالعكس اكد على قرارات كانون الأول سنة ١٩٦٩ .

والقضية الاخرى التي استأثرت باهتمام اعضاء الحلف هي الوضع الطارىء في البحر الأبيض المتوسط والحرب الاسرائيلية العربية :

ان دخول الأسطول الحربي السوفياتي الى البحر الابيض المتوسط قد قلب ميزان القوى ولم يعد البحر الأبيض المتوسط مرتعاً للاسطول السادس الاميركي واساطيل دول الحلف الأطلسي ، تمخر فيه مهـــددة امن وسلام حوض البحر المتوسط... فالقوة البحرية السوفياتية التي برزت في السنوات الأخيرة في البحر الأبيض المتوسط شكلت قوة ردع اساسية ضد القوات البحرية الأميركيـــة والأطلسية .

وبالطبع شكلت هذه القضية محوراً اساسياً في اعمال المؤتمر الأخير للحلف

حيث اشار البيان النهائي الذي صدر عنه الى : « ان الدورة تبقى مفتوحة لترقب الوجود السوفياتي ومضاعفاته على استراتيجية الحلف الاطلسي العدوانية تجاه بلدان المنطقة » .

كما اكدت الدورة ان سياسة الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها في حلف شمال الاطلسي تجاه حركات التحرر الوطني في مجمل بلدان العالم الثالث ، سياسة ترتكز على العدوان والتدخل في شؤونها ، وان هذه السياسة تلاقي السخط والاستنكار في العالم اجمع .

*

بريطانيا واحداث عام ١٩٥٦

ظهر تعلق بريطانيا بعاداتها وافكارها جلياً – وبعد ان عجزت عن التكيف بتطور الأحدث – عندما هاجمت عبد الناصر لترد على استيلائه على قنال السويس سنة ١٩٥٦ . ان الرد الذي جاء بعد اربعة اشهر من التأميم كان يعبر عن كيفية نظر هذه الدولة الى الامور .

وفضلاً عن الهدف المصرح به وهو وقف امتداد رقعة الحرب في الشرق الاوسط ، نؤكد على انه كان للمغامرة البريطانية اهداف اربعة :

١ – الاحتفاظ بالقنال مفتوحاً وصالحاً للملاحة .

٢ – استمرار تدفق البترول الى اوروبا .

٣ – مقاتلة عبد الناصر .

٤ – وقف التغلغل السوفياتي في المنطقة .

ولكن النتيجة كانت عكس الاهــــداف التي توقعتها المغامرة الفرنسية ـ البريطانية : فقد اقفل القنال وتوقفت امدادات البترول ، وازداد عبد الناصر شعبية وقوة وفتح الباب على مصراعيه للسوفيات في الشرق . ويمكننا ان نستنتج فنقول :

ان النتائج جاءت من اسوأ ما يمكن ان تقدمه عملية قذرة كهذه . وكان هذا من الناحية السياسيــة والعسكرية عبارة عن مزيج من الاخطاء تؤزم بعضها البعض .

***

ومن المضحك ان الحكومة لم تجـد ما تبرر به اتحادها مع اسرائيل لمهاجمة مصر سوى قولها بان هذا التدخل سوف لن يحرم اسرائيل بل بريطانيا نفسها من الارباح التي قد تجنيها ، اذا كانت الدولتان غائبتين عن مسرح الأحداث . ونجحت الغارات الاسرائيلية على مصر ، في الوقت الذي كان فيــه الانكليز يدخلون الحلقة ، وان القنال سيفتح بعد اسابيع ... كما ان تــدمير الطائرات المصرية فوق مدارجها حال دون استقبالها الطائرات الروسية . كان سيتم هذا دون ان يكلف انكلترا شيئاً ... وان هذه الاخيرة ستكون في وضع جيد يمكنها من وقف التدخل الروسي ويسهل التسوية السلمية .

ويصعب علينا ان نفهم كيف استطاع انطوني ايدن ان يتخيل ان طبيعــة تحذيره والعمل الذي تبعه يمكن ان تتسم بطابع آخر ، لاي كان خارج بريطانيا ، سوى مهاجمة مصر والاستيلاء على السويس من جديد ؟

كان كل امل بنتيجة ايجابية وملائمة ، بعد اتخاذه هذا القرار المميت، يرتكز على نجاح سريع.. فالمهم هو استعادة القنال قبل ان يقفله المصريون ويحاصروه.. ويجب بالتالي الحصول على نجاح تام قبـــل ان يقف الرأي العالمي ضد بريطانيا وفرنسا ، او قبل ان تستغل روسيا الفرصة وتتدخل جدياً في القضية .

ولكن نهج العمل ومداه وطبيعة القوات والقواعد التي انطلقوا منها ، كانت غير ملائمة للهدف المقترح ... وربما بدا هذا واضحاً للحكومة كما بدا لمستشاريها التقنيين .

* * *

بدت الطريقة هذه كاعادة مصغرة لا نزالات تمت في البحر الا بيض المتوسط ابان الحرب الاخيرة وعندما لم يكن للوقت اهمية تعادل اهمية العملية المكثفة والمعدة جيداً . اما في قضيـة السويس فالحالة تختلف لان البرود البريطاني جاء اقوى مما هو عليه .

كانت احسن طريقة لتخليص القنال من الحصار ان يتم الاستيلاء على جميع نقاطه الحساسة وعلى المطارات بواسطة غارة جوية . ويحتاج هذا التدبير الى فرقة محملة ومن الأفضل ان تكونا اثنتين ... فمنـــذ سنوات والكل يعلم ان احتياط بريطانيا الستراتيجي فوق ارضها يكمن في قوة محملة، وان اسطولاً جوياً يكفي ، ربما ، لنقل فرقة محملة بكاملها الى اي مكان فيما وراء البحار . ورغم كل هذه التوصيات لم يكن لدى بريطانيا سوى كتيبة واحدة من هذا النوع وان وسائل النقل عندها ضعيفة جداً .

والدليل على هذا أنه عنـدما جاؤا يضربون بور سعيد فقط ، انزلوا فوق المدينة فيلقاً مكوناً من خمسمائة مظلي بينما دخل فيلقان آخران من البحر ... أما الفرنسيون فقد القوا ضعفي العدد وكانوا على استعداد لالقاء ١٥٠٠ رجلاً انما حال وقف اطلاق النار دون تنفيذ العملية .

كان هذا اسوأ ما في القضية ، اذ كانت المهمة البريطانية تقضي بفتح الطريق نحو الجنوب وعلى طول القسم الاول من القنال ، وكان على الفرنسيين ان يتبعوهم ويتخطوهم ، في نقطة وسط ، ليقوموا بعملية تمتد حتى آخر السويس .

* * *

ولما لم يكن العدد كافياً لتنفيذ العملية ، اتجهت الانظار عندئذ الى ان القوة المهمة يجب ان تجلب بطريق البحر ، وهي طريقة بطيئة ، وتخفف من حظ المفاجأة المرتقبة .

ومما زاد في فشل التصرف العسكري هذا هو عـــدم تكيف القواعد البريطانية . فقبرص تبعد مسافة ٢٠٠ ميلاً عن بور سعيد ، أي مسافة يوم واحد ، ولكن ليس فيها سوى مرفأ واحد . أما مالطة فتبعد مسافة الف ميل وهي بعيدة من أجل تأمين التحركات السريعة وصغيرة من أجـــل اعداد الخطط الهامة وتمرين الجنود كفاية وتجميعهم لإرسالهم فيما بعد الى ساحة المعركة. عندئذ فكر الانكليز باستعمال موانىء ليبيا لكونها في مكان وسطي وكثر عنها الحديث في التصاميم الأولية . وعندما علم العرب الذين يسكنون هذه الأمكنة بنوايا الانكليز ثاروا مما أجبر المخططين على صرف النظر عن فكرتهم وتبين لهم أنه لا يمكن ضرب بلد عربي من بلد عربي آخر . ونفس القول يطبق على القواعد الانكليزية في الاردن .

وهكذا لم يجدوا بداً من الرجوع الى مالطة واستخدامها لتنفيذ المآرب العسكرية .

* * *

ومن ناحية ثانية تأزمت قضية النقل البحري لكون المستودعات قليلة جداً وان الدبابات كبيرة الحجم يلزمها أمكنة أكبر وهذا ما لم يكن متوافراً لدى الانكليز ... لذلك تم ابقاء ثلاثين حاملة دبابات تحت تصرف القوات البحرية واستخدمت اثنتان فقط لحمل نصف مجموعة من المدرعات ، وهي قوة غير كافية لعملية مماثلة .

تدنت فرص المفاجأة والسرعة في العملية ، ثم تلاشت بعد ان تم الرأي على

الشروع في عملية قصف جوي قبل أن تنزل القوات الى البر . ولكن هذا لم يبدأ الا في اليوم السادس ، وبسيل وفير من المظليين ... وفي اليوم التالي تم انزال القوات البحرية .

مضت مدة على اقفال القنال وقبل ان تهاجم انكلترا وفرنسا وشجبت الأمم المتحدة عملها ، بينما كانت الولايات المتحدة تعمل من أجل وقف اطلاق النار في الحال .

كيف يمكن دراسة وتيرة عمل كهذا واعتناقه ؟ وهذا يعود الى عادات كانت متبعة في الحرب الاخيرة ، متماسكة مع الخوف والخسائر الفادحة ، واحتجاج جماهيري اذا ما حلت ذات يوم ، كان يسببها هجوم مضاد تقوم به طائرات عبد الناصر وخاصة اذا اعترضت طائرات النقل البريطاني طيرانه النفاث .

ومن الواضح اليوم ان هـذا الخطر لم يؤخذ بعين الاعتبار ، كما فكر فيه الاختصاصيون منذ البداية .

انه لخطأ فادح ان نجرب هجوماً دون ان نكون على استعداد لتقبل خطر كهذا ، ففي عملية كقضية السويس كان عامل المفاجأة أقوى من عامل الوقت .

أما العامل الآخر والهام الذي عمل لصالح تطويل القصف ، هو رغبة القائد الجوي في أن يجرب نظريته ويتحقق مما اذا كان القرار النهائي قد يكتسب فقط بواسطة عمل الطيران . ان هذا الميل يتفق والتعاليل التي قدمها أمهر المصممين في الجيش ، وبالتالي يزيدها قوة وفعالية .

لم تكن هذه هي العوامل الأخيرة التي تعمل ضد المفاجأة والسرعة اللتان هما روح عملية شبيهة ... فهناك اخطاء حصلت في كيفية استدعاء جنود الاحتياط

وفي تجميع المؤن والمعدات التي افترض انها جاهزة ومعدة تحت الطلب ، انما العكس كان صحيحاً ... كما كان قسم كبير من السفن لا يصلح للعمل .

ان عوامل النجاح السريع في عمـــل دفاعي ، تتطلب نوعيات من الجرأة والحيوية وقـــلة من الرحمة ، والتي ليست من طبع الانكليز كما كانت في أيام دريك ونلسون .

* * *

كانت الاخطاء الحربية فظيعة . ولكن الأخطاء السياسية والاقتصاديـــة جاءت أسوأ منها أيضاً .

سياساً ، لم يكن النجاح النهائي مضموناً ، اذا تمنعت الولايات المتحدة عن دعمه ، نظراً لقوة الكتلة الافرو أسيوية في الأمم المتحدة وخطر التدخـــل الروسي . امـــا محاولة تجربة عمل حربي ضد مصر فهذا ضرب من الشجاعة وبدون موافقة الرئيس ايزنهاور . فاذا تم الحدث ، فانه من الخطأ ان ندعه يغوص في الظلام ... أما ردة الفعل المرتقبة عنه ، جـاءت طبيعية ... وبالاختصار نستطيع ان نؤكد بأن العملية هي عملية رجل أعمال له ست شركاء وذات يوم يكتشف انهم تصرفوا بالرأسمال والشركة من دون علمه .

هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية الاقتصادية فقد وقعت بريطانيا في فخ مالي مزدوج ، فهي لا تستطيع تمويل العملية ولا الاستمرار بها ، بدون مساعدة أميركية وخاصة في احتياجاتها من البترول والعملة الصعبة . انه فعلاً عمل جنوني ان تقوم حكومة ما بحرب وليس لديها الوسائل لدعمها ، وحتى لو وجب ان تنجح ، دون ان تلجأ الى هذه المساعدة الضرورية .

يتضح لنا ان الحكومة البريطانية باتت غير قادرة على الاستمرار في الحرب

لمدة أسبوع آخر دون تصاب بكارثة مالية ، كانهيار الجنيه مثلا . ان هذا الواقع المؤلم هو الرد النهائي على ذلك التعليل ، والذي كان ليستمر دون ان يقلق لنصائح الأمم المتحدة والولايات المتحدة .

* * *

ما هي النتيجة التي نخلص اليها من عملية السويس ؟

هو ان انكلترا لم تعد قادرة للقيام بدور قوي وانها باتت لا تجيد استعمال « سياسة القوة » . وان مراقبة نمط ديموقراطيتها والانحلال الاخلاقي وصعوبة دفع الشفقة الى النهاية ، تؤلف فشلا مثلث الجذور . يضاف الى ذلك البرود المتزايد الذي اتصفت به دائماً ... وأخيراً ارتباطها المالي بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية ...

ونصيحتي لها ، من جميع الاوجه ، هو ان تتبع سياسة اخلاقية ، أو على الاقل ، سياسة مرنة تقبل بها غالبية الرأي العالمي .

●

الخدعة البريطانية الكبرى

عرف عن البريطانيين قديماً تعلقهم بهذا البيت الشعري الروماني الذي يقول:

« أرض الامل والمجد »

وتقول لازمته :

بقدر ما تنمو وتنمو قفزاتك

فالله الذي جعلك قوياً ، يزدك قوة على قوة .

كانت الاجيال البريطانية القديمة تقف أمام خارطة العالم وتتأمل الممتلكات الانكليزية منثورة في أرجاء الدنيا ، واعتادوا ان يلقبوها : « الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس أبداً » . وكان هذا موضوع فخارهم الوحيد . كانوا يجهلون ان نفس العبارة اطلقت على ممتلكات البرتغال واسبانيا ، وان هذه انطفأت وتلاشت منحصرة على ذاتها في بلدان صغيرة كما هي عليه اليوم...ونقول نفس الشيء بالنسبة للامبراطورية الرومانية .

واهم ما في الموضوع هو كيف أن جزيرة صغيرة كبريطانيا استطاعت ان تحكم مدة طويلة أكبر المدن في العالم وتستولي على المسافات الشاسعة مع انه لم يكن لديها سوى جيش صغير . انها دون شك أكبر مغامرة عرفها التاريخ ، لا بل أكبر خدعة سطرت في صفحاته .

كانت خدعة منذ البداية ، ولكنها ترتكز على قوة حقيقية ، ولو كانت النسبة جزئية بين تلك القوة والنتائج التي اعطتها ... وارتكزت قوتها البحرية

والصناعية والاقتصادية ، خاصة بعد الثورة الصناعية في أوروبا ، على اساس توسعها الاستعماري .

كانت القوات البرية قليلة وعاجزة عن تنجية الاقتصاد ، أما السلاح فكان فعالاً ليسمح لها بالسيطرة على الشعوب المسلحة بطريقة بدائية في آسيا وافريقيا . ولا غرابة في ذلك ، اذ ان حفنة من ٦٠٠ جندي أكتسحت امبراطورية المكسيك بينما اكتسحت حفنة أخرى مكونة من ٢٠٠ جندي امبراطورية البيرو في اميركا الجنوبية .

واستطاعت القوات البحرية ان تبقى دائماً السباقة في البحر من اجل ان تمنع القوات الاوروبية الاخرى من التدخل . كما ان مواردها المالية المتزايدة ركزت رصيدها وسمحت لها بتقديم مساعدات كافية لكل بلد استولت عليه .

ولعل ما ساعد البريطانيين في امور مختلفة هو ان سكان تلك البلاد كانوا على استعداد لمساعدتهم وتحيتهم كمخلصين من نير العبودية .

وما ان اشرق القرن الحالي حتى ضعفت قاعدة هذه الخدعة نسبة للعوامل الجديدة التي طرأت ... وباتت قوة بريطانيا البحرية مهددة بقوات اخرى وفي طليعتها اليابان تلك الدولة الاسيوية التي بنت قوة بحرية جبارة لصد اخصامها الاوروبيين ولكن الانتصارات الروسية قضت عليها في عام ١٩٠٤ — ١٩٠٥ ... كما ان القوة البحرية تأثرت جداً بتطور القوة الجوية .

* * *

انتهت الخدعة البريطانية عندما نشبت الحرب العالمية الثانيـــة ، وتحت الضربات المستمرة من قبل اليابانيين ومن الهزائم التي الحقها بنا رومل في الشرق الأوسط في الوقت نفسه .

انها ولا شك سخرية القدر وكذلك حظ كبير ان نحتفظ بماليزيا وبرمانيا لمدة ولكننا عدنا وخسرنا نتيجة لمقررات تشرشل الرهيبة والتي قضت بارسال قوات ومعدات الى الشرق الأوسط في عام ١٩٤١ – من اجـــل كسب نصر لم يكتمل بعد – بينما كان الأفضل ارسالها الى سنغافورة للحفاظ على ما تبقى لنا من دور هناك .

لم تكن جراح ونتائج هذه الكوارث قد التأمت بعد ولا النفوذ البريطاني ، ابان النصر سنة ١٩٤٥ . ففي نظرنا ونظر العالم اجمع ان هذه المعركة كسبت من جراء التوافق بين كل من روسيا واميركا ... وعلاوة عن ذلك ، فقـــد جعل الفوز منها دولتين كبيرتين في نظر بريطانيا ، بينما اثقل الانتصار كاهل بريطانيا وجعلها تعاني من ازمة مالية خطيرة ... جعلها كمفلس يتعلق بما تحسنه اليـــه اميركا ... وعادت الآن ، في السنوات التي تلت الحرب تناضل لتلعـــب دور دولة قوية في الامبراطورية البحرية . ان هذه المحاولة ما هي الا احياء للخدعة الكبرى والتي سوف لن تجدي بريطانيا شيئاً بل ستزيد من متاعبها الاقتصادية .

ان قضية خط سياسي جديد تدعمه دائماً الواقعية الحربية ولا تستطيع بريطانيا ان تحمي الشرق الاوسط ، حتى ولو ساندتها الولايات المتحـــدة الاميركية ، ان القوات الروسية المرابطة هناك اقوى بكثير من اية قوة نرد بها نحن... اذ بامكان روسيا اعداد عشرين فرقة من اجل غزو متشعب ابتداء من القوقاز وحتى شمال البحر الكاريبي .

وفي رأيي ان القوات العربية عاجزة عن الصمود أمام ضربة كهذه ... أما تركيا ، فربما كفلت حماية نفسها بنفسها ... فهي تعيش على هامش المعركة ولا تستطيع سد الطرق المؤدية الى حقول البترول في الشرق الاوسط .

ماذا يستطيع الغرب ان يفعـــل لتقوية الدفاع ؟ ربما استطاعت انكلترا

وفرنسا ارسال فرقتين ارسلت الولايات المتحدة الاميركية واحدة او اكثر ... ومع ذلك فهذا العدد لا يفي بالغرض . قد يتوقع الحلفاء هجوماً بالقنابل والشظايا النووية فوق الجبال ، ويأملون صده ... ولكن هذا لا يبرهن الا على شيء واحد : هو ان الفشل الجزئي محتم ... فالقوات الروسية تستطيع ان تتخطاه بسهولة ... فتسحق أي خصم كان وتستولي على حقول البترول في المنطقة .

***

وفي النهاية ، فالوسيلة الوحيدة لمنع الجيش الروسي من الدخول الى الشرق الاوسط ، هو السلاح الرادع . وبكلمة اخرى ، يجب تخفيف حدة الغزو كاللجوء الى التهديد بالقاء القنابل الهيدروجينية فوق المراكز الروسية الحيوية .

ولعل أفضل أمل بالتعرض للنفوذ الروسي وحماية التموينات البريطانية البترولية في الشرق الاوسط ، هو ان تعمد بريطانيا الى تمثيل دور « الحارس الأمين » في المنطقة .

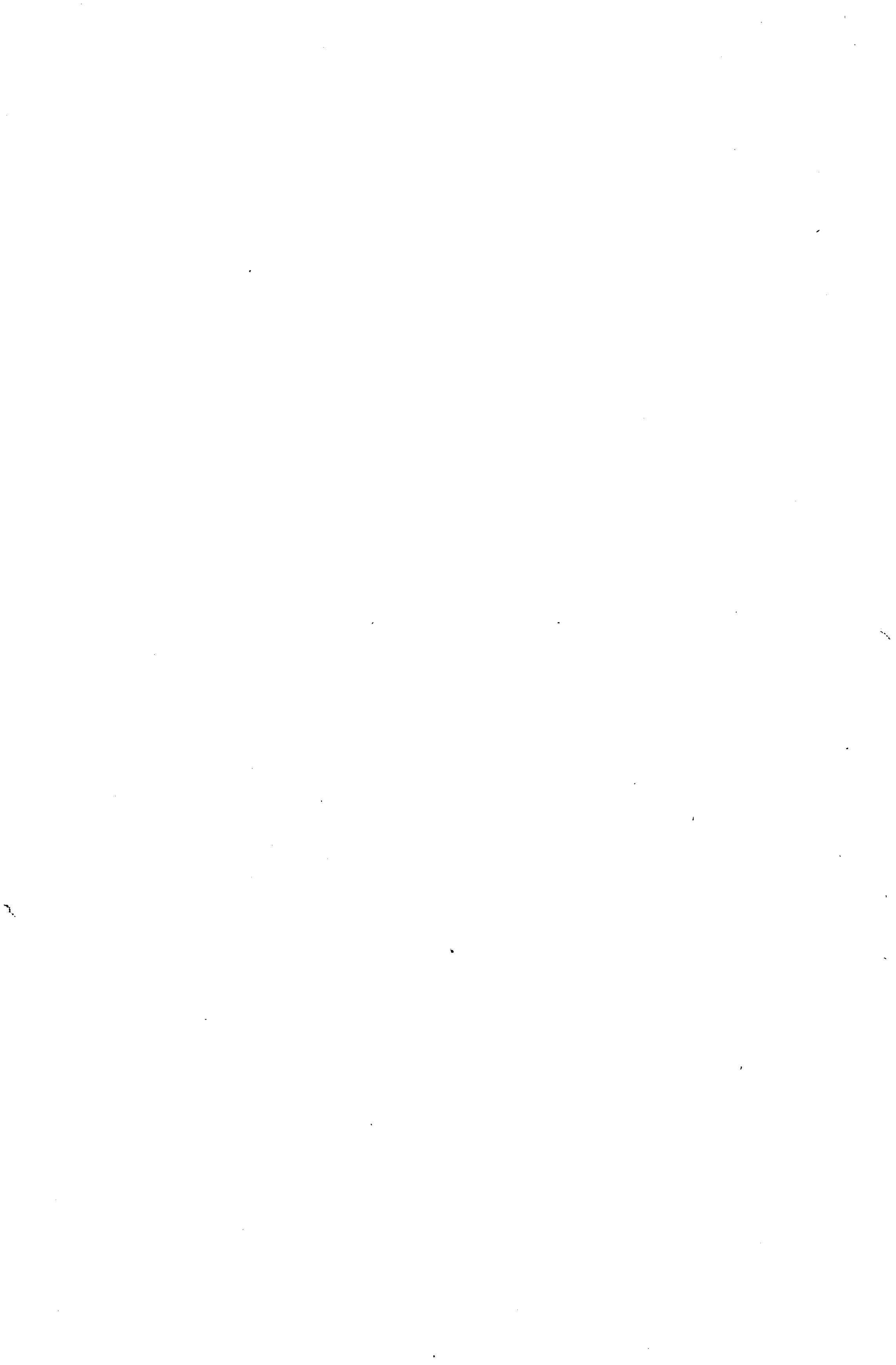
نقول نفس الشيء عن الشرق الاقصى ... فهو كذلك من دون حماية . فالصين عرضة للردع النووي أكثر من روسيا ، رغم البدائية التي ما زالت سائدة في اوساط الاولى ... ومع هذا نرى ان بريطانيا لا زالت تتعلق في ذلك القطاع بمراكز المساندة الامبريالية فيه والتي تتفتت أمامها ، تجتاحها موجة الوطنية الآسيوية .

لعل الاختبار قد علم انكلترا الجنون ببناء القصور فوق الرمل . فإذا استفادت من هذا الدرس وعرفت قدر قواتها ، ربما استعادت نشاطها وحصلت على نتائج ايجابية . وهكذا تستعيد النفوذ الذي خسرته عندما عاشت على امجاد الماضي وطمحت الى قوة باتت لا تملكها منذ زمن طويل .

●

القسم الثاني

نظرات في الحاضر والمستقبل



الظواهر الاميركية في الشرق الاوسط

من أهم وسائل الغزو الفكري التي تستخدمها ادارة المخابرات الاميركية هي المطبوعات ... التي تشمل الصحف والكتب والنشرات .

وقد درجت معظم الصحف الكبرى في الولايات المتحدة الاميركية على سياسة اصدار طبعات خاصة بالدول العربية ، وذلك بالاتفاق مع وزارة الاستعلامات الاميركية وعن طريق هذه الطبعات الخاصة تعرض وجهة النظر الاميركية في شتى الشؤون من سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية ، وهي وجهة نظر اميركية بحتة يقدمها كتاب متخصصون في شتى الفروع والمجالات ويصيغونها بدهاء وبراعة حتى تنفذ الى عقول القراء العرب وتستحوذ على قناعتهم ومن ثم ينحازون الى صف السياسة الاميريكية وضد اعدائها ...

وهناك ايضاً الكتب التي تصدر في شتى حقول المعرفة وتقدم على ترجمتها الى العربية مؤسسات يعمل في أجهزتها اساتذة جامعات من مختلف الدول العربية ، كمؤسسة فرانكلين في القاهرة ، وتستهدف الكتب هذه ربط القارىء العربي بعجلة الثقافة الاميريكية والفكر الامريكي والاتجهات الاميريكية ، سياسية او غير سياسية ، مما يسهل السيطرة على فكر المواطن العربي عن طريق تكييفه وفق وجهات النظر الامريكية في مختلف الشؤون .

أما النشرات فدورها أخطر بكثير من دور المطبوعات المكشوفة (وهي الصحف والكتب) . الا أن النشرات تعتمد أساسياً على السرية ، فهي غالباً ما ترسل بالبريد . والى اشخاص يختارون كعينات لطبقتهم او لفئتهم .

فمثلاً يجري اختيار مائتي مهندس في مختلف فروع الهندسة من بين خمسة آلاف مهندس مصري ومثلهم من الاطباء ، ومثلهم من المدرسين ، ومثلهم من المحامين ... وهكذا تتوفر لدى المخابرات قائمة ببضعة آلاف شخص من صفوة الامة ومراكزها القيادية ، وفي المخابرات تجرى على هذه النماذج دراسة دقيقة تستهدف معرفة مدى صلاحية العينة للتجربة ... من حيث العمر والبيئة والمركز الاجتماعي والثقافي ... فإذا ثبتت صلاحيتها ، بدىء بارسال النشرات اليها والا استبعدت من قائمة النماذج .

وغالباً ما كانت هذه النشرات ترسل الى افراد الفئات المختارة على هيئة رسائل تتخذ الصفة الشخصية ... فتبدأ بعبارة : « صديقي العزيز » ... فالمهندس يتلقى رسالة من زميل له مهندس ... والطبيب ... يتلقى رسالة من طبيب ... وهكذا ...

وكانت هذه الرسائل تبدأ بتبادل المعلومات البسيطة عن الطقس وجغرافية المكان ومتاعب المهنة ، حتى اذا توطدت اواصر الصداقة بالمراسلة بين الراسل والمرسل اليه ، بدأت الرسائل تأخذ طابعاً آخر ، عن عدد الاطباء اذا كان المرسل اليه طبيباً مثلاً ... والاخصائيين في كل فرع ، ومتوسط الرواتب التي تدفعها الدولة ... وعدد الفائض عن حاجة الدولة ... او النقص في عدد الاطباء ... وما يشكو منه هؤلاء ... ولماذا يفضلون العمل خارج الحكومة ؟

***

وكان من الطبيعي امام براءة الاسئلة الظاهرية ان يتلقى الراسل المعلومات التي يريدها من المرسل اليه ... حيث تبدأ اجهزة خاصة في ادارة المخابرات المركزية الاميركية في تقييم المعلومات وتصنيفها وقيدها في سجلات خاصة للرجوع اليها وقت الحاجة ... خاصة وقت الحروب حيث تصبح مثل هذه

المعلومات ذات قيمة عظيمة في الوقوف على نقاط الضعف في مجتمع الخصم ، وعلى تقدير قدراته البشرية تقديراً صحيحاً وبالتالي معرفة مدى صموده او احتماله في حالة الحرب ...

وبديهي ، انه بالاضافة الى المعلومات ، هناك صلات الصداقة التي ربطت بين الراسلين والمرسل اليهم والتي يعززها كون الاثنين من فئة واحدة ومهنة واحدة ... مما يجعل هؤلاء بمثابة نقاط انهزامية تنخر كالسوس في عظام مجتمع الامة في اشد الأوقات حرجاً .

واستناداً الى احصاءات رسمية نشرتها كبرى الصحف الاوروبية في حينها ، نعرف ان عدد الكتب التي صدرت منذ عام ١٩٥٣ وحتى عام ١٩٦٦ بلغ الف وثلاثة وسبعين كتاباً وجهت جميعها الى الشرق الأوسط، وان عدد هذه الطبعات التي اصدرتها دور الصحف وخصصتها للشرق الأوسط عن نفس المدة كان سبعة آلاف وتسعماية طبعة يزيد عدد نسخها عن خمس ملايين نسخة ... اما عدد النشرات فيتراوح بين مليون ومليون ونصف من النشرات .

***

كما ان للاذاعات دورها الفعال في توطيد دعائم الغزو الفكري في خدمة الاستراتيجية الاميركية ، بل لعلها اكثر الوسائل انتشاراً وتأثيراً ، نظراً لما تتمتع به موجات الأثير من انطلاق لا يعوقه عائق وقدرة على الوصول الى اقصى مناطق المعمورة دون ان يستطيع العدو الحد من انتشارها او منعها من الوصول الى آذان المستمعين برغم جميع الوسائل التي استحدثت للتشويش على البرامج غير المرغوبة أو التقليل من وضوحها ...

والبرامج الاذاعية الموجهة من محطات الارسال الاميركية الى منطقة الشرق

الاوسط يصل عددها الى تسعين برنامجاً تتحدث بتسعة وعشرين لغة بينها الآرية والكردية والأرمنية والصومالية غير اللغات الافريقية والأوروبية والعربية والايرانية والتركية .

وتعمد محطات الارسال الأميركية الى بث برامجها في فترات محددة اختيرت بدقة لتناسب أوقات فراغ المواطن العربي ... واختيرت فقرات هذه البرامج لتناسب ذوقه وثقافته وبيئته .

***

فهناك البرامج الموسيقية والبرامج الثقافية والبرامج الادبية والبرامج الفكاهية والبرامج الاقتصادية والبرامج التعليمية والبرامج العلمية ... مما يحتاجه المواطن العادي والمواطن المثقف على السواء ... وهذه الفقرات غالباً ما تخلو منها الاذاعات العربية والشرقية الا فيما ندر وبطريقة فجة وبمساحة زمنية لا تشبع نهم المستمعين مما يضطرهم الى الاقبال على البرامج الاجنبية .

وبين الفقرات وبعضها — او خلال احدى الفقرات — تبدأ عملية الغزو الفكري من خلال برنامج يبدو في ظاهره ثقافياً او ادبياً او علمياً — وربما فكاهياً — فتعرض وجهة النظر الامريكية ، ببساطة وبراءة ربما في حديث او في ندوة او في مناقشة تدور بين عدد من الاخصائيين او المثقفين او اساتذة الجامعة .

ومع مضي الزمن وتوالي الاستماع ، تبدأ نفسية المستمع في التأثر بما يسمع... ولا يلبث ان يتحول تدريجياً ويقتنع بوجهة النظر الامريكية في مختلف الشؤون او في بعضها « بغض النظر عن تناقض وجهة النظر هذه مع وجهة النظر المحلية ... ومن ثم يبدأ التحول الجذري في معتقدات المستمع فيتخلى عن معتقداته السابقة ويبدأ في السقوط تحت تأثير المعتقدات الجديدة ، وسرعان ما يصبح مقتنعاً بها مدافعاً عنها اذا كان من ذوي القدرة على المجابهة والتصدي..

وفي تلك الحالة يصبح قادراً على اقناع الآخرين وخلخلة ايمانهم بمعتقداتهم القديمة ومن ثمة يصبحون انصاراً ومؤيدين للافكار الجديدة .

اما بالنسبة لمن لا يملك الشجاعة الادبية للتصدي والمجابهة ، فيكفي اقتناعه الشخصي بما استطاع الغزو الفكري زرعه في عقله ونفسه ليصبح عنصراً سلبياً ممتازاً في المجتمع الذي يحويه فيعمل دون ان يدري على تدمير مجتمعه بسلبيته المطلقة التي لا شك تؤثر فيمن حوله وتعمل بالتالي على اشاعة السلبية في الحقل او في المصنع او في المؤسسة التي يعمل بها .

●

ولا شك ان المسؤول عن اهتمام المستمع العربي بالاذاعات الاجنبية هو الاذاعات العربية بقصورها المستمر عن فهم رغبات المواطن العربي وميوله مما يدفعه الى البحث عن اذاعات ترضي تطلعاته فلا يجد امامه غير الاذاعات الاجنبية التي تقدم له ما يحتاجه في فقرات مركزة مدروسة قد وضع اسسها علماء النفس والتربية لتجذب اذن المستمع العربي وتستحوذ على اهتمامه وفضوله. حتى انه كثيراً ما يحدث أن تغطي صوت اميركا او اذاعة لندن احداثاً تقع في الشرق الاوسط بعد وقوعها بدقائق في الوقت الذي يكون فيه المستمع العربي خالي الذهن تماماً ... وتكون فيه الاذاعات العربية آخر من يعلم !!

ان فكرة استخدام المنح الدراسية كاسلوب من اساليب الغزو الفكري ، هي فكرة قديمة تعود الى آلاف السنين ، فقد كان فراعنة مصر يجلبون ابناء الملوك والقادة والامراء والاعيان الى مصر ليتلقوا العلم بهـا ... وخلال فترة التعليم التي كانت تتراوح بين ثلاثة وعشرة اعوام كان من السهل التأثير خلالها على عقلية الطالب وتحويله الى مواطن مصري بالفكر ... فلا تكاد تنتهي الدراسة ويعود الى بلاده حتى يصبح مزدوج الجنسية ... جنسيته الاصلية وجنسيته العقلية التي اكتسبها خلال دراسته بمصر .

***

وكان الفراعنة يلجأون الى هـــذا الاسلوب كلما غزوا بلداً من البلدان او خشوا بأس احد البـــلدان ، او يستعدون لغزو احد البلدان ... فقد كان هـــذا الاسلوب يضمن لهم طابوراً خامساً داخل الدولة الخصم من خلال الاستعمار الثقافي الذي دخل الطلاب دون ان يدوروا ضمن دائرة نفوذه ...

وكثيراً من هؤلاء الطلاب كانوا يعدون ليتولوا مراكز قيادية في بلادهم ، حتى اذا دانت لهم السلطة كانوا من اشد انصار الدولة المعلمة واكثرهم ممالأة لها وانصياعاً لرغباتها ولو كانت ضد اماني بلادهم .

وقد درج الفرس ومن قبلهم الاغريق على نفس النظام فحققوا استقراراً في البـــلدان التي غزوها او البلدان التي تجاورهم وتساعدهم على حماية ظهورهم في فتوحاتهم او في عصور سلمهم ورخائهم ...

وفي العصر الحديث ما زال اسلوب الاستعمار الفكري قائماً وان اختلف الشكل ... ولكن الهدف من ورائه يظل واحداً لا يتغير .

فالدول الكبرى ، في العصر الحديث ، — وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأميركية — تعمد الى بذل المنح الدراسية لطلاب العديد من دول العالم ومن بينهم طلاب دول منطقة الشرق الأوسط والمنطقة العربية .

والمنح الدراسية التي تقدمها الولايات المتحدة للشرق الأوسط تأخذ شكل الاعانات المالية ، فهي تخصص كل عام ميزانية مالية لهذا الغرض تنفق منها على الطلبة اعاشة وتعليماً طوال مدة الدراسة ...

* * *

القسم الثالث

تأملات حول المشاكل الراهنة



الصواريخ الروسية

منذ ان بدأت السبوتنيك تدور حول الارض، كانت اشاراتها تعلن لشعوب العالم ان عهد الدفاع انتهى . وجاءت هذه الاشارات – بيب ، بيب – الحلوة أقوى من ابواق جوزيه وصرخة شعبه التي قوضت اسوار اريحا . لقد زعزعت الـ « بيب – بيب » اسس خطة الدفاع الغربية .

وعندما اعلن الروس في آب ١٩٥٧ ، انهم اطلقوا بنجاح صاروخاً عابراً للقارات وبامكانهم اصابة أي جزء من العالم ، جاء ادعاؤهم مشوباً بالشك في بلدان كثيرة وخاصة في اميركا ... حققت روسيا هذا النجاح في اوائل شهر تشرين الاول ، فتظاهر اعداؤها بتجاهل الحدث العظيم .. وهذا ما حمل قادة البحرية الاميركية على القول بان ما حصل ما هو الا « كتلة من الفولاذ بامكان اي دولة ان تطلقها الى الفضاء » .. وحتى بعد اطلاق صاروخ آخر اقوى ، كان الفيلد مارشال مونتغمري يؤكد في مقابلة : « لا تخافوا من السوبتنيك . اظن ان الاقمار الصناعية لا تعطي روسيا اي تفوق حربي أو استراتيجي » .

***

كان هذا صحيحاً بالمعنى الحقيقي للكلمة ، ولكن التجربة الروسية اعطت بصورة غير مباشرة من حيث المدلول النفساني في عالم الصواريخ، اعطت مفعولاً استراتيجياً وسياسياً وحربياً منقطع النظير .

فحتى ذلك الحين كانت دول شمال حلف الاطلسي تعتبر أميركا أقوى دولة

في العالم وانها تتفوق على روسيا نظراً لما تمتلكه من قنابل ذرية وهيدروجينية، ونظراً لوسائل تسليمها الى الدول التي تحتاجها كاساس للدفاع عن امنها وسلامتها.

ادعو بالتالي ان التفوق النووي الاميركي سيغير التفوق الروسي ويكفي لان يحط من همتها ويردعها عن اية محاولة غزو تفكر بها لبلد هو تحت السيطرة الاميركية . وكان هناك ادعاء ثالث هو انه ، في اسوأ الاحوال ، فباستطاعة الطيران الاميركي الاستراتيجي ان يصد ويدمر اي هجوم .

وبرز في تلك الفترة شك حول هذه الادعاآت المطمئنة... وجاء السوبتنيك يبرهن على ان ما تـــدعيه اميركا ما هو الا اوهام مجردة من كل حقيقة . وان ارسال قمر الى مدار حول الارض يتطلب تفوقاً علمياً رائعاً ويبرهن على دقة في تسيير حاملات الصواريخ، وكذلك من حيث تطور الاستراتيجية الصاروخية.

جاء هذا يؤكد التصريحات الروسية السابقة حول موضوع الصاروخ الجديد العابر للقارات . كان هذا يكوّن ، تجـــاه الرأي العام العالمي ، برهاناً قاطعاً على انه باستطاعة روسيا ان تصيب الأهـــداف الغربية مباشرة كالمدن والمستودعات الحربية في جميع البلدان الغربية .

وفي ٢ كانون الثاني سنة ١٩٥٩ ، اطلقت روسيا بنجاح أيضاً صاروخهـــا الثاني . اكتشاف علمي هائل يهدف الى السلام ... نعني بـــه الجرم الكبير « لونيك » ... الذي جاء يؤكد انتصار الروس علمياً وتفوقهم تكنولوجياً ... وتنبه الرأي العالمي الى ان هذا النجاح يفوق بكثير نجاح السوبتنيك منذ خمسة عشر شهر مضت . كانت هذه التجربة بارعة واعتبرت كردة فعـــل على فشل المحاولات التي قامت بها اميركا في عالم الاجرام الفضائية .

لقد مر زمن طويل حتى نقيّم الشاهد العلمي الذي قدمته روسيا ونستخلص منه النتائج الباهرة التي عكسها على وضع الدول الغربية الاستراتيجي تجـــاه

روسيا السوفياتية . وربما اصبحت النتائج الحربية والنفسانية والسياسية تشكل خطراً فظيعاً على دفاعهم ... ولكنهم قلما اعاروها القدر الكافي من الاهتمام في الدوائر الغربية ... وحدث هذا خاصة في انكلترا وفرنسا اذ انهم نظروا بازدراء الى هذا التفوق بينما وقفت اميركا تراقب حذرة هلعة .

***

كانت ردود الفعل لدى الدول الغربية تجاه هذا التحذير الاخير شبيهة بهلع سكان واد استيقظوا على صوت انفجار سد ثم عادوا لينامو دون ان يعلموا بان السيل سيجرفهم ومنازلهم .

ويوماً بعد يوم ، تخطى الروس بنجاح مراحل جديدة في التقـــدم العلمي والتقني .

وعندما اتخذ الاميركيون قرارهم الرهيب باستعمال القنبلة الذرية في هيروشيما ليعجلوا في سقوط اليابان ، لم يكونوا يظنون انها ستشكل نقمة عارمة عليهم ، انما اعتبروها سلاحاً رادعاً للحد من التسلط الشيوعي ... وعندما تأزم الوضع مع روسيا ، اثناء ازمة برلين سنـــة ١٩٤٨ ، كان الاميركيون مسرورين من كونهم يمتلكون ثقة كبرى بقنبلتهم الذرية وان مفعولها سيستمر طيلة سنوات ، وربما امتد الى عشر سنين .

سخروا من روسيا في عام ١٩٤٩ ، عندما اعلنت هذه انها توصلت ، بنجاح ، الى اختراع سلاح مماثل . وفي آب من نفس العام سجلت مراصد الاميركيين انفجاراً ذرياً في روسيا وهكذا انتهى عهد التفوق الاميركي في هذا الميدان الدفاعي ... يضاف الى ذلك ان هذا الحدث تم قبل ان تنتهي انكلترا من صنع قنبلتها الذرية بثلاث سنوات .

وفي آب ١٩٥٣ ، حدث الاصطدام الكبير الآخر ، وهو عنـــدما فجر الروس مفاعلاً ذرياً من النوع الشبيه للقنبلة الهيدروجينية . كان ذلك بعـــد مضي تسعة أشهر من التجربة الاميركية وقبل اربعة اشهر من المحاولة الانكليزية.

ان هذا يبرهن لنا عن سرعة تقـــدم الروس في هذا المضمار ، لأن تأخرهم للحاق بالاميركيين يعود فقط الى مدة اربع سنوات .

كان الارتياح الرسمي الاميركي حول موضوع التفوق الأميركي في ميدان الأسلحة الذرية يظهر على دفعات ، رغم انها ترتكز اليوم على افتراض وجودها الكمي والنوعي في آن واحد . ان هذا الافتراض المطمأن أصبح حقيقة بعـد المحاضرات التي عقدتها دول حلف شمال الاطلسي . ولكنها تجهل هذه الحقيقة القاسية الا وهي ان التفوق الغربي من حيث الكمية لا فائدة منه اذا كان بامكان الروس امتلاك مثلها واعدادها لاجتيـاح اي بلد غربي كان .. وخاصة تلك البلدان التي تكثر فيها كثافة السكان .

ان تفوقاً باسلحة مميتة لا معنى له أمام مبادرة كهذه تعمد اليها روسيا اذا ما وجدت ضرورة تدعو الى ذلك .

***

نحن اليوم امام سؤال جديد وهام. هل تستطيع دول حلف شمال الاطلسي ان تثق بحماية كانت حتى اليوم تؤمن لهم بواسطة سلاح الردع الجوي الاميركي؟ لقد برهن تفوق الصواريخ القمرية والارضية على ان الروس نموا طريقة تسيير جديدة للصواريخ الكبيرة . ذات المسافات البعيـــدة ، وتفوق الاساليب الاميركية بدرجات . ان الروس اسياد في عالم الصواريخ ونالوا تفوقاً عالياً يصعب انتزاعه منهم . ان دولة تمتلك جهازاً دقيقاً كالذي ذكرنا ، لا تجـــد صعوبة بتنفيذ قنبلة هيدروجينية واطلاقها الى مسافة تتراوح بين الثلاثة آلاف

الأربعة آلاف ميلاً ، اي على مقربة من المدن والمراكز الصناعية الاميركية فتدمرها كلياً وتقضي على أكبر عدد من السكان فيها .

جاء الصاروخ الروسي القمري يقضي على التفوق الاميركي ويبدد اسطورة دفاعهم الرادع ضد الاعتداءات الخارجية . كان هذا انفجار السد الذي يحرس وادي دول حلف شمال الأطلسي ... ربما تكون النتيجة مفجعة على الصعيـــد النفساني ، ان لم تكن على الصعيـــد الطبيعي ، أذا ما استفاق السكان النيام فجأة أثناء الأزمة .

هذا لا يعني ان القوة النووية الغربية ، المتمثلة باستراتيجية الطيران الدفاعي الأميركي ، باتت لا تشكل تشجيعـاً أو حماية ... انه سيبقى هكذا وبالتالي حماية غير مباشرة ضد الهجوم النووي ، وبقدر ما تستمر كفاءة الردع كافية لاقناع الغير بان هجوماً ذرياً — على شاكلة بيرل هاربر — قد يتسبب بعملية انتحارية معاكسة .

* * *

لكن أصبح يشك في صحة قول « الردع الكبير » انه سيبقى كافياً لهيآت أقل عدوانية ، أو لغزو هام يتماشى مع القوى التناسقية ... فالتعادل النووي يقود الى الانعدام النووي نفسه ، لان الانتحـــار العكسي المتأتي من استعمال اسئلة كهذه ويقود الى العقم الاستراتيجي . فضلاً عن أن المراهنة في هذا الحقل لا تتطلب المساواة العددية — في القنابل وطرق التسليم — انما تتطلب ، فقط كفاءة تنفيذ أقل عدد ممكن منها وهو يكفي لتدمير أهم مورد لاهم قوة يعتز بها الخصم : العاصمة والمراكز الصناعية الكبرى .

وباختراعها للقنبلة الذرية ، جاءت أميركا تحتفظ لنفسها بمكانة استراتيجية مؤقتة ، ولكن النتائج افقدتها هذه المكانة .

ان انعدام النووية واندثارها يشجع على تجديد الحيوية غير النووية . وتبدو أميركا في حقل كهذا مع حليفاتها الاوروبيات أضعف من خصمها ... وهذا متأت من الثقة التي أولوها مدة طويلة للقوة النووية ... الآن وبعد ان أصبحت واشنطن وشيكاغو في متناول الصواريخ الروسية ذات الرؤوس النووية، هل سيتردد الطيران الاميركي الاستراتيجي بالرد على الاعتداء الروسي في اوروبا وآسيا ؟ ان تردداً كهذا سيبدو طبيعياً شرط الا يكون الهجوم على جبهة واسعة ونحو أهداف بعيدة . اما اذا وصلت الاشياء الى حد كهذا ، فهل تقبل دولة ما بتدميرها اذا لم يبدُ الخطر حيوياً ؟

***

ان ما كان يعتبر حيوياً في ذلك الوقت ربما بات لا يعتبر حقيقة حيوياً ، أمام احتمالات حربية نووية والنتائج الرهيبة التي تنعكس على الجميع ... كانت الدول تعتقد ، أحياناً كثيرة في الماضي ، وأكدت الحكومات على ان موقعاً ما فيما وراء البحار في دائرة مصلحتهم ، يعتبر مركزاً حيوياً وقاموا بتضحيات كبيرة في سبيل الحفاظ عليه ... واكتشفوا ، بعد ان خسروه ، ان الخسارة لم تكن مميتة كما ظنوها ... وانهم تغلبوا على المصاعب دون الارتكاز عليها .

ولاجيال عديدة حوّل رجال السياسة البريطانيون، من جميع الاحزاب ، طريق البحر الأبيض المتوسط نحو الشرق بواسطة قنال السويس ، واعتبر طريقاً حيوياً بالنسبة لانكلترا وانه خط الحياة لها ... وأثناء الحرب العالمية الثانية عارضوا جداً الاقلاع عن رأيهم وتحويل هذا الطريق البحري الى ألرجاء الصالح ... وبعد الحرب عادوا إلى تسميتها بحيوية ، كما أعلن بيفن ، وزير الخارجية آنذاك، ان ضياع سيطرتنا على قنال السويس معناه « قطع أعناقنا ».

انتزع عبد الناصر القنال من انكلترا وعبثاً حاولت استعادته والسيطرة

عليه من جديد ، وعدلت عن المحاولة مخافة اندلاع حرب نووية عالمية . وكان لفرنسا فكرة شبيهة حول أهمية الهند الصينية وحيويتها ... كانت الخسارتان فادحتين ولكن ليست مميتتين .

* * *

ان تطور الاسلحة المدمرة كالقنبلة الهيدروجينية يقود الشعوب القوية الى الحذر والفطنة في تقديرهم لكل ما هو حيوي ... وخاصة عندما توضع التقديرات موضع التنفيذ . من السهل ، بعد اجتماع ما ، رسم خطوط على الخريطة والاعلان عن كل تخطٍ لها يقود الى حرب نووية مدمرة ... ولكن هذا ليس واقعياً بالنسبة للبلدان الصغيرة التي تود ان تقوم الدولة الحامية لها بتنفيذ عمل بالغ الخطورة كهذا مباشرة وبدون تردد ، في الوقت الذي يمكن فيه ان يصاب بلدهم تلقائياً ، في حالة الرد ، من جراء قصف شامل . ان كل حكومة مسؤولة تجد نفسها مجبرة على التردد .

ومن المؤسف ان القادة الروس لا يميلون كثيراً الى حقيقة مثل هذا التردد... والاسوأ من هذا انهم في طريقهم الى الاتكال عليه نفسه . يمكنهم في مثل هذه الحالة استعمال الوسائل التقنية والحربية السياسية التي تنم عن التردد وتخدش المواقع الغربية دون ان تترك ما يشير الى انها تنوي اجتياحها كاملة .

في هذا يكمن الضعف الداخلي في مبدأ الرد الجماعي بواسطة القصف الجوي والذي يعد ليتناسب مع القوات البرية . انها تكفي تماماً كصفارة انذار وكفرامل مؤقتة في حال هجوم مفاجىء .

كانت هذه الطريقة التي اعتنقها الغربيون سنة ١٩٥٤ . اذ بدت تتناسب والوضع الاقتصادي في حكوماتهم . لذلك استقبلت بحماس كبير وبدون تفكير في ما يترتب عنها .

هناك حاجة ملحة لايجاد نموذج آخر من الردع بدل النموذج الذي يمسك بتلابيبنا ويدفعان الى الاستسلام او الخضوع . يجب ان يكون نموذجاً ردعياً آخر ومن نوع أكثر واقعية . يترتب عليه ، اذا ما وجد ، ان يتدخل في عملية موجهة ليس فقط كصد هجوم ضد شيء ما ، بل صد كل هجوم ومهما كان نوعه . ان احتماله بالدفاع افضل ، وفي طريق لا يقود الى الانتحار ، وهذا ما يثبت فاعليته كرادع .

لقد كان العائق الهام في سبيل تنفيذه، هو الابقاء على المعتقدات الحربية التي ليست سوى عادات فكرية قديمة .

* * *

المسائل الاساسية الدفاعية الغربية

هناك سؤال أساسي يدور حول خطط الدفاع الغربي . هل يمكن الدفاع عن اميركا واوروبا بالذات ؟ ان الجواب اذا كنا فعلاً شرفاء واهلا لمجابهة الأحداث المشؤومة –لا يكون الا هذا: ان دفاعاً فعالاً في الظروف الراهنة غير وارد على الاطلاق .

فكلمة دفاع ، بالمعنى الحقيقي للعبارة ، وكما ورد تحديدها في المعاجم تعني: « حمى ، حرس ، حفظ السلامة ضد اي هجوم ». اما في الوقت الحاضر فهذا غير ممكن وخاصة اذا ما استعملنا الأسلحة الذرية بقوة الميغاتون ولا اعتقد ان بلداً واحداً سينجو من الدمار الكامل .

وقد عبر عن هذه الخلاصة الأساسية رئيس وزراء بريطانيا في سنة **١٩٥٧** اثناء حفلة عشاء أقامها في لندن للترحيب بالجنرال نورستاد كقائد اعلى في اوروبا .

قال الرئيس ماكميلان :

يجب الا نخدع انفسنا مطلقاً ... فالقدرات الحربية اليوم ليست معدة لشن الحرب بل للحؤول دونها . ليس هناك حملات شبيهة بما عرفناه قديماً ولا وجود لانتصارات غير وثيقة وكلية . ان الحرب العامة اليوم لا يمكن ان تعني الا الدمار العام .

ان مثل هذا العامل الأساسي يجب ان يبقى في اذهاننا عندما نحلل جميع اوجه المسألة .

* * *

الشروط المحتملة لحرب نووية

لم يتعد وزن القنابل الثقيلة التي استعملت أبان الحرب العالمية الأخيرة الخمسة او العشرة أطنان وفي الهجمات الواسعة المدى – التي تسندها قوة من الطيران تصل حتى الألف طائرة – تبلغ الخمسة آلاف طن أو أكثر .

كانت قوة أول قنبلة ذرية القيت فوق هيروشيما في آب سنة ١٩٤٥ ، تبلغ العشرين الف طن . وهكذا ، وان كانت الحرب النووية لا زالت في طفولتها ، فان قنبلة واحدة كانت تملك قوة تدميرية تفوق أربع مرات قنبلة تزن الف طن قبلا .

واستعملت أثناء الحرب قنبلتان ذريتان فقط . ولكن الانتاج لم يتوقف منذ ذلك الحين كما ازدادت القوة التدميرية أكثر فأكثر . أما القنبلة الهيدروجينية

التي تمت تجربتها في آذار سنة ١٩٥٤ ، فقد بلغت قوتها الانفجارية ٢٠ مليون طن ، أي ألف مرة أكثر من القنبلة الذرية التي القيت فوق هيروشيما .

ومنذ ذلك الحين لم تعد هـــذه القوة التدميرية الكبرى وقفاً على أميركا وحسب . ففي آب سنة ١٩٥٣ اجرت روسيا تجارب على أسلحة مثيلة وبقوة انفجارية قيست بملايين الاطنان .

***

ان قنبلة كهذه تستطيع تدمير أكبر المدن ... ويكفي ان يبلغ بعضها الهدف لتبيد السكان والمراكز الصناعية الكبرى في جميع أنحاء أوروبا الغربية والوسطى ... كما تكفي واحدة أو اثنتان لشل الحياة في تلك البلدان ، نظراً لانتشار الغبار الذري المميت .

فإذا ما استعملت قنابل كهذه في الحرب عندئذ لا يمكننا أن نفكر باستمرار العنصر البشري في النمو والتكاثر... ولو حدث ذلك في ما سماه ونستونتشرشل « بصدام العودة » في عام ١٩٥٤ ، لأن سلوك الحرب هو قضية عمل منسق والتي تصبح مستحيلة في فوضى مثيلة .

وهنا لا تعود قوات حلف شمال الأطلسي تأمل باستمرار الدفاع بينما تكون موارد ذخيرتهم قد تحطمت كلياً وتنتهي مهامهم بانتهاء أوطانهم وتدميرها .

أما الأحياء فينصرفون الى جمع الغذاء ومراقبة اللاجئين الذين خسروا كل شيء .

***

احتمالات الدفاع ضد الهجوم النووي

يمكننا أن نجيب باقتضاب على هذا السؤال : ان الاحتمالات حقيقة كلياً .
وقد أعلن قائد الدفاع الجوي الأميركي في سنة ١٩٥٤ – وكان لا يزال حديث
العهد – أعلن أن الدفاع الكلي الفعال ، بنسبة ٩٠٪ ، لا يستطيع تأمين حياة
أمة » ... وخلص الى الاعلان بأن خمسين قنبلة حرارية تكفي لشل البلد
والقضاء على مستواها الصناعي وإرادتها الدفاعية ... بينما يعتبر مسؤولون
آخرون ان عشر قنابل تكفي. ولكن دفاعاً بنسبة ٩٠٪ هو أمر صعب المنال ...
وقد ذكر مسؤول كبير في أميركا : ان مراصدنا تسجل انفجاراً روسياً واحداً
من أربعة . سيكون أسهل لقاذفات كهذه ان تصيب المراكز الحيوية ، الاكثر
منالاً ، في بلدان أوروبا . وأما تهديد من هذا القبيل أصبحت خطط حلف
شمال الأطلسي الدفاعية الجوية والمدنية غير ذي فعالية . ان خمساً او ست قنابل
هيدروجينية تكفي تقريباً لتدمير جميع المراكز الحيوية البريطـــانية ونصف
سكان البلد ... كما أن كمية أقل من هذه تكفي لابادة المراكز الحيوية الفرنسية
والبلجيكية والهولندية والالمانية الغربية ... هـــذا اذا ما اكتفينا بالخسائر
المادية فقط ... ومن السهل جداً ان نتصور الشلل والهبوط الذي سيتركه
الانحطاط الأخلاقي وحيث لا يكون هناك تدمير مادي .

يمكننا ان نتفادى كارثة شبيهة اذا جعلنا الدفـــاع الجوي يبلغ في بدايته
نسبة ١٠٠٪ ، ولكن هذا يبدو صعب التحقيق .

لقد تأزمت قضية الدفاع ضد القصف جداً بظهور القنابل التي يمكن اطلاقها
بمسافة الف ميل قبل الهدف وتصيبه .

أما فيما يتعلق بقضية الدفاع المدني فان الخطوات التي درستها الحكومات

طيلة الخمس عشرة سنة الأخيرة لم يؤخذ بواحدة منها وخاصة اذا كان من المحتمل ان نصد عدواناً او نجابه هجوماً تستعمل فيه القنابـــل الذرية من وزن التي استعملت في هيروشيما . وجاء ظهور القنبلة الهيدروجينية يجعل الحاجة ملحة أكثر فأكثر .

ان المشاريع المحتملة اليوم ورغم ما تطلبه من مصاريف باهظة — ولا يتحملها أي اقتصاد وطني — ستحدث تحولاً مخيفاً في بناء الحضارة الغربية ، مما يجعلها غير محتملة التنفيذ . لا احد يريد أن يرى شعبنا أو أي شعب آخر يبدل جذرياً عاداته أو مجرى حياته . ان مشاريع غير قابلة للتنفيذ لا تزيد الا في تغذية التخيلات القاتلة .

* * *

التهديد الجديد بالقصف بالصواريخ

في كتابي الصادر سنة ١٩٤٦ وتحت عنوان « الثورة في فن الحرب » ، قلت مدعياً ان أكبر الاحتمالات الدفاعية تعود الى القنابل ذات الرؤوس النووية ، وان الاحتفاظ بقوة ضاربة تتألف من القاذفات الثقيلة أصبح غير ذي وزن أمام عصر الصواريخ والذرة .

وعدت في السنوات الأخيرة احدد أنه بإمكان الروس في عام ١٩٥٦ ، على حد ادنى ، ان يقصفوا لندن أو أية مدينة كبيرة أخرى في أوروبا الغربية .

ولكن مثل هذه التحديدات لم تحـــدث أثراً كبيراً في القيادات العامة الغربية ... وحتى كان في خريف ذلك العام أثناء السويس عند ما أبرق المارشال بولغانين الى رئيس وزراء بريطانيا السيد انطوني ايدن مهدداً بأن بريطانيا هي تحت

رحمة الصواريخ الروسية ... ثم في شهر شباط من العـــام الثاني وقف روكان ساندز ، وزير دفاع بريطانيا ، يؤكد للجماهير ان ما قاله بولغانين صحيح وان روسيا « أعدت صاروخاً نووياً يكفي لاصابة بريطانيا » . ومع ذلك كانت الحقيقة الرهيبة تتعدى هذا التقييم ... لأن الرادار اشار الى ان القذائف الروسية أصابت أهدافاً على مسافة ثماني مائة والف ميل ... وانهم أجروا التجارب على صاروخ نووي يصل مسافة الف وخمسمائة ميل ويكفي لقصف اية قاعدة استراتيجية اميركية اكانت في افريقيا ام في الشرق الأوسط .

* * *

وفي ٢٦ آب ١٩٥٧ اعلن الروس انهم اطلقوا صاروخاً متعدد الرؤوس ، عابراً للقارات ، منذ ايام . يجتاز مسافات شاسعة وان نفس الصاروخ هبط في مكان قريب من الهدف المنوي ضربه ... واشارت النتائج الى انه بات من المحتمل ارسال صواريخ من هذا الطراز الى اي مكان في العالم .

كان هذا ما ورد في تصريح هز العالم ... واحدث دوياً هائلاً اكثر مما احدثه اطلاق الصاروخ الأميركي العابر للقارات ، اطلس ... والمعروف ان هذا الأخير اطلق مباشرة بعد التصريح الروسي الخطير ... الا انه مني بفشل ذريع وهذا ما رجح كفة التفوق الروسي امام الرأي العالمي .

وجاءت ردة الفعل السريع في انحاء عديدة ان العمل الروسي خديعة مبالغ فيها على الاقل . ولكن الجنرال شريفر ، رئيس برامج الصواريخ الأميركية صرح يقول : « قلما كذبت روسيا وهي تدلي بتصريح الى العالم الخارجي . فعند ما يقولون انهم يمتلكون القنبلة الذرية فأودكم أن تثقوا بأنهم يمتلكونهـــا فعلا ... واذا قالوا ان لديهم قنابل هيدروجينية فهذا صحيح مئة بالمئة .

* * *

وبدد نجاح اطلاق لونيك وسبوتنيك كل تشاؤم في النفس ... وقد اسهبنا في تفصيل النتائج في الفصول السابقة .

انضم وزير الدفاع الأميركي هارولدوا تكنسون الى شريفر وأعلن في مؤتمر صحافي عقد في ٢٩ شباط سنة ١٩٦٠ ، للبحث في شؤون الدفاع ...

قال الوزير :

« ... أما فيما يختص بتصريح خروتشوف الاخير والذي يؤكد ان الروس أطلقوا بنجاح صواريخ في المحيط الهادي بدقة ١/٢ بالالف ، والى مسافة ٦٥٠٠ ميلا بحرياً ، فاني أؤكد لكم ان هذا صحيحاً وبالتالي يتناسب مع مقدرات روسيا التقنية ... »

نخلص مما تقدم الى ان حماية الغرب الوحيدة والفعالة تكمن الآن في تثبيط عزيمة الروس بشن هجوم مع كونهم قادرين على الرد بواسطة العدد الوفير لديهم من القنابل الهيدروجينية . يجب ان نعلم بأنه مهما كانت قوة سلاح رادع كهذا ضد العدو ، فان هذه القوة لا قيمة لها كقوة دفاعية . لانه اذا ما استعملت ستكون نتائجها الانتحار المتبادل ... مما يقود الى حرب عالمية هيدروجينية ...

***

احتمالات القوة الرادعة

ان قصفاً قوياً تستخدم فيه القنابل النووية ، يكوّن ردعاً ممتازاً ضد محاولة شن أي هجوم بالقنابل او الصواريخ النووية ، او اجتياح بلدان حلف شمال الاطلنطي بقوات برية . ويكون النصر المفاجىء والتام أكثر صعوبة منه في سنة ١٩٤١ — ولن تكلل هذه المفاجأة بنجاح مؤقت .

من المستحيل تقريباً التأكيد على ان القصف المعادي سيفشل او يباد كلياً .. اذ تكفي قاذفتان او ثلاث كتب لها النجاة حتى تعاود نشاطها مستخدمة القنابل الهيدروجينية وتلحق بعدوها الخسائر الفادحة كردة فعل على ما قام به من ارهاب وتدمير. ان التصويب على ان ابادة قوة العدو هو أشبه بمن يبحث عن الابر في مخلاة التبن ... ويجب الا ننسى بأن القاذفات تتوزع في مطارات كثيرة فإذا دمر احدها نجا الآخر بالاضافة الى تقدم الطيران وسرعة اقلاعها ، العامودي منها والافقي ... وهكذا اصبحت فكرة اهلاك القوات المعادية وابادتها غير واردة في مخطط القادة الحربيين ... وبعد ان بلغت الصواريخ الموجهة درجة كبيرة من الدقة ... ويؤسفني ان اوكد ان فكرة الاميركيين كانت تقضي بتدمير القوات الروسية في عدة ايام وفي اي مكان كانت .

وهكذا نعود لنؤكد ان صيانة اوروبا تكمن في الحرب الوقائية ، وليس كما في السابق ، ربح المعركة على العدو وتدميره .

أما فيما يتعلق باحتمال نجاح الحرب الوقائية ، فذلك يعود الى بناء القاعدة المثلى التي منها ستنطلق الردود واحتمال كون النتيجة مضرة بحق المعتدي كما هي مضرة بحق ضحيته . ان عدم الثقة الاساسي لهذا الاحتمال هو الذي يجب ان يقوي الردع الموجود ضد اي اعتدء وخاصة ضد اية محاولة روسية لاجتياح البلدان الحرة في اوروبا .

لا نجد سوى شرطين يجعلان هجوماً مدروساً اكثر احتمالاً من آخر .

الشرط الأول هو عودة السياسة الاميركية نحو الانطوائية مما يحمل الحكومة الاميركية على سحب قواتها من اوروبا والوقوف كمراقب لما يحدث هناك .

ظننا طويلاً ان تطور الصواريخ العابرة للقارات سيقوي ميل الشعب الاميركي بالانسحاب من اوروبا . ولكن نجاح الروس في هذا المضمار اقلق

الأميركيين وثبت أقدامهم بالبقاء في اوروبا وذلك من اجل اصابة الأهداف الروسية وضربها من مسافات قريبة بواسطة صواريخ حديثة متوسطة المدى .

والشرط الثاني هو ان يكتشف الروس طرقاً دفاعية كفيلة بصد اي هجوم واحباط مناورات واعتداءات دول حلف شمال الاطلسي النووية ضد القوات الروسية وشعبها . . . ستزداد الحالة سوءاً اذا استطاعت روسيا اختراع مثل تلك الوسائل لتسد الطريق على الحلف الغربي .

* * *

لقد نجح الأميركيون واحرزوا تقدماً كبيراً في مجال الصواريخ المضادة للطائرات والموجهة لحصار سرب من القاذفات ، ومن المعقول جداً ان الروس احرزوا تقدماً مماثلاً . فلو انتجت روسيا سلاحاً ضد القاذفات وقضت على قوات الرد الغربية الجماعية ، مع احتفاظها بقوة قصف البلدان الأوروبية بالصواريخ النووية ، لو تم لها ذلك ، لوجدنا دول اوروبا تمسي ضعيفة وغير قادرة على رد الاعتداءات . ان ضرورة اعتبار ان مثل هذا الاحتمال قد يصبح حقيقة ، يكفي لشل حركتهم والتأثير على سياستهم واستراتيجيتهم .

يتحتم على روسيا ان توجد الوسائل التي ترد بواسطتها ، ليس فقط على القاذفات انما على الصواريخ الثقيلة أيضاً ، هذا اذا كانت تود فعلا البقاء في طليعة التفوق العلمي . عليها ان تثق من ان الرد كاف مئة بالمئة ، ولكن ، بكل سرور ، نعتبر هذا الاحتمال بعيداً ويشك في صحته .

أما في الوقت الحاضر ، فان كفاءة الدفاع النووي للقوات الغربية يجب ان تكفي لتوهن الروس وتصرفهم عن شن هجوم على نطاق واسع ضد بلدان اوروبا « الحرة » . او ان تحاول شل دفاعها . انها لا تقدم اية حماية ضد الانجراف اللا ارادي نحو حرب انتحارية متبادلة .

سيزداد هذا الخطر اذا شاهد الروس ان الوقائع تزداد والحقائق تتضح لتجعل منهم اسياد صانعي الصواريخ البعيدة المـدى على الاطلاق . وربما قادتهم ثقتهم هذه الى موقف اكثر تعنتاً وتحدياً في السياسة الخارجية .

وبانتظار ذلك نرى ان الخطر ازداد فعلا بعد ان اعتمد قادة جيوش شمال حلف الاطلسي طريقة تكثيف الخطط والاستعدادات حول احتمال قيام حرب نووية ، متناسين ان قيام اعتداءات جزئية بين بلد وآخر لن تحدث ... ولكن التاريخ جاء يؤكد عكس ما ظنوا .

فوضى المخططات الدفاعية

يبرهن الاستراتيجيون الغربيون عن نقص في الواقعية وحتى في مخططاتهم الدفاعية . ان تمارينهم لا زالت تملى عليهم بطريقة الحرب القديمة المستمرة .

وبكل وقار ، نراهم يبذلون جهدهم في درس تطور العمليات منذ (ه + ٣٠ يوماً) ؛ (ه + ٦٠ يوماً) ، (ه + ٩٠ يوماً) . ان هذه واقعية مدهشة اكثر من تأثير العادات المستمر ، مع العلم ان هذا لن يوصلهم الى اية نتيجة كانت .

ولا يعقل ان تضم لائحة كهذه كل ما يجري في بلدان حلف شمال الاطلسي أثناء صراع بالاسلحة النووية ومهما كانت مدة الصراع قصيرة .

***

من الواضح جداً أن عقل وخيال المخططين الحربيين ، والمكيفة بالعادات المكتسبة أثناء الحرب العالمية الثانية ، لا تستطيع ان تفقه الفرق الكائن بين هذه الحرب الأخيرة وبين حرب حيث يستطيع عدد ضئيـل من الاسلحة

النووية ان يحدث الف هيروشيا بساعات .

وبعد وقت قليل من تبني سياسة الرد الجماعي والاسلحة الذرية التكتيكية ، اعلن الفيلد مارشال مونتغمري : « اود ان يعلم الجميع اننا ركزنا خططنا العملية على استعمال الاسلحة الذرية والحرارية للدفاع عن أنفسنا ... وهذا أمر مفروغ منه . سنعمد الى استخدامها اذا ما هوجمنا » . واستطرد مونتغمري يقول : « لا أرى اي تخطيط دفاعي مدني ترتكز عليه أية دولة من دول حلف الاطلسي :.. وان خراب الدولة وسقوطها يبدأ قبل كل شيء بانهيار الجبهة الداخلية .

وغير منطقي أن يركز قادة دول الحلف خططهم العملية على نوع من العمل يؤدي الى كارثة مخيفة ، ومنذ ذلك الحين التزم رجال الدول الغربية بهذا المبدأ السياسي .

وحول هذا الموضوع كتب الفيلد مارشال مونتغمري مقالاً مخيفاً في إحدى المجلات تحت عنوان : « نظرة من النافذة على الحرب العالمية الثالثة » . وصف الفيلد الحرب كصراع يمتد في ثلاث جهات وينتهي كما انتهت الحربان العالميتان الأخيرتان بالنصر واستسلام العدو .

وفي أمكنة عديدة استعمل مونتغمري في مقاله عبارتين تقليديتين : « ربح المعركة » و « ربح الحرب » كما تحدث أيضاً عن النصر المحتم في نهاية المعارك الضارية .

ان عبارات كهذه أصبحت اليوم مبتذلة وخاصة في العصر الذري الذي قوّض مبادىء وتكتيك الحرب القديمة .

أصبحت خطة الدفاع ، في الوقت الحاضر ، غاية في الخطورة وعدم الواقعية

وخاصة بعد تطور الاسلحة الحرارية والنووية . ومن الأكيد ، اننا سنستسيغ ونحبذ جهود المخططين وما يبذولونه لاعتناق المبدأ الحربي الناتج عن الثورية في تطوير الطاقة الذرية . يرى البعض منهم الاشياء بوضوح ويفكرون بها أكثر مما يتقبلونها جماهيرياً ... وأذكر أن أحد القادة المختصين بشؤون الدفاع ، أعلن الى زملائه : « ان أي تخطيط بعد بدأ الحرب بست ساعات لا فائدة ترجى منة ».

لقد تباطأ قادة الحلف الغربيون كي يفهموا ضرورة اعطاء حكومات وشعوب الدول بعض الحق حتى يتأملوا ان الدفاع ، اذا وضع موضع التنفيذ ، لا يقودهم ، آلياً ، الى انتحار محتم .

***

مسألة استخدام الاسلحة الذرية التكتيكية

نجمت قضية هامة ومعقدة في عام ١٩٥٤ عندما تقرر تسليح قوات حلف الاطلسي البرية وتقوية الاساطيل الجوية . زاد هذا خطر صراع – ولو محلياً – المواجهة الفعلية فيتحول إلى حرب مدمرة لا يرغب الفريقان بها . وكان أهم تعليل في سنة ١٩٥٠ لجعل القوات البرية والجوية التكتيكية صالحة للعمل هو ان تجعل القنبلة الذرية سلاحاً رادعاً ضد أي اعتداء . ولكن التعليل الغي بعد أن تبنت القوات استعمال الأسلحة الذرية ... لأن قادة حلف الأطلسي الحربيين أوضحوا ذلك إلى درجة أنهم لم يؤمنوا بإمكانية التمييز بين الاستعمال التكتيكي والاستراتيجي للعمل الذري .

أما التعليل الذي عمل في صالح تزويد قوات الحلف بالأسلحة الذرية فهو كونها ضرورية لترجيح كفة التوازن مع الجيش السوفياتي .

وعن هذا تحدث مونتغمري فقال :

« إن ما يبرر اتخاذ هذا القرار هو اننا لا نستطيع اعتراض قوات تـدفع ضدنا دون أن نستخدم الأسلحة النووية » .

يرغب الجنود المسؤولون عن خطط الدفاع بالحصول على أكبر قدر ممكن من الضمانة ، ولا تقع على عاتقهم مسؤولية تقييم إذا ما كان ازدياد الضمان ضاهرياً في قلب المعركة الناجمة عن استخدام الأسلحة الذريـة لا يتوازن إلى حد بعيد مع ازدياد الفوضى والانهيار في اوطانهم .

**

يستطيع رؤساء البلاد إذا انحنوا أمام التعليل الحربي لضمانة كهذه ، ان بإمكانهم الحد من استخدامهم لها حتى تدعو الحاجة إلى ذلك ... وهذا أضعف درجات الإيمان ... والخطر الفادح يكمن في تسليح الجيوش البرية ذرياً قبل القوات الجوية وخاصة إذا كانت الأولى موجودة في مراكز متقدمة جداً .

يترتب على القادة استخدام جميع الأسلحة الموجودة في حوزتهم بدل المخاطرة برؤية قواتهم تندحر وتفرق وربما خسروا بنظرتهم إلى الامور من هذه الزاوية التعرف إلى النتائج البعيدة . يضاف الى ذلك أن منذ أن يوضع المبدأ والتنظيم موضع التنفيذ وبواسطة الاسلحة المعنية ، ينتج عنه ضغط لا يقاوم ... ان ضغطاً مماثلا يستحيل تفاديه بعد أن تبـدأ مـدافع الميدان إستعمال الذخيرة الذرية .

وفي النهاية نقول ان تبني الاسلحة الذرية التكتيكية النووية سيكون أجدى فائدة إذا ما زيدت قوات المقاومة الحالية في جيوش حلف الاطلسي ، وستسمح بدفع أي اعتداء للجيوش الجيوشة الاكثر أهمية دون أن تتسبب القنبلة الهيدروجينية بتدمير أكبر قسم ممكن من أرض الفريقين .

* * *

مسألة تحقيق الردع التندمي

إن حماقة تحقيق دفاع موجه نحو الإنتحار أصبح حقيقة واقعية استثناها المخططون لجيوش الدفاع انفسهم لانها تحتاج إلى ازدياد مضطرد لنجاح العمليات الردعية وتتطلب بالتالي إيجاد ما نسميه : « الردع التقدمي » ، ونضيف إلى أن الحاجة إلى القاء القنابل الهيدروجينية ليس ضرورياً إلا اذا ما شن العــدو هجوماً محدداً يصعب وقفه بأية وسيلة أخرى .

فنتائج الحرب المحددة بواسطة الاسلحة النووية أمست تحدث ذهولاً في النفوس وتدعو إلى الروية والتردد وذلك من حيث التأخر وردة الفعل البطيئة تجاه أي اعتداء لا يشكل تهديداً مباشراً ضد المصالح الحيوية . عندئذ يتوفر للحلفاء الغربيين ميزان أعدل ونظرة ثاقبة أفضل إذا ما هم استعملوا خطاً وسطاً وسياسة ردع وخطة عمل موحدتين مرتكزتين على المبدأ القاضي باستخدام أدنى عدد ممكن من القوات الضرورية لرد أي إعتـــاد خاص والحيلولة دون إتساع نفوذه .

إن سياسة تقدمية كهذه لا تستثني الردود النووية الجماعية في آخر لحظة ولكن عملها سيوجه أولاً ضد القوات المنغمسة في المعركة مستخدمة الوسائل التكتيكية فقط ومتفادية ، هكذا ، قصف المدن استراتيجياً .

وهنا نشير إلى أن الفكرة القائلة بأن كل تحديد عملي نووي يتطلب « إتفاقاً » مع الخصم ، هي فكرة خاطئة من أصلها ... إنهـــا تفرض فقط وضوحاً في سياستنا للحؤول دون التدمير المتبادل .

***

موضوع استراتيجية الحرب المحدودة الجديد

من الضروري أن نتفهم أن القنبلة الهيدروجينية أصبحت تعتبر كفرامل لكل هجوم واسع النطاق ، ولكنها لم تخفف إحتمالات نشوب حرب محدودة وربما زادت فيها .

ويستطيع مراقب فني حذق، في مثل هذا النوع من العمليات أن يضع موضع التنفيذ جملة من المسائل التقنية ، تختلف من حيث الأوضاع ولكنها تهدف ، جميعها ، إلى كسب الأهداف مرغمة ، في الوقت نفسه ، العدو على التردد واتخاذ القرارات الرهيبة ليؤمر بهجوم نووي معاكس .

إن إعتداء كهذا يمكن أن يتم على وتيرة محدودة وسير تقدمي . وربما على وتيرة أسرع ولكن يرتكز على اسس أعمق محدودية ... وقد تتخذ شكل يقظة ثورة داخلية في البلدان الاخرى ... كما يمكن أن تنقلب الى عمل انطوائي إنعزالي .

ومما يدعو إلى السخرية أنه بقدر ما تنمو قوة الحلفاء وتتزايد ، بقدر ما يزداد القادة ارتباكاً أمام الخطر الروسي المتزايد ... وسيصل اليوم الذي تمسي فيه أساليبهم الدفاعية بدائية أمام التقدم العلمي الروسي الهائل .

***

الحل المقترح

ماذا يجب أن يعمل للحيلولة دون سلسلة من الاخطار الكبيرة تبدأ بحرب شاملة وتنتهي بحرب باردة ؛ ويمكن تحقيق هذا دون أثقال كاهل الدولة بعبأ مالي يحطمنا دون نشوب المعارك ؟

إن المحافظة على ركود تطور الاسلحة الذرية وخاصة تلك المؤدية إلى حرب شاملة ، تبقى الشرط الاساسي لدى الدول الطامحة الى سلام دائم .

وليس هناك حاجة ماسة لقوة قصف استراتيجي على مستوى كبير كما حدث في الحرب الاخيرة . ان عدداً صغيراً من القنابل الهيدروجينية يكفي لاحداث الدمار الكامل شرط ان تصيب كل قنبلة الهدف الموجهة نحوه . وهكذا يتبين لنا ان الفعالية هي أهم من العدد وتبقى التقنية العامل الاول المسيطر . وان هذا ينطبق على الصواريخ البعيدة المدى التي تحل محل القاذفات المتوسطة الحجم .

ومنذ أن تبدأ دول الاطلنطي بتعلم الحكمة والتركيز على أهمية العامل الردعي ، وبدل أن تستعد لحرب كلاسيكية كبرى ، عندئذ فقط تتحقق الاقتصاديات الكبرى في قوات القصف التقليدية أما فيما يتعلق بالدفاع الجوي ، فإن قوات القصف لا تؤدي إلى نتيجة ملموسة إذا ما قارناه بسعرها الباهظ مع الرادع وتبقى دون قيمة تذكر ... ويمكن حذفها منذ الآن والإبقاء على قسم زهيد من تلك التي نراها ضرورية للتعاون مع القوات البرية في صد هجوم ما ، ودون إنتظار تجهيز الصاروخ الدفاعي الجوي .

ويمكننا الآن ان نعود الى مـــا هو ضروري لمواجهة نوع محلي ومحدود من

الاعتداءات والذي يكون الخطر الأكثر احتمالاً : اجتياح الحـــدود بسرعة واضطراد والثورات الداخلية التي تغذيها أسباب داخلية أيضاً . من أجل هذا نحتاج الى درك قوي تساانـــده قوات هامة وسريعة التحرك ودائماً على أهبة الاستعداد كرجال الاطفاء مثلاً . ان جيشاً حديث التكوين لا يألف مثل هذه الاجراءات ويتحاشى القيام بها ... ولا يصلح لسير الأمور بأمان ونظام الا الجيش النظامي نفسه .

يتضح لنا بعد أن شرحنا هذه الأسباب المؤدية الى حروب صغيرة ومحلية ، ان النار اذا لم تطفأ في البداية فإنها ستتطور دون شك وتجر الطرفين المتحاربين الى حرب شاملة لا يرغبانها .

وهكذا يتوجب ان تكون الخطط التكتيكية والتحركات والتنقلات على أهبة الاستعداد لمجابهة حرب نووية قد تنشب بين حين وآخر .

وهنا أقسم القوات العاملة الى قسمين : أولاً ان حربة الاطلاع تكمن في عدد من الفرق المصفحة السريعة الحركة مجهزة كلياً بعربات أرضية ، ويمكنهـــا أن تسير خارج الطرق المعبـــدة : كعبور الأنهر وتسلق المرتفعات ... الخ ... الخ ... ويتحتم عليها ان تعمل بمهارة كي لا تقع لقمة سائغة في فم القنبلة النووية أو تنالها الصواريخ المواجهة .

أما القسم الثاني — وهو دفاع البوليس ودفاع الحركة السريعة — فيجب أن يتكون من فرق من المشاة الخفيفة . ويتحتم عليها ان تتنقل في الغابات دون اللجوء الى المكننة ... اذ أن قدرتها العملية تكمن في خفة العتاد الذي يحمله الجنود ... ومعنى هذا اعطاء كل جندي سلاحاً يخف عليه حمله ولا تطلب اليه أن يحمل الكثير من الذخيرة ... وفيما بعد — وعندما تدعو الضرورة — يلحق بالفرقة مجموعة من المدافع والعربات نصف مجنزرة .

* * *

تطور الأستراتيجية الجديد

أصبحت المفاهيم والتحديدات القديمة للاستراتيجية ليس فقط بدائية وحسب، بل مبهمة ولا تتناسب مع تطور الصواريخ البعيدة المدى والمعدة لتحل مكان القاذفات التي يقودها طيارون بشر، يجعل هذا الابهام أكثر حقيقة. ان البحث عن ربح الحرب واتخاذ النصر كهدف، ليس سوى مظهر جنوني ... لأن حرباً نووية شاملة تشكل خطراً فادحاً على الخصمين معاً ... وأصبح الاستعداد لحرب عالمية ثالثة على هذا النمط من التفكير أمراً دون معنى ... فالخراب والدمار والفوضى، نظراً لتطور العلم المذهل في الوقت الحاضر، ستكون كبيرة جداً بعد نشوب الحرب بساعات وان استمرارها بشكل منظم لم يعد مضموناً.

ولكن الأمر المدهش هو أن نلاحظ حتى أية درجة ما زالت المفاهيم القديمة تؤثر في الخطط الحربية ... وكشف النقاب عنها في أحيان كثيرة باستعمال العبارات التقليدية وبطبيعة التمارين التي تقوم بها ... يظهر هذا حتى في استعمال كلمة « سيف » للردع – والمكونة مبدئياً من الطيران الأميركي الاستراتيجي – وكلمة « ترس » لقوات حلف شمال الاطلسي. فاستعمال السيف اليوم يقود الى انتحار متبادل ... ويذكرنا هذا بالعادات اليابانية القديمة حيث كان السيف يقدم لارتكاب الهاراكيري ... وكذلك نقول عن كلمة الترس التي لا تفي بنوع الحماية المطلوبة للوقوف في وجه أشكال الهجوم العدائية، والتي تحصل اليوم على مستوى واسع ولا تتم إلا باستعمال السيف. فالترس ليس حماية مناسبة ضد النحل ولا ضد الحرائق.

ان الاستراتيجية التي هدفها النصر الحربي، يجب أن ترتبط بالاستراتيجية

الكبرى ... وتقضي هذه الأخيرة بتأمين درجة كبرى من الاستقرار لرجل الدولة الذي يسعى أبداً الى السلم ... ومن المدهش أن الماضي لم يعر مثل هذه النظرة أي اهتمام ... ولكن القضية تبدلت اليوم وأصبحت الاستراتيجية الكبرى منطلقاً لخدمة الانسانية وخيرها .

يتوجب على رجل الدولة ، في عصر القنابل الهيدروجينية — أن يراقب الأهداف والعمليات معاً. يجب أن يدير مخططات الدفاع الحربي والاعداد للمبادىء العسكرية بوجه عام .

ومن الآن فصاعداً ، يتحتم على رجال الدولة ومستشاريهم العسكريين أن يلموا جيداً بالتقنية الحربية التي لم يكونوا بحاجة اليها في الماضي ... وهذا مهم للجنود وانصياعهم للادارة السياسية ... واذا لم نذهب الى دمج وزارتي الخارجية والدفاع يتحتم إذن على مستشاريهم أن يتعاونوا فيما بينهم الى أقصى درجة ممكنة من التعاون .

ان هذا تطبيق جديد لعبارة أفلاطون التي تقول بأن قضايا العالم لا تتقدم طويلاً ما لم يصبح الفلاسفة رجال الدولة أو ما لم يصبح رجال الدولة فلاسفة .

●

خطر مراقبة القوات واخطار القنبلة الهيدروجينية

يدهشنا ان نرى كم كانت الشعوب بطيئة عندما تيقظت أمام الاخطار الحديثة والمتصاعدة ، وبطريقة مخيفة ... ويدهشنا كذلك أن نري كيف بدأت يقظتهم غير مباشرة وانطلاقاً من المظاهر الجانبية .

تقع لندن والدول الغربية الاوروبية تحت رحمة الصواريخ الروسية منذ سنة ١٩٥٥ على الاقل . ولكن اطلاق السبوتنيك هو فقط الذي نبه الشعوب الغربية الى خطر القصف بواسطة الصواريخ ... حتى ان القادة العسكريين ، والذين هم على علم بكل طيران يقوم بهم الروس ويكشفه الرادار ، لم يعتقدوا أن الروس قد تخطوهم في ميدان الصواريخ واستمروا يقنعون أنفسهم في أن الغرب يحتفظ باسبقية كبرى من حيث قوة القصف . واستمر الحال هكذا حتى جاءت أول سبوتنيك وبددت أحلامهم ومحت معتقداتهم .

ونقول نفس الشيء عن تحقيق الخطر المتصاعد الناجم عن احتمال وقوع حادث عرضي من جراء الجهود المبذولة للوصول الى درجة من الاستعداد الملائم للرد على الاعتداءات النووية .

بـــدأ قلق الشعب والبرلمان في بريطانيا ، حول هذا الخطر ، بنظرة غير مباشرة كشف النقاب عنهـا في تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ ... فقد أعلن قائد الاستراتيجية الاميركية الجوية ، الجنرال باور ، أعلن ، أثناء زيارة خاطفة قام بها الى باريس ، بأن قوته — المؤلفة من الفي قاذفة — توصلت الى درجة من الاستعداد حيث يستطيع ثلث القاذفات الاقلاع بعد خمس عشرة دقيقة من تلقي الانذار ... وقال فيما بعد ، أن القاذفات وضعت مع قنابلها فوق المدرج والى جانبها الطيارون ثم أضاف : أن نسبة مـــا تبقى في الجو للاستكشاف ليلاً نهاراً .

ونبه المستر فرانك الاون إلى هذا التصريح وإلى الأخطار الناجمة عنه ... ثم طلب انورين بيغن إلى وزير الخارجية يسأله اذا ما كانت الطائرات الأميركية التي تقلع من قاعدات بريطانية تحمل على متنها قنابل هيدروجينية ؟ ورد سلوين لويد ببرودة معهودة : « ربما كان ذلك صحيحاً » . وعندما انهالت عليه الاسئلة أعلن أنه يستطيع تأكيد هذا الخبر ...

وقال سلوين لويد كذلك ان أي حادث لطائرة ما لا يؤدي إلى خطر انفجار نووي ... أما علماء الذرة فقد أكدوا العكس وأصروا على أن تحطم طائرة تحمل قنبلة ذرية يسمم الهواء ويقضي على الانسان والنبات معاً ... وحتى رئيس الوزراء نفسه ، هارولد ماكميلان ، رضخ للواقع بعد أن صرح بأن خطراً من هذا النوع ليس سوى عرضي ولا يؤدي إلى مخاوف كبيرة ! ونحن لا نلوم ماكميلان على ما صرح به لأن عادة رؤساء الدول تصغير الأحداث المشؤومة كي لا تنتشر بين السكان ... أما الواقع فهو أن خطر التلوث الناجم عن انفجار وان كان كبيراً ، لا يقارن بخطر الدوريات التي تقوم بها الطائرات المزودة بالقنابل الهيدروجينية ... إذ أن أدنى خطأ في الاشارات المتفق عليها دولياً يؤدي بسهولة الى نشوب حرب ذرية وبالتالي ال تدمير الحضارة جمعاء .

لقد تزايد احتمال وقوع حادث خطير كهذا أمام الجهود المبذولة من أجل الاسراع بحالة اعداد قوات القصف لرد أعمال الهجمات العنيفة وتخفيف مهلة الاقلاع وأوقات الطيران وشحن القنابل ربما حدث هذا الأمر بسرعة في وقت مشحون بالازمات العالمية .

وجاء افصاح الجنرال باور عن أن عدداً من الطائرات يمكنه الاقلاع في خمسة عشر دقيقة بينما يبقى قسم آخر في طيران مستمر يحافظ على الأجواء ويمنع خرقها ، جاء هذا التصريح يشير الى أي مدى وصلت اليه سرعة التحرك في ميدان المعارك الجوية .

ولو ان طياراً واحداً فجر قنبلة هيدروجينية أثناء تجواله فوق الاهداف والمناطق الروسية لتسبب بكارثة يمكنها ابادة العالم في غضون ساعات .

من الصعب جداً أن نتخيل الاحتياطات ضد تفسير خاطىء أو استعمال في غير محله للأوامر التي تصدر في هذا الشأن والتي تتفق مع عمل سريع تقتضيه

طبيعة الامور ... وبقدر ما يصبح العمل سريعاً وملحاً بقـــدر ما تصبح الاحتياطات المماثلة صعبة وربما مستحيلة .

واورد هنا بعض التفسيرات الخاطئة للأوامر التي كانت تصدر الى الطيارين وقد عشت احداثها بنفسي أثنا الحرب العالمية الأولى : بعث أحد القادة ، بعد أن شرب كثيراً من الكحول ، بأمر مستعجل بالهجوم . وعندما اكتشف الخطأ فيما بعد ، لم يعد باستطاعته تسوية الامور على ما يرام .

وهناك مثل آخر معروف أكثر ، حدث أثناء الحرب العالمية الثانية : في ليلة ٧ ايلول ١٩٤٠ كانت كلمة السر بين القوات الانكليزية هي « كراموبل » . ومعناها التنبيه إلى خطر محدق، الا أن بعض المسؤولين تلقوها وكأنها تعني بدء الهجوم .

عندئذ قرعت الاجراس ونسفت الجسور وقطعت الطرقات وفجرت الالغام مما تسبب بحوادث مميتة كثيرة .

وحادث آخر أهم هو قصف روتردام في ١٤ ايار ١٩٤٠ . فقد لاقت القوات الالمانية مقاومة قوية وهي تحاول احتلال المدينة تساندها الطائرات . وعنـد الظهر علم الجنرال الالماني قائد القوات البرية بأن استسلام الهولنديين بات محتملاً مما حمله على وقف القصف وتأجيله الى يوم آخر ... لم يفتهم الامر الا قسم من الطائرات بينما استمر القسم الآخر بالقصف واشعال الحرائق مما تسبب بتدمير وسط المدينة ودك عشرين الف بناية .

إن أقل خطأ في تفسير الأوامر الصادرة الى الطائرات في عصر القنابـــل الهيدروجينية الحالي يؤدي إلى نتائج سيئة جداً ... ومن الصعب أن نعيش تحت رحمة دولة تهددنا من حين الى آخر بحرب ذرية شاملة واسوأ من هذا الحياة في ظل

طيارين يقودون قاذفات قنابل هيدروجينية ويكفي أن يخطأ أحدهم لنموت نحن .

قال ماكميلان في إحدى اذاعاته : « اذا كانت الأحداث العرضية الناجمة عن القنابل الهيدروجينية ضرورية للقائد للتأكد من أن دفاعاتنا جديرة بالثقة ، يجب علينا تقبلها بطيبة خاطر » .

وفي رأيي ، ان الرادع الفعال يتعلق بطريقة اعداده .

ونقول هنا لزيادة التأكيد :

إن جعل القنابل فعالة يتطلب تنفيذاً تقنياً : ولا يمكن استعمال أية قنبلة من هذه القنابل الا بعد دراسة حربية عميقـــة ، وبناء على تعليمات من الحكومتين البريطانية والأميركية ...

ونتمتع نحن بحق الفيتو لنوجه هذه القنابل من مراكز مقامة في بلدنا .

ومن المؤسف ان فيتو على مستوى عال كهذا لم يكن ولا يستطيع أن يكون ضمانة أكيدة اذا استطاع طاقم الطائرة نفسه جعل القنابل فعالة واذا لم يكن هناك وسائل تقنية أكيدة لتمنع تفجيرها والقاءها .

كما ان حالة الاستعداد السريع ليست ممكنة الا اذا تم تقسيم القنابـــل على جميع الجهات وكانت المراقبة العمليـــة مركزة إلى أقصى درجة التركيز ... وبقدر ما يكون هذا المفعول الحربي ضرورياً ، بقدر ما يصبح الحدث المميت أكثر احتمالاً .

قد يقع الحدث المميت من جراء اعتقـــاد خاطىء كالظن بأن قاذفة محملة بالقنابل الهيدروجينية تقوم بقصف مفاجىء للقواعد الاميركية . ويزداد هذا

الخطر بولادة الصواريخ التي جعلت وقت الانذار يبلغ بضع دقائق ، واستناداً الى التقارير الصادرة عن واشنطن فان خطر احتمال حدوث بيرل هاربر ثانية سمح للقادة المحليين بالقاء اسلحتهم النووية اذا وجـــدوا أن قواعدهم معرضة لخطر التدمير القريب . ان « اذناً مشروطاً » كهذا يعود تقريبـــاً إلى الغاء احتمال مراقبة فعالة تقوم بها الدولة .

•

الاسلحة الذرية الصغيرة

تأثرت مسألة الدفاع بكاملها بتطور الأسلحة الذرية الأخير. وأعني الاسلحة الذرية الصغيرة ذات العطاء المحدود . فهي تبدل في المسألة ولكنها بكل تأكيد تزيدها تعقيداً . ويصر الكثيرون على انها ستحدث ثورة جديدة في عالم الحرب ، وبشكل يختلف عن الذي احدثه وصول القنبلة الذرية في سنة ١٩٤٥ ... وربما جعلت بالفعل الأسلحة النووية قابلة للاستعمال دون ان تتسبب بحرب شاملة وتقوي الرادع بعد أن تمزجه بدفاع فعال .

وحتى عام ١٩٤٥ ، لم تكن القنبلة الأكثر قوة تزن دون العشرة أطنان . وكانت القنبلة التي القيت فوق هيروشيما تملك قوة انفجارية تبلغ الفي مرة اكثر. وهذا ما احدث هوة سحيقة بين الاسلحة الذرية والأسلحة المسماة بالتوافقية... وبعد ذلك حدثت قفزة هائلة في قوة التدمير بظهور القنبلة الهيدروجينية في عام ١٩٥٤ ، والتي تفوق القنبلة الذرية قوة بالف مرة .

ولكن اليوم حدثت التطورات الأخيرة في الجهـة المعاكسة ، واتجهت نحو

صنع أسلحة ذرية صغيرة تتمتع بقوة انفجارية محدودة . ونرى انه بين الأسلحة النووية التي تم تفجيرها في صحراء نيفادا سنة ١٩٥٨ ، كانت سبعة لا يتعدى وزن الواحدة المائة طن وأخرى تزن ستة أطنان ، أي أقل من تلك التي القيت من الطائرة في نهاية الحرب العالمية الثانية ... وتتجه الانظار ، حالياً ، الى صنع أسلحة ذرية لا تزن الواحدة أكثر من طن واحد .

ما الهدف من وراء صنع اسلحة ذرية قليلة العطاء وما هي النتائج التي تنتظر منها ؟ الهدف الأول هو انها تحول استعمال القوة النووية الحربية للوسائل العمياء ذات التدمير الجماعي . نحو سلاح محدد ودقيق ... ويمكن استعمالها تكتيكياً في ميادين القتال دون أن تسبب تدمير القرى والمدن المجاورة لمكان استعمالها ... ونخلص فنقول أنها كسب كبير من حيث القوة على الصعيد الإنساني وعطاء رائع للحضارة والتمدن .

إنها أيضاً حفاظ على اخلاقية الشعب الذي تستعمل للدفاع عنه . وربما ازدادت بعض الدول قوة وصلابة في المقاومة اذا ما علمت ان الخطر الذري لا يهددها وأن صد الهجوم يمكن أن يتم دون تعريض السكان للابادة الجماعية ... ويمكن استخدامها من الناحية الحربية في قصف موقع عدائي فشظية واحدة تكفي لتدمير موقع كبير يتطلب قصفه مئات المدافع... ولا ننسى أن الانفجار النووي المفضل والاكثر قوة هو الذي يتميز باعطاء نتائج أدق على الصعيدين الاخلاقي والمادي ، وفي رأيي أن انفجاراً مصدره سلاح كهذا أفضل من أي نوع آخر يتطلب رصيداً كبيراً من الذخيرة ... ويتضح لنا بعد كل ما تقدم مدى أهمية الدور الاقتصادي في تطوير الأسلحة الحربية على مختلف أنواعها ... ولا يخفى ما هي النتائج الاقتصادية التي نحققها عند ما نخفف من عدد المدافع وكمية الذخيرة وعربات النقل والمحروقات ، وعدد المراكب وخاصة في الحالة التي يجب أن نبعث بالقوات الحربية ألى ما وراء البحار وان نحتفظ بها هناك .

إن خفضاً كهذا في عدد الأسلحة والذخيرة يختصر ويقلل جداً المسائـــل السكنية التي تعترض الجيوش وما يتسببون به من صداع للعاملـــين في مجالات التخطيط العسكرية ... قد تصبـح مؤخرة الجيش صغيرة جداً اذا ما قيست بحجمه الحالي ، وتختفي ضرورة امتلاك المستودعات الكبرى المملوءة بالذخيرة والتموين وكلنا يعلم ما هو العبأ الاقتصادي الذي تفرضه على اقتصاديات الدول في حال وجوب اقتنائها .

يبدو للوهلة الأولى أن الرأس والمؤخرة يصبحان أقل خطورة مما هما عليه في الوقت الحاضر ... لأن حفنة من المدافع تطلق قذائف نووية جيدة التوزيع ، تكوّن هدفاً صغيراً بالنسبة لمجموعة البطاريات التي تطلق القذائف العادية . ومن جهة أخرى فان تخفيف عدد الأسلحة التي يتوقف عليها مصير الجيش ، يهدف الى جعل هذه الأسلحة الخطيرة تنحصر في زاوية أخري غير التي اعتدنا ان ننظر منها اليها ... فالعدد يكون عاملاً هاماً في حساب الخطورة . فبقـدر ما تخف الأهداف المنوي ضربها ، فبقدر ما يأتي الضرب مركزاً ومحكماً .

يضاف الى ما سبق وذكرنا أن المدافع المزودة بقذائف نووية خطيرة جداً ، اذ ما ان يتم اطلاقها حتى يتنبه العدو إلى مكان وجودها ويسعى الى تدميرها في الحال ... وينطبق نفس الشيء على الصواريخ الموجهة ، ذات المحروق السائل ، إذ أنها تتطلب وقتاً كبيراً لاعدادها .

واستناداً الى كل ما ذكرنا نقول أن النتائج المتوقعة من الاسلحة الذرية القليلة العطاء هو أنها تعمل على الاسراع في إصابة الأهداف ويسهل استعمالها على مقربة من القوات الصديقة أكثر من من استعمالنا للاسلحة الذرية الثقيلة .

* * *

وهناك كسب كبير في أن نطلق النار على القوات المعادية ولو كانت على

مسافة مائة يارد منا ... بدل أن نخضع لوقف اطلاق النار وما زال نفس العدو على مسافة تبلغ مئات الأميال ... فسرعة استخدام الأسلحة الذرية الخفيفة هو الذي يوفر لنا ذلك ... لأنه اذا وجد هناك رقعة من الارض الميتة – أي ارضاً لا يسمح فيها باستخدام الاسلحة النووية – فقد يصل اليها أحد الغزاة بطريقة التوائية ويتمكن من جمع شتات قواتة في حزام من « الأمن الذري » ليدك جدار دفاعنا ... عندئذ يصعب على الدفاع استخدام الأسلحة الذرية الثقيلة ليوقف تدخل العدو المستمر .

يضاف إلى ذلك إن الوسائل والطرق الحالية المتبعة لتحديد وقصف الأهداف بواسطة الاسلحة النووية الثقيلة ، ربما ستصبح بطيئة لتسمح بضربها قبل اختفائها . وتزداد الصعوبات في الليل وتتحول من سيء الى اسوأ . ولكن مثل هذه الوسائل تصبح أكثر فعالية إذا ما استخدمنا الأسلحة الخفيفة بدلاً من الاسلحة الثقيلة البعيدة المدى .

أما فيما يتعلق بالاسلحة التكتيكية الذرية الحالية من فئة وزن العشرة كيلو طن ، فمن الأفضل استخدامها ضد أهداف بسيطة كقصف فرقة من المشاة أو نسف بطارية مدفعية .

ما هي أضرار تطور مثل تلك الاسلحة الذرية الخفيفة؟ أولاً ، كونها تشكل استخداماً غير اقتصادي للقوة النووية ، لان عطاء انفجارياً محدوداً غير معقول الا باستخدام المادة الاولية وبالطريقة الأقل فعالية . يمكن تعويض هذه الاضرار التقنية بارباح تكتيكية وسكنية وفي أماكن واعتبارات أخرى عديدة . وقد أكد المراقبون على انها تساعد وتساهم في اقتصاد القوة التي تعدل من التبذير التقني .

ولكن مثل هذا التعليل يصبح قابلا للمناقشة اذا ما نحن قابلناه بالحدود التي

تسمح بها ميزانية الدفاع في كل بلد ومع قواه الانتاجية فتارة يتفق معها وطوراً يختلف ويتناقض كلياً . ان أكبر خطأ يمكن ارتكابه هو اعتقادنا بامكانية صنع القذائف انطلاقاً من أقل عدد ممكن من المواد الأولية والجهد والمال . ان هذه الشروط تضفي سحنة من الشك حول قوتها الدفاعية ... مع العلم أن الاهداف الصغرى هي في حد ذاتها أهداف اقتصادية .

وهناك ضرر آخر هو عدم التأكيد الذي يتعلق بالقوات نفسها من حيث الحركة والعمل ، وخاصة عندما تنتقل من معركة بدائية الى معركة نووية .

يقودنا هذا إلى طرح سؤال هام آخر يتعلق بالاسلحة الذرية التكتيكية عامة . ان أهم تعليل قدم لتجهيز قوات حلف شمال الاطلسي بأسلحة خفيفة كهذه هو أن هذه الأنواع ضرورية لمعادلة كفة التفوق السوفياتي ... ويرتكز نفس التعليل على الاعتقاد القائل بأن الاسلحة الذرية التكتيكية تحبذ الدفاع وتقويه ، كما يستند الى نظرية مفادها ان المعتدي يجب عليه حشد قواته اذا ما أراد اختراق حدود الدفاع ... فهل هذا صحيح ؟

من الثابت ان استخدام الاسلحة الذرية يخفف من عدد القوات التي يعدها المعتدي لا منه وقت محدود . ولكن هذا التحديد ينطبق كذلك على الفريق الثاني، أي الفريق الذي يدافع عن نفسه ويصد ضربات عدوه .

والسؤال الآن يكمن في أن نعرف مقياس التغيير الذي سيطرأ على تطور الاسلحة الذرية الخفيفة . و نظراً لضعف عطائها يمكن استخدامها بطريقة أكثر وضوحاً ، مع احتمال ابعاد اكبر خطر ممكن عن قوات المدافع عن نفسه . كما انها تقلل كذلك من « الارض الميتة » التي يستطيع فيها المعتدي حشد قواته المنهزمة والعودة الى الهجوم من جديد .

●

الغاز ودوره في الدفاع

ارتكز الدفاع الغربي قبل كل شيء ، وبطريقة تصاعدية ، على استخدام الاسلحة الذرية التكتيكية . ووثق بها فيما بعد . ويعود هذا الى القرار الذي اتخذ سنة ١٩٥٤ والقاضي بتجهيز القوات الجوية والبرية باسلحة من هذا النوع .

ومنذ ذلك الحين عمد الروس ، من جهتهم ، الى تطوير اسلحتهم . ولا يعقل الاعتماد طويلاً على تجهيز قوات حلف شمال الاطلسي بهذا النوع من الاسلحة لترجيح التفوق الروسي العددي ... ويدور الشك كذلك حول قدرة الاسلحة الذرية التكتيكية في ترجيح الدفاع على الهجوم .

ومن المتفق عليه ، في نفس الوقت ، ان القوات الروسية مهيأة لتعمل في ظروف ذرية وخاصة باستخدامها التوزيع العددي والظلمة ... وبالفعل يمكن تدريبها على هذه اللعبة اكثر من اكبر عدد ممكن من قوات حلف شمال الاطلسي. يضاف الى هذا ان قادة الحلف العسكريين لم يعتقدوا في ان عملاً ذرياً يمكن تحديده على ارض المعركة ... بل عبروا مؤكدين على انه ابتداء من اللحظة التي تستخدم فيها تلك الاسلحة ، فان استعمالها هذا يتحول الى حرب ذرية شاملة، اي الى انتحار متبادل وتدمير العالم كله .

* * *

وهذا ما عبر عنه الجنرال غرونتر يوم كان قائداً عاماً لقوات الحلف في سنة ١٩٥٤ ، وعندما اتخذ القرار باستعمال الاسلحة الذرية التكتيكية . وصرح الفيلد مارشال مونتغمري بنفس الشيء . كما ان نفس النتيجة المحزنة

استخدمها الجنرال نورستاد ، خليفة غروونتر ، سنة ١٩٥٧ . فقد صرح نورستاد انه يستحيل ، في رأيه ، رسم خط بين الاستعمال التكتيكي لمثـــل هذه الاسلحة ضد القوات المهاجمة ، وبين استخدامها الاستراتيجي ضد الاراضي الوطنية .

اما الاميرال شارل براون ، القائد العام للقوات الحليفة في اوروبا الوسطى الآن ، فقد أكد وحرص بقوة على نفس النتيجة في سنة ١٩٥٨ . قال يصرح في واشنطن ، قبل ان يتسلم منصبه الجديد : « لا اثق كلياً بما يسمونه استخدام الاسلحـــة الذرية المراقب . ولا اجد فرقاً واضحاً بين حالتي التكتيكية والاستراتيجية ... ولا اود ابداً ان انصح باستعمال السلاح الذري ، ومهما كان صغيراً ، خاصة عندما يستطيع الفريقان تدمير العالم ...

كانت خلاصة براون تعني مدلولاً كبـــيراً اذ يجب الا ننسى المنصب الذي شغله كقائد للاسطول السادس في البحر الابيض المتوسط قبل ان يتولى مهام هذا المنصب الخطير في اوروبا ... مع العلم ان الاسطول السادس يعتبر اكبر قوة اميركية ضاربة في اوروبا والشرق الاوسط .

*

ونتساءل هنا بعد ان عرضنا لطرق عديدة عما اذا كان هناك وسيلة اشمل مما تقدم تفي باغراض لدفاع ولا تعرض العالم لدمار كلي .

ان الغازات تقدم لنا مثل هذا الاحتمال وخاصة بعد الاشكال المختلفة التي اتخذتها في فصل المعارك دون ان تتسبب بالوفاة ، كان السلاح الكيمائي الفعال ، منذ الحرب العالمية الاولى ، هو الغاز السائل الذي هزم كثيراً من الجيوش ولم يتسبب بموتها . كما انه شجع وقوى الدفاع نظراً لقوته التدميرية ...

اما اليوم فقد تطورت اساليب حرب الغازات وتحولت الى وسائل نفسية

رهيبة ... فنحن نجعل الهر يخاف من الفأر شرط ان يتنشق قليلا من الغاز .

يؤكد هذا التطور استنتاجاً قديماً منذ اربعين سنة . فقد اكدت مباشرة بعد الحرب العالمية الاولى في كتيب لي عن حرب المستقبل : ان من مصلحـــة المتخاصمين العمل على الحد من الخسائر الى اقصى درجة ممكنة فيما يتعلق بالارواح والصناعة ... اما نشر الرعب والموت فلا يؤدي الا الى الانتقام وتعريض البشرية لخطر محدق .

وخلصت الى القول بان العلوم الكيمائية زودت الإنسانية بسلاح يشجع على القتل ويعطي نتائج نهائية كما يلحق خسائر اقل من الأسلحة المحملة بالتفجرات .

وفي عام ١٩٢١ حرم استعمال الغاز بعد اجتماع عقد في واشنطن ثم تلاه اجتماع آخر في جنيف ولنفس الغاية .

كانت النسبة ٣/١ في الخسائر البريطانية الناجمة عن استعمال الأسلحة العادية و ٣٠/١ بالنسبة لاستعمال الأسلحة الكيمائية .

ولكن الأرقام الأميركية كانت ادق في هذا المضمار .

ويعود السبب في ذلك الى أن الجيش الاميركي دخل الحرب مؤخراً حيث كانت الأسلحة الكيمائية في ذروة مجدها ، وان ثلث الخسائر التي منوا بها كانت ناجمة عن استخدام مثل تلك الاسلحة . كانت نسبة الوفاة بمعدل واحد من أصل خمسين في الحرب الكيمائية وواحد من أصل أربعة في الحرب الميكانيكية .

ونفسر الفرق بين النسبتين البريطانيـــة والأميركية بأن البريطانيين تحملوا هجمات الكلور سنة ١٩١٥ وهجمات الفوستوجين سنة ١٩١٦ ، والمعروف أن الغاز الأخير فتاك أكثر من الاول ولكنه أقل ايلاماً منه ... وعنـــدما وصل

الاميركان الى أرض المعركة كانت هذه الانواع قد الغيت واستعيض عنها بالغاز السائل الذي يتميز بقوة فتكه وايلامه .

وفي نيسان سنة ١٩١٥ حدث أول هجوم « غازي » . فقد فوجئت به القوات البريطانية والفرنسية ولم تجد ما تحتمي به وترد عنها شره الفتاك وتسبب بموت عدد كبير من الجنود مما زرع الرعب في نفوس الاحياء منهم وركنوا الى الفرار مخافة أن يكون مصيرهم كمصير زملائهم ... وحتى في هذه الحالات الرهيبة كانت نسبة الوفيات بمعدل واحد من أصل اربعة مصابين . وظهر فيما بعد نوع من السلاح الفتاك أحدث رعباً في النفوس وبدا أكثر بربرية من أي سلاح آخر عرفته الانسانية .

كان هذا ينطبق على أشكال الغاز التي تسبب ألماً أكثر ... لان الانسان يفضل العذاب عشر مرات على أن يموت فجأة ... يضاف الى ذلك ان نسبة السلاح الكيمائي « انسانياً » كانت كبيرة بقدر ما هي المعطيات الحربية التي نحصل عليها دون أن نعمد الى تدمير المدن واحتلالها ...

***

إن الاسلحة الفتاكة تمحي جميع الشروط الاقتصادية التي تقضي بتحويل الحرب الى سلام . ومنذ ان عجز القادة الحربيون عن اختيار النوع الملائم من الأسلحة بدأ الخطر يزداد وخاصة بعد التطور الهائل في القوة الجوية وظهور القوة الذرية .

وعلى الرغم من استمرار التجارب والابحاث حول الحرب الكيمائية ، فان الاتفاق القاضي بوقف استخدامها حد نوعاً ما من استعمالها التكتيكي ... ولم نلمس لدى أي جيش الاستعداد التام لاستخدام الغاز أثناء الحرب .

وأمام هذه الظواهر نقول أن قوة الانسان باتت مهددة بالخطر بعد التقدم

السريع الذي بلغه علم الميكانيك ، ونؤكد على حد قول بعض القادة القدماء : « لقد بلغت قدرة الانسان نهايتها » ... ومن أجل هذا كان الفارس بايار لا يرأف بالرجال الفرسان أمثاله ويعاملهم بقساوة بينما يزيد في الاحسان الى المسلحين من حملة السيوف وغيرهم .

خامر الشك الجنود حول قيمة الغازات غير الفتاكة ... وذلك ما عبر عنه أحد الجنرالات في رده على سؤال وجهه اليه أحد الكيمائيين البريطانيين الذي نصح الالمان ، قبل سنتين من بدأ الحرب ، باستعمال الغاز السائل في معاركهم . سأل الجنرال الكيمائي : هل يقتل ؟

ورد العالم يقول : لا ، انما يهزم مؤقتاً ويطيح بأكبر عدد ممكن من الاعداد دون ان يقضي عليهم . وأجاب الجنرال : هذا لا يصلح لنا ، نريد سلاحاً يقتل الاعداء في الحال .

***

هل تكفي الاسلحة الحالية للدفاع الفعال؟

جرت الصواريخ الروسية دول حلف الاطلسي الى البحث عن أسلحة فعالة تكفي للدفاع التام وتؤلف جبهة رادعة لا تخترقها قوات العـــدو مهما بلغ تعدادها ... فالتحديد المتواصل أمر حاصل وبات من المعقول أن تقوم روسيا بهجوم جماعي وتعرض المنطقة لحرب نووية مدمرة .

ولاحباط مثل هذا الهجوم كانت الصعوبة تكمن في أهمية القضية أكثر منها في استطاعة حلها ، وخاصة بواسطة اولئك الذين ارادوا بحث المسألة استناداً الى المعطيات القديمة للدفاع .

ومن جهة ثانية ، انطلاقاً من الارتكاز على القاعدة القديمة التي تقضي بمواجهة أي هجوم روسي على نطاق واسع ، فقد توصل المخططون الغربيون في عام ١٩٥٠ – ١٩٥١ الى نتيجة هي أن قوة غطاء تتألف من أربعة وثلاثين فرقة منها ثمانية عشر فرقة تقف دائماً على أهبة التدخل المباشر يجب أن تكفي لوقف هجوم مفاجىء على الجبهة بين النمسا والبلطيك .

وبينما كان مخطط دول حلف الاطلسي الخاص بهذه الجبهة ينمو سنة ١٩٥٢ ، محطماً جميع الأرقام السابقة ، جاءت الزيادة فقط في فرق الاحتياط القابلة للتحرك في أية لحظة والتصدي لتحركات فرق الروس الاحتياطية المماثلة .

ونؤكد ، بعبارة اخرى أن مخطط التوسع هذا جاء نتيجة قائمة كلاسيكية للمعارك ذات النمط القديم .

وعلى ضوء الاختبارات ، كان المخططون يأملون بأن قوة تغطية تتألف من ست وثلاثين فرقة فعالة تكفي لصد هجوم ستين أو سبعين فرقة سوفياتية ، كل ذلك يتوفر بتوفر امكانية ايصال المؤونة والامدادات في ساعات الحرب الاولى. وأمل الغربيون أنه مهما كثرت فرق الانقاذ والمساندة التي قد تتحرك من الجانب السوفياتي ، فهي لا تستطيع أن تتعدى مثل هذا العدد .

لقد تدنى عدد القوات الاطلسية كثيراً الآن بالنسبة للمستوى المتوقع الذي كان يجب أن يبلغه في سنة ١٩٥٤ .

ولم يكن من المستحيل عليه بلوغه ، اقتصادياً وحربياً ، وتؤكد دول حلف الاطلسي أن روسيا احتفظت طويلاً بجيش يتكون من خمس وسبعين فرقة بينما يبلغ سكانها مائتي مليون نسمة ... أما هي – أي دول الحلف – فعدد سكانها يبلغ مائتي وخمسين مليون في أوروبا واربعمائة مليون في مجموعه

ويحتفظون بجيش يتألف من ثلاثين فرقة أكثرها في الاحتياط – ليغطي اوروبا الغربية والوسطى .

***

وعندما نفترض عدد القوات التي كان بإمكان روسيا أن تحتفظ بهـــا يبرز أمامنا سؤال وهو معرفة ما اذا كان الجهاز الذي ستلجأ اليه قوات حلف الاطلسي سيبدو معقداً وغالياً ... وبإمكاننا ان نجد الرد الصحيح على السؤال اذا ما انطلقنا من فكرة جديدة وارادة حديدية ... ولا معنى لأن تعيش دول الحلف في دوامة من القلق والخوف يهيمن عليها تعداد السكان ... ونحن نعلم ان لا قيمة لهذا العدد أمام التطور التقني .

يمكننا التغلب على الصعوبات الاقتصادية التي تمنع بلوغ القوة الجديدة المرادة اذا ما نحن لجأنا الى تطوير جديد وتنظيم سليم ... مرتكزين على تكتيكي علمي قويم .

***

لقد تطورت القضية الآن ونقص عدد القوات الارضية الضرورية ، لأن الروس ، ما ان يمكنهم افتراض القـــدرة على شن هجوم جماعي وعلى مستوى كبير ، حتى يفكرون باشعال حرب نوويـــة تؤدي الى الانتحار ... وأفضل شيء كان يمكنهم انتظاره هو شن حرب محددة مؤقتة تـدور رحاها أكثر ما تدور في الجو ... وهذا احتمال وخطر يتحتم على دول حلف الاطلسي أن تتهيأ له .

ما هي الاسلحة التي يمكن أن يستعملها الروس في هجوم مماثـــل ؟ فهناك عشرون فرقة روسية في المانيا الشرقية وكلها من النوع المصفـــح ؛

ثماني فرق مدفعية واثنتا عشرة فرقة آليات .

ونطرح سؤالاً آخر هو : ما هي القوات التي تحتاجها دول الحلف للتأكد من سلامتها ضد الهجوم الآنف الذكر ؟

وانطلاقاً من قاعدة كهذه نجزم قائلين ان قوة تتألف من عشرين أو ثلاثين فرقة تكون ضمانة جيدة ، ليس فقط ضد ضربة مفاجئـــة تقوم بها القوات الروسية بل ضد أي هجوم آخر – معقول وأقل احتمالاً – تشنه قوات سرية معادية .

* * *

وبتكوين أول مجموعة من الفرق الالمانية يتدنى العدد ويبلغ ادنى ما وصلت اليه بقية القوات ، أما بقية الفرق فسيتم تكوينها تدريجياً ... وهكذا نرى ، بعملية حسابية بسيطة ، ان جهداً اضافياً بسيطاً هو المطلوب الوحيد من قوات البلدان الحليفة ... وستسد عودة الفرق الفرنسية الاربعـــع التي ارسلت الى الجزائر هذه الثغرة .

ولا يمكننا الاعتماد على هـــذه التطمينات ما لم يطرأ تطور ملحوظ في الاستعدادات الفعلية القائمة ... فنسبة الفرق المعـــدة لليوم المشهود لا زالت متدنية جداً .

أما على الجبهة الوسطى في المانيا فمساندة القوات السريعة التنقل ضرورية ويجب أن تهدف الى مد القوات الاطلسية المتقدمة بالعتاد والذخيرة وان تكون على قدر كاف من التدريب لتعمل في حيز من التنظيم كخلية نحل . ان الفكرة القائلة بأن القوات الاطلسية عاجزة عن شن معركة متحركة ما هي الا افتراض لا صحة له البتة

❀

القسم الرابع

خواطر وآراء



من آثار الاشتراكية

ان الآراء الديموقراطية في النصف الاول من القرن التاسع عشر كانت وقفاً على المتعلمين . وتأثر عامة الشعب بالتطور الصناعي ، اذ هجروا اراضيهم وقصدوا المصانع ، مؤلفين بذلك طبقة العمال الذين اكتظت بهم المصانع والمدن الصناعية القذرة القريبة من مناجم الفحم . وقد بـــدأت أحوال العمال تتطور بسرعة وتتربى في اذهانهم أفكار جديدة .

وكانوا يختلفون عن اولئك الفلاحين والصناع القدماء الذين قدموا في السابق الى المصانع هرباً من الجوع . وكما ان انكلـــترا سبقت البلدان الأخرى في ميدان التصنيـــع فانها كذلك سبقت غيرها في تطوير حالة الطبقة العاملة وقد كانت حالة هذه الطبقـــة في المصانع والبيوت مما يرثى لها من الشقاء والتعاسة . وكان الاطفال والنساء يعملون ساعات طويلة . وكان أصحاب المصانع يعارضون كل اصلاح وحتى لو كان عن طريق التشريع ويعدون ذلك تدخلا مخزياً في حق الملكية الفردية . وقد تمادى هؤلاء الرجعيون لدرجة انهم عارضوا الإصلاح الصحي للمنازل الخصوصية .

وكان العمال المساكين يموتون موتاً بطيئاً من الجوع والعمل المضني . كما أن حروب نابوليون انهكت بلدان اوروبا فعم الفساد وقاسى العمال الأمرين، فحاولوا تأسيس الجمعيات لحماية وتحسين أحوالهم . وكان في انكلترا سابقـــاً نقابات لأصحاب المهن والحرف الفنية ولكنها كانت تختلف عن الجمعيات التي اراد العمال انشاءها .

غير أن الطبقات الحاكمة في بريطانيا سنت قوانين تمنـــع العمال من مجرد الاجتماع ومناقشة شكاواهم ، وكل ذلك خوفاً من الشبح الذي خلفتـه الثورة الفرنسية .

ولم تزد القوانين الجائرة العمال الا شقاء وتصميماً ، فاسسوا جمعيات سرية يقسم العضو فيها اليمين بعدم افشاء السر ، ويجتمـع أفرادها في الأماكن غير المطروقة والساعات المتأخرة من الليل . وكلما افتضح أمرهم قدم الاعضاء امام المحاكم بتهمة التآمر وحل بهم العقاب الشديد ... وكثيراً ما كان العمال يحطمون الآلات ويحرقون المصانع ويقتلون أصحابها ... واخيراً رفع الحظر عن النقابات وبدأت هذه تظهر الى حيز الوجود .

وهكذا اتخذت الحركة العمالية شكل نقابات عمالية تسعى الى تحسين أحوال العامة عن طريق المساومة الجماعية . وكان السلاح الوحيد في يد العمال الاضراب عن العمل ... ومع أهمية هذا السلاح ، فان أصحاب المصانع كانوا يملكون سلاحاً أقوى منه وهو الامتناع عن دفع الاجور وارغام العمال بذلك على الخضوع والرجوع الى العمل خوفاً من المجاعة . واستمر الكفاح على هذه الصورة ولم يتحقق الا قليل من النجاح . ولم يكن للعمال نفوذ على البرلمان لكونهم لم يتمتعوا بحق التصويت . وفي سنة ١٨٣٢ صدر قانون الاصلاح وقـــد لقي معارضة شديدة ... فمنح حق التصويت للاغنياء فقط من الطبقة الوسطى وأهمل العمال من الطبقات الكادحة .

وهالت هذه الأحوال أحد الاشخاص في مانسشتر فأدخل تحسينات عديدة في مصنعه وحسن حالة عماله ... وحاول اقناع أمثاله من أصحاب المصانع ان يحذوا حذوه . وكان هذا أحد الأسباب التي حملت البرلمان البريطاني على اصدار قانون المصانع عام ١٨١٩ لحماية العمال من جشع الآخرين . وقد حرم هذا القانون

على الآخرين تشغيل الاولاد البالغين من العمر التاسعة فما دون أكثر من تسع ساعات في اليوم .

ويقولون ان هـــذا الشخص – وكان يدعى روبرت اوين – هو أول من استعمل كلمة الاشتراكية في بريطانيا سنة ١٨٣٠ ... وان فكرة توزيع الثروة بين الغني والفقير لم تكن فكرة حديثة في العالم . فقد ظهرت هذه الفكرة في الماضي عندما كانت الجماعات تملك الثروة والأراضي مشاعاً فيما بينها . ودعيت هذه العادة بالشيوعية الفطرية وعرفت عند الجماعات البدائية ووجدت في بلدان عديدة ، بما فيها الهند .

اما الفكرة الاشتراكية الجديدة فانها تختلف عن مجرد كونها فكرة عامـــة غامضة للمساواة ، بل كانت أكثر تحديداً وكان هدفها الاول تطبيق العدالة على النظام الصناعي الجديد . كانت فكرة اوين ترتكز الى قيام جمعيات تعاونية ، وان للعامل حصة في المصنع . وقد اسس اوين نفسه مصانع ومدناً عماليـــة متتالية في كل من انكلترا وأميركا . ولكن لم يستطع اقناع أصحابه الآخرين والحكومة على تبني أفكاره، وبالرغم من ذلك فقد صاغ اوين كلمة الاشتراكية التي اعتنقها الملايين من البشر .

وكانت الصناعة البريطانية في هذه الأثناء تتقدم وتحقق النجاح تلو النجاح . وفي نفس الوقت كانت مشاكل الطبقـــة العاملة ايضاً في ازدياد . وقد نجم عن الرأسمالية زيادة في الانتاج مما ساعد على زيادة عدد السكان . ونشأت المؤسسات الصناعية الضخمة وتعاونت فيما بينها على أصحاب الأعمال الصغيرة . وانهالت الثروة على انكلترا وانفق معظمها في بناء مصانع جديدة ومد السكك الحديدية او انشاء المؤسسات الأخرى. وحاول العمال تحسين احوالها عن طريق الاضرابات ولكنهم فشلوا فشلا ذريعـاً فقاموا بمؤازرة الثورات التي قامت في اوروبا عام ١٨٤٨ .

واستمرت حركة اتحادات العمال جهادها بأساليب جديدة رامية الى زيادة الاجور وتحسين احوال العمال . وقد كانت متأثرة بالمبادىء الاشتراكية الجديدة التي تأثرت هي بـدورها بجهاد العمال . وتطورت الاشتراكية في بلدان اوروبا الرئيسية وهي انكلترا وفرنسا والمانيـا على اسس متباينـة حسب قوة وحالة الطبقة العاملة في كل واحـد منها . فكانت الاشتراكيـة الانجليزية على الاجمال تؤمن بالتطور التدريجي البطيء ، بينما كانت الاشتراكية في القارة الأوربية راديكالية ثورية . أما اميركا فانها كانت تختلف على الحالـتين لانهـا بلد واسع يحتاج الى الأيدي العاملة ، فلم تقم فيها حركة عمالية الا في فترة متأخرة .

وظلت الصناعة البريطانية منذ نصف قرن مسيطرة على العالم مدة جيل من الزمن وأصبحت الثروة تتدفق عليها من ارباح صناعاتها ومن ارباح استغلال الهند والمناطق الأخرى التابعة لها. وقد تسرب جزء من هذه الأرباح الى أيدي العمال مما رفع مستواهم الى درجة لم يسبق لها مثيل . وقد ازالت هذه النعمة دواعي الثورة التي كانت تداعب خيال العمال . وأصبحت الاشتراكية البريطانية اكثر الاشتراكيات اعتدالاً . وفي عام ١٨٦٧ دخل تعديل آخر على قانون الانتخابات أعطى البعض من عمال المدن حق التصويت . وكانت اتحادات العمال في ذلك الحين من الهدؤ بحيث أعطى اعضاؤها اصواتهم الى مرشحي حزب الاحرار .

وبينما كانت انكلترا في رخاء ودعة ، كانت بقية القارة الاوروبية تستقبل دعوة مبدئية جديدة بحماس واندفاع ، تلك هي الفوضوية .

ولا تسر هذه الكلمة من لا يعرف عنها شيئاً ، بينما هي في الواقع ترمي الى قيام مجتمع تزول منه سلطة الحكومة المركزية اذا أمكن ومنح الافراد حرية كبيرة ، وكان مثلها الاول الايمان بمجتمع أساسه انكار الذات والتضامن واحترام حقوق الغير عن طيبة خاطر . ويتوجب على الدولة الا تقوم باستعـمال القوة

والعنف ... فان خير الحكومات تلك التي لم تحكم أبداً ، وعندما يستعد الناس لذلك فانهم سيختارون حكومة من هذا النوع .

وهذا مبدأ معقول يطالب بالحرية للجميع وعدم الانانية والاحترام المتبادل والتعاون الاختياري . وما ابعد عالمنا المشحون بالانانية والعنف عن مثل هذا المبدأ . ولا بد أن تكون رغبة الفوضويين في زوال الحكومة المركزية أو وجود أقل نوع ممكن من الحكومات ناتجة عن الحكم الاستبدادي الاوتوقراطي الذي قاسى منه الناس كثيراً وطويلاً . ولقد قاسوا من طغيان الحكومات فارادوا زوالها ...

واعتقد الفوضويون أن الدولة في النظام الاشتراكي ربما مالت الى الاستبداد بسبب سيطرتها على جميع وسائل الانتاج . وهكذا كان الفوضويون اشتراكيين ولكنهم كانوا يشترطون اعطاء الفرد مزيداً من الحرية ...

* * *

أدى قيام الصناعة الحديثة الى قيام طبقة منظمة من العمال . أما طبيعة الفوضوية فلم تسمح لها باتباع التنظيم والانتشار في البلدان الصناعية التي قامت فيها اتحادات العمال المنظمة . وهكذا ظلت انكلترا والمانيا خاليتين من الفوضوية التي انتشرت وترعرعت في جنوب وشرق اوروبا المتخلفة في المضمار الصناعي . وكلما سار التصنيع الى هذه البلاد ضعفت الفوضوية الى أن أصبحت عقيدة بائدة باستثناء اسبانيا المتخلفة كثيراً من الناحية الصناعية .

وربما كانت الفوضوية عقيدة لا غبار عليها من الناحية المثالية . غير انها أصبحت ملجأ لا للمحتالين والمظلومين فقط ولكن للأنانيين الذين ارادوا التستر بها والكسب عن طريقها . وقد ادى ذلك الى العنف الذي صار يلازمها ويؤخذ عليها، ولما لم يستطع الفوضويون تغيير المجتمع بالصورة التي ارادوها فانهم

ارادوا ان يدعوا الى الى مبادئهم باسلوب مستحدث من الدعايـــة وهو القيام باعمال محسوسة من مقاومة الطغيان والتضحية بالنفس . وقاموا بثورات ، وكان المشتركون فيها لا يأملون بالفوز ولكنهم مع ذلك كانوا يعرضون أنفسهم للخطر في سبيل خدمة عقيدتهم . وبعد أن اخمدت هذه الثورات لجأ أتباع المذهب الى الاعمال الارهابية كالقاء القنابل واغتيال الملوك وكبار الموظفين . وكان ذلك دليلاً على يأس الحركة واضعافها . وتلاشت الحركة نهائياً في أواخر القرن التاسع عشر . وقد تخلى كثير من أنصارها عن فكرة الدعاية بالعمل والاغيال والقاء القنابل بقصد الارهاب .

العمل والماركسية

وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهرت في عالم الاشتراكية شخصية فـــذة ساحرة ، هي شخصية كارل ماركس وهو يهودي الماني ، ولد عام ١٨١٨ ودرس القانون والتاريخ والفلسفة . وبدأ صدامه مع السلطات بسبب جريدة كان يقوم باصدارها ، ولذلك رحل الى باريس حيث تعرف الى اناس جديدين وقرأ الكتب الاشتراكية والفوضوية واعتنق المبدأ الاشتراكي ، وهناك التقى بالماني آخر هو فريدريك انجلز... وكان هذا الاخير متبرماً من الحالة الاجتماعية القائمة وكان عقله يفكر في ايجاد علاج للفقر والاستغلال الذريع المحيط به . وقد استهوته فكرة روبرت اوين ومحاولته الاصلاحية فاصبح من أنصاره . ولما قدم الى باريس واجتمع بكارل ماركس لأول مرة تغيرت افكاره مرة أخرى ... بعد ذلك أصبح الرجلان صديقين حميمين ذوي آراء واحدة وعملا بجهد كبير في سبيل هدف واحد .

وكان سنهما متقارباً وكذلك تعاونهما لدرجة أن معظم الكتب التي اصدراها حملت اسميهما معاً .

* * *

طردت حكومة لويس فيليب الفرنسية كارل ماركس من باريس فتوجه الى لندن وعاش فيهاسنوات عديدة قضاها في مطالعـــة الكتب الموجودة في المتحف البريطاني . وقد اجهد نفسه وصقل نظرياته وكتب عنها . واثرت عليه كثيراً الاحـــداث التي جرت في عام ١٨٤٨ ، عام الثورات الاوروبية حتى أصدر في ذلك العام بالاشتراك مع انجلز ، بيانهما ، الذي أصبح مشهوراً فيما بعد، « بالبيان الشيوعي » ، والذي شرحا فيه المبادىء التي حركت الثورة الفرنسية الكبرى والثورات التي تلتها في عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٨، واشار الى عدم ملاءمتها واتفاقها مع الحالات التي كانت قائمة بالفعل . فانتقدا الهتافات الديموقراطية المترددة آنذاك بالحرية والمساواة والاخاء شارحين انها لا تعني الكثير للشعب المسكين وانها انمـــا كانت مجرد قناع روحي يستر مطامع الدولة البورجوازية الحقيقية ، ووضعا مختصراً لمبدأهما الاشتراكي ، وختما البيان بنداءالىجميع العمال: « يا عمال العالم اتحدوا ، انكم لا تخسرون الا قيودكم ، بينما تربحون العالم » .

واعتبر ذلك بمثابة نداء للعمل . والحقه ماركس بدعاية متواصلة في الجرائد والنشرات وبمحاولات لتوحيد صفوف منظمات العمال . ويبـــدو انه كان يحس ان أزمة كبيرة ستحل باوروبا ، فأراد أن يستعد العمال لها وان يجنوا الثمرة الكبرى منها .

ولكن نبوءة ماركس بوقوع الثورة الاوروبية لم تصدق . فقد مضت ستون عاماً وجرت حرب عالمية قبل ان تندلع الثورة التي لم تفهم الا في جزء واحد من اوربا فقط .

* * *

وفي عام ١٨٦٤ ، نجح ماركس في عقـــد اجتماع في لندن كان يضم جماعات متفرقة تدعو نفسها اشتراكية . وكان هناك الديموقراطيون والوطنيون من بلدان اوروبية متعددة خاضعة لنفوذ اجنبي ، انما يعانون من قصر النظر الى الاشتراكية

ويكمن هدفهم الاساسي في تحرير بلادهم وانشاء حكم وطني فيهـــا . وكان في الطرف الآخر الفوضويون الذين يريدون ان ينزلوا رأساً الى أرض المعركة . وقد جاء معظم انصار ماركس من المناطق الصناعية وخصوصاً المانيا ، حيث كانت حالة العمال احسن من غيرها . وهكذا كان ماركس ممثلاً لطبقة العمال النامية المنظمة وحسنة الحال، بينما كان زميله باكونين ، يمثل الطبقة الافقر غير المنظمة من العمال والمثقفين والناقمين (أي الفوضويين) .

وكان ماركس ينزع في نظرياته الاشتراكية الى تعليم العمال وتنظيمهم حتى تحين ساعة العمل التي كان ينتظر وقوعها قريباً ... ولكن باكونين وانصاره ارادوا العمل حالاً . وعلى العموم فان ماركس ربح المعركة واسس جمعية العمال العالمية وكانت هذه اولى المؤسسات التي عرفت بالعالمية .

وفي عام ١٨٦٩ نشر ماركس ، في المانيا، كتابه الشهير — رأس المال . وهو ثمرة جهود سنين طويلة قضاها في لندن . وقدم فيـــه تحليلاً ونقداً للنظريات الاقتصادية القائمة وشرح فيه نظرية الاشتراكية بتطويل .

والمعروف عن الكتاب انه علمي محض ، عالج تطور التاريخ الاقتصادي باسلوب علمي متجرد دون اللجوء الى الغموض والمثل العليا . وقد عالج بوجه خاص نمو الحضارة الصناعية الناجمة عن الآلات الجبـــارة ووضع استنتاجات بعيدة المدى عن التطور والتاريخ والتنازع بين الطبقات في المجتمع الانساني . ودعيت هذه الاشتراكية الماركسية الواضحـــة المعالم والمسندة بالحجج القوية ، دعيت بالاشتراكية العلمية وذلك ليصار الى التفريق بينها وبين الاشتراكيـــة المثالية . وليست قراءة الكتاب سهلة بل هو أبعد ما يكون عن ذلك ولكنه بالرغم من صعوبته، فهو من تلك الكتب النـــادرة التي اثرت على مجرى الفكر الانساني وطبعت عدداً كبيراً من الناس بمبادئها ، فاصبحت عاملاً مهماً في تاريخ التطور البشري .

***

الثورة الفرنسية

ان الكتابة عن الثورة الفرنسية أمر صعب جداً فهي لا تعود الى قلة المراجع عنها بل الى كثرتها .

لقد كانت هـــذه الثورة دراما منوعة مليئة بالأحداث الخارقة التي لا تزال تبهرنا وترعبنا وتهزنا ...

ان سياسات الأمراء ورجـــال الدولة تدور في المخادع والحجرات الخاصة محاطة بجو من الغموض ، وعليها نقاب كثيف يغطي كثيراً من الخطايا ، ولغة من مزخرفة زائفة ، تحجب صراع المطامع المتنافسة ... وحتى حين كان هذا الصراع يؤدي الى الحرب والى ارسال جيوش جرارة من الشباب فيلقون حتفهم من أجل هذه المطامع والشهوات ومن المؤسف الا تسمع آذاننا أي اشارة الى هذه الدوافع الحقيرة ... بل تسمع كلاماً عن الدوافع النبيلة والأغراض السامية التي تتطلب التضحية ! ...

ولكن الثورة شيء آخر تماماً ... ميدانها ليس في الحجرات المغلقة ولكنها في الحقل والشارع والسوق ، ووسائلها غليظة خشنة ، فالناس الذين يصنعونها ليست لهم ثقافة الأمراء ورجال الدولة ، لغتهم ليست موشاة أو مهذبة ولا هي تخفي شبكة من المؤامرات والخطط الشريرة لا غموض هناك ولا نقاب يغطي ما تتجه اليه أفكارهم ، حتى ان أجسادهم ليس عليها الا القليل تتغطى به ! وليست السياسة ، في لحظات الثورة ، مجرد رياضة للملوك والساسة المحترفين ... ولكنها تصبح تعاملاً مع الحقائق ، صادراً عن الطبيعة الانسانية الخام ، والبطون الخاوية ...

وهكذا رأت فرنسا ، في تلك السنوات الخمس الحاسمة ، من ١٧٨٩ الى ١٧٩٤ ، الجماهير الجائعة تعمل ، ومما لا شك فيه ان الجائعين هم الذين ارغموا أيدي الساسة المرتعدة على الغاء الملكية والاقطاع وامتيازات الكنيسة ... انهم هم الذين قدموا القرابين الى المقصلة الرهيبة وانتقموا انتقاماً قاسياً من اولئك الذين اضطهدوهم في الماضي ، والذين اعتقدوا انهم يتآمرون على حريتهم الجديدة ... ان هؤلاء الحفاة العراة هم الذين خفوا ليدافعوا عن ثورتهم في أرض المعركة ، بأسلحة قديمة ، قهروا بها الجيوش المدربة التي أرسلتها أوروبا المتحدة ضدهم ...

ونقول هنا أن هؤلاء الفرنسيين قد صنعوا المعجزات ... انما بعد سنوات رهيبة من التوتر والصراع فإذا بقوى الثورة تنهك وتنقلب على نفسها وراحت تأكل بنيها ، حتى كانت الثورة المضادة ... فابتلعت الثورة الأولى وأعادت الطبقات الممتازة لتتحكم في أبناء الشعب الذين خاطروا وتحملوا كل هذا العناء... ومن هذه الثورة المضادة خرج نابليون وأصبح دكتاتوراً وامبراطوراً ... ولكن كل ذلك لم يتمكن من اعادة الناس الى أماكنهم القديمة ... ولا أحد استطاع ان يمحو الانتصارات الرئيسية للثورة ، أو ان ينتزع من الشعب الفرنسي ، بل ومن سائر الشعوب الأوروبية ، ذكرى تلك الأيام التي حكم فيها رجل الشارع حقاً ، ولو لفترة قصيرة جداً .

وفي أيام الثورة كانت هناك هيئات واحزاب كثيرة تحارب من أجل السلطة ... كان هناك الملكيون يحاولون عبثاً ابقاء الملك لويس السادس عشر مع سلطاته الاستبدادية القديمة ، وكان هناك الأحرار المعتدلون يريدون دستوراً ، يبقي الملك بسلطات مقيدة ، ثم كان هناك أيضاً الجمهوريون المعتدلون وقد أطلق عليهم اسم « الجيروند » ثم الجمهوريون المتطرفون ، وأطلق عليهم اسم « اليعاقبة » وذلك لأنهم اعتادوا ان يجتمعوا في قاعة دير عرف بدير يعقوب...

كانت هذه هي المجموعات الرئيسية وكانت جماهير الشعب الفرنسي وجماهير باريس بصفة خاصة تعمل تحت زعامة قادة مجهولين خرجوا من غمارها ... وفي البلاد المجاورة، خصوصاً انكلترا، كان يوجد المهاجرون ، وهم النبلاء الفرنسيون الذين فروا من الثورة وأخذوا يتآمرون ضدها ... ووقفت كل القوى في أوروبا متحدة ضد فرنسا الثائرة ... انجلترا البرلمانية الارستقراطية ، مثلها مثل ملوك القارة وأباطرتها ، كانوا كلهم خائفين من غضبة الرجل البسيط في فرنسا ، ويحاولون كبتها ...

لقد تآمر الملك والملكيون ولكنهم لم ينجحوا الا في التعجيل بآجالهم ...

وكان اقوى حزب في الجمعية الوطنية في أول الأمر هو حزب الأحرار المعتدلين الذين كانوا يريدون دستوراً على النمط الانكليزي أو الأميركي ، وعلى رأسه ميرابو ... وقد ظل هذا الحزب مسيطراً على الجمعية الوطنية ما يقارب السنتين ، فاستطاع مدفوعاً بانتصارات الأيام الأولى من الثورة ، استطاع ان يسجل وثائق رائعة ويحقق تغييرات هامة ... وفي ٤ آب ١٧٨٩ سقط الباستيل، وبعد هذا الحدث بعشرين يوماً، شهدت الجمعية العمومية دراما عنيفة ... وكان الموضوع المطروح على بساط البحث هو : الغاء الحقوق والامتيازات الاقطاعية ... أما جو فرنسا ، في تلك الأيام ، فقد كان مشحوناً بعقلية جديدة تماماً ، حتى ان أمراء الاقطاع أنفسهم بدوا وكأنهم ثملوا أيضاً بخمر الحرية الجديدة ! ووقف كبار رجال الاقطاع ورجال الكنيسة يتنافسون في التنازل عن حقوقهم الاقطاعية وامتيازاتهم الخاصة ! ... كان هذا بادرة طيبة الأثر منهم رغم انها لم تنتج الا بعد بضعة سنين ...

وهكذا ، وفي جو من الحماس ، الغى برلمان فرنسا الثائرة حقوق الاقطاع ، ومحاكم الاقطاع ، وألغى أعفاء النبلاء من الضرائب ، بل وألغى حتى الالقاب ... وانصرفت الجمعية الوطنية الى وضع اعلان حقوق الإنسان ...

وربما كانت فكرة هذا الاعلان الشهير مأخوذة من اعلان الاستقلال الاميركي... ولكن الاعلان الاميركي كان مختصراً وبسيطاً على عكس الاعلان الفرنسي الذي جاء طويلا... وحقوق الانسان هذه هي الحقوق التي تكفل له الحرية والمساواة والسعادة .

وقد كان هذا الاعلان بالنسبة لعصره عملاً باسلاً جريئاً ، وقد ظل ما يقرب من مائة عام بعد ذلك هدفاً للاحرار الديموقراطيين في اوروبا كلها... ولكنه الآن يبدو عتيقاً ، وعاجزاً عن حل اية مشكلة من مشاكل عصرنا الراهن ... فقد احتاج الناس الى بعض الوقت كي يكتشفوا ان المساواة أمام القانون واباحة حق التصويت للجميع لا يكفيان لتحقيق المساواة الحقيقية أو الحرية او السعادة ... ذلك ان اولئك الذين يملكون القوة لديهم وسائل كثيرة لاستغلال الناس. انما تغير الفكر السياسي كثيراً وتقدم جداً منذ الثورة الفرنسية ، حتى ان اشد المحافظين مغالاة باتوا يتمسكون اليوم بالمبادىء الرنانة التي انطوى عليها اعلان حقوق الانسان ... ولكن ليس معنى ذلك ، كما يظن البعض ، ان هؤلاء المغالين يقبلون حقاً المساواة والحرية الحقيقيتين .. فهذا الاعلان في واقع الامر يحمي الملكية الخاصة ... اذ ان المقاطعات التي كان يملكها النبلاء الكبار والكنيسة التي صودرت كانت مصادرتها لاسباب اخرى تتصل بالحقوق والامتيازات الاقطاعية اما حق الامتلاك في حد ذاته فقد ظل حقاً مقدساً لا يمس .

كما ان المفكرين التقدميين يعتقدون الآن أن حق الملكية الخاصة سر يجب الحد منه ، بقدر الامكان ! وقد يبدو اعلان حقوق الانسان لنا الآن وثيقة عادية . ولكن كل الافكار الجريئة تصبح عادية بعد زمن . فحين اعلنت هذه الوثيقة اهتزت اوروبا كلها ... وبدت كأنها تحمل لكل المعذبين أملا بحياة اسعد . ولكن الملك لم يقبلها بل رآها كفراً والحاداً وابى ان يصدق عليها : وكان لا يزال يسكن قصر فرساي... ومن هنا نشأت الغوغائية في باريس ...

قادت النساء الرجال وزحفوا ، جميعاً ، على فرساي حيث اجبروا الملك على توقيع الميثاق وعلى العودة الى قاب باريس أيضاً ...

ثم أقدمت الجمعية على تغييرات أخرى نافعة . فصادرت املاك الكنيسة الواسعة . واعادت تقسيم فرنسا الى ٨٠ وحدة اقليمية ووضعت قوانين جديدة للمحاكم لتحل محل محاكم الاقطاع القديمة ... انما لم تذهب في ذلك كله الى الحد الكافي ... اي انها لم تصنع شيئاً يذكر للفلاحين والمتعطشين الى الارض ولا لسكان المدن الباحثين عن الخير .. وازاء هذا بدت الثورة وكانه القي القبض عليها او أن قوة خفية قد اعتقلتها .

ولم تكن الجماهير من الفلاحين او سكان المدن ممثلة في الجمعية الوطنية قط . كانت الطبقة المتوسطة تحكم الجمعية بزعامة ميرابو ، وعندما شعرت هذه الطبقة بأن أهدافها قد تحققت .. بدأت تبذل كل جهدها لايقاف الثورة عند هذا الحد .. وبدأ هؤلاء الزعماء يتحالفون مع الملك بل ويعدمون الفلاحين في الاقاليم .. وأصبح زعيمهم ميرابو المستشار السري الخاص للملك ...

وبدأ العامة الذين اقتحموا الباستيل وظنوا انهم حطموا اغلالهم ، يتساءلون ماذا يحدث هناك ؟ ان حرياتهم ما تزال بعيدة عنهم ، والجمعية الوطنية تحكمهم بنفس الطريقة التي كان يحكمهم بها الاقطاعيون القدماء ...

واذ خاب أمل أهل باريس ، قلب الثورة النابض في الجمعية الوطنية ، وجدوا لانفسهم ما يزيح الهم عن صدورهم في بلدية باريس ، فكل قسم من أقسام المدينة التي تنتخب مندوباً عنها في المجلس البلدي ، كان فيه تنظيم نشيط وثيق الاتصال بالجماهير . واصبح المجلس البلدي منبراً للثائرين ، يضم خصوم الطبقة المتوسطة والمعتدلين .

وجاء يوم الذكرى الاولى لسقوط الباستيل ، واحتفل أهل باريس بـه

احتفالاً هائلاً في ١٤ تموز . فاقاموا الزينات في المدينة على حسابهم لأن العيد عيدهم .

وهكذا وقفت الثورة في سنتي ١٧٩٠ و ١٧٩١ : فقدت الجمعية العمومية ثورتها تماماً واكتفت بما صنعت من تغييرات وشعب باريس ما زال يزخر بالطاقة الثورية ، والفلاحون ينظرون نظرة جائعة الى الارض . ولم يكن ممكناً أن يستمر الوضع على هذا النحو ... فالثورة أما ان تمضي الى الامام أو تموت .

***

وفي أوائل سنة ١٧٩١ توفي ميرابو الزعيم المعتدل . وكان بالرغم من عمله مستشاراً للملك محبوباً من الناس وعلى صلة وثيقة بهم . وفي ٢١ حزيران سنة ١٧٩١ وقع حادث حدد مصير الثورة وخطها . والحادث هو ان فر الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري انطوانيت .

وكاد الملكان الهاربان ان يصلا الى الحدود فعلاً ، ولكن بعض الفلاحين عرفوهما في قرية « فارنجان » القريبة من فردان ، فاوقفوهما واعادوهما الى باريس .

وهكذا كتب الملك والملكية حظهما بهذا العمل . وانتشرت الدعوة الى الجمهورية بسرعة هائلة ، مع ان الجمعية الوطنية ظلت بمنأى عن هذا الاتجاه ، كما انها اطلقت النار على الجماهير التي طالبت بخلع الملك ... وانطلقت الجماهير التي تطلب « مارا » احد ابطال الثورة الكبار ، لانه هاجم الملك بعد فراره واتهمه بالخيانة ، فاضطر الى الاختفاء من مطارديه في بعض مجاري باريس وهناك اصيب بمرض جلدي بشع .

ومع ذلك فقد ظل لويس ملكاً ولو بالاسم ، سنة اخرى ... وفي شهر

ايلول سنة ١٧٩١ انتهت مدة الجمعية الوطنية واخلت مكانها للجمعية التشريعية.

كانت معتدلة كسابقتها ولا تضم الا ممثلين للطبقات العليا ... ولذلك لم تمثل قط الحمى المتزايدة في فرنسا .

وانتشرت حمى الثورة بين الناس على نطـــاق واسع ، وبدأ الجمهوريون المتطرفون ، اليعاقبة ، الذين خرجوا من غمار الناس يزدادون قوة .

وفي نفس الوقت كانت القوى الاوروبية تراقب هذه الاحداث لبعض الوقت مثل انهاء مملكة بولندا القديمة واقتسامها، ولكن احداث فرنسا كانت تسير الى غايتها وتجتذب كل يوم المزيد من الانتباه، وكانت النمسا تحتل بلجيكا، وكانت لها تبعاً لذلك حدود ملاصقة لفرنسا . وزحفت الجيوش الاوروبيـة الى ارض فرنسا وهزمت الجيش الفرنسي . وكان المفهوم أن الملك متحالف مع الاعـداء ألزاحفين ، وان الملكيين كلهم خونة ، وكان الفرنسيون ، كلما تزايـــدت الأخطار، أصبحوا أكثر حساسية وذعراً حتى انهم أخذوا يرون الخيانة والخونة في كل شيء . وتصدى المجلس البلدي الباريسي الثائر في هذه الأزمة ، ورفـــع الراية الحمراء ايذاناً بأن الشعب قد أعلن الأحكام العرفية ضد خيانة القصر . وفي ١٠ آب سنة ١٧٩٢ أصدر أمراً بالهجوم على قصر الملك . وأمر هذا الاخير حرسه السويسري باطلاق النار على المهاجمين ولكن النصر كان حليف الشعب وأرغم المجلس البلدي الجمعية التشريعية على اعتقال الملك ووضعه في السجن .

لم يكن وضع الملـك في السجن بالامر الكافي . فانطلق شعب باريس في سورة غضبه من اطلاق نار الحرس السويسري عليه وقتل الكثيرين منه . كما انطلق مدفوعاً بخوفه من الخونة والجواسيس ، يعتقل كل من يشتبه فيه حتى امتلأت السجون ولا شك أن الكثيرين جداً من هؤلاء المعتقلين كانوا مذنبين . ولكن المؤكد أن كثيرين أيضاً من الابرياء قد دخلوا السجون . وبعـد بضعة

أيام هبت عاصفة اخرى من السخط . فأخـذت الجماهير تخرج المسجونين من سجونهم وتحكم عليهم بالاعدام بعد محاكمات صورية ... وقد قتل اكثر من الف شخص بمذابح ايلول المعروفة .

كانت هذه هي المرة الاولى التي عرفت فيهـــا باريس طعم الدم على نطاق واسع وقد سال بعد ذلك دم كثير قبل أن يهدأ الظلم .

وفي أيلول أيضاً أحرز الفرنسيون أول نصر لهم على النمسويين والبروسيين الغزاة ... وكان ذلـك في معركة صغيرة في فالما . فهي صغيرة في نطاقهـا ، ولكنها كانت كبيرة جداً في نتائجها ... اذ انها استطاعت انقاذ الثورة .

واجتمع المجلس الوطني في ٢١ أيلول سنة ١٧٩٢ ، وهو جهاز جديد حـل محل الجمعية التشريعية . كان اكثر تقدماً من الجمعيتين ، ولكنه ظل سائراً خلف المجلس البلدي ، وكان أول عمل قام به هذا المجلس الجديد هو اعلان الجمهورية ، وبعد ذلك مباشرة ، تمت محاكمة لويس السادس عشر ، وحكم عليه بالاعدام ، وفي ٢١ كانون الثاني سنة ١٧٩٣ دفع رأسه ثمناً لاخطاء الملكية كلها .

وبذلك احرق الفرنسيون كل المراكب خلفهم ! لقد أقدموا على هذه الخطوة الأخيرة ، معادين بذلك ملوك اوروبا واباطرتها الى الابد . لا رجعـــة الآن الى الوراء ... وعلى سلم المقصلة ، وقبل ان يغسل من دم لويس ، وقف دانتون ، قائد الثورة العظيم ، يخطب في الجماهير المحتشدة ، موجهاً تحديه الى كل الملوك :

لقد تحدانا ملوك اوروبا ، فالقينا اليهم برأس واحد منهم .

* * *

أثر المناورة الحربية في الثورات القديمة

أريد أن ألقي نظرة أخرى على الصورة التي لا تكف عن أحداث التغييرات في أوروبا ، خــلال القرن التاسع عشر . ويجب ألا ننس الدور الذي لعبته الديموقراطية وكذلك العلم وتطوره ونهضة الصحافة الحديثة . ان جميع هذه الاشياء وغيرهـا هي التي صنعت حضارة أوروبا في ذلك القرن . الحضارة البورجوازية التي سيطرت فيها الطبقة المتوسطة على الصناعة الآلية ، في ظـل النظام الرأسمالي . وقد تنقلت هذه الحضارة البورجوازية الأوروبية من نجاح الى نجاح ... وصعدت قمة بعد قمة ... فلم يكد القرن التاسع عشر يصل الى النهاية حتى كانت قد سجلت تفوقها وسيادتها في العالم أجمع ... ثم لم يلبث أن ظهر الخلل ! وقد رأينا أطرافاً من آثار هذه الحضارة في آسيا أيضاً ... عندما ذهبت أوروبا مدفوعة بصناعتها النامية ، تمـد ايديها الى أراض بعيدة لكي تسيطر عليها وتستغلها لمصلحتها . وأنـا أقصد بكلمة أوروبا هنا ، أوروبا الغربية بالذات ، التي كانت متفوقة على غيرها في حركة التصنيع وحيث كانت انكلترا هناك زعيمة لا تجارى ، متفوقة على الآخرين ، مستفيدة من هـذه الزعامة الى أقصى الحدود .

على أن كل هذه التغييرات الهائلة التي كانت تتوالى في غرب أوروبا . لم تكن واضحة أو مفهومة لدى الملوك والاباطرة في مطلع القرن ... ولذلك لم يدركوا أهمية القوى الجديدة الآخذة في النمو . ومنذ القضاء على نابليون نهائياً كانت الفكرة الوحيدة المسيطرة على أولئك الملوك هو أن يحافظوا على عروشهم وسلالتهم وأن يجعلوا العالم ملائماً لبقاء الأوتوقراطية . وكانوا في الوقت نفسه لم يبرأوا بعـد من الذعر الذي أصابتهم به الثورة الفرنسية ، فهم حريصون على أن لا

يتيحوا الفرصة لنشوب ثورة أخرى ... فعقدوا بينهم ما أسموه بالمحالفة المقدسة المحافظة على الحق الالهي للملوك ولمنع الناس من أن يرفعوا رؤوسهم ! وتحالفت الأوتوقراطية ورجال الدين كالعادة . وكان الاسكندر قيصر روسيا هو الروح الموجهة وراء هذا الحلف ... ذلك أن بلاده ظلت حتى ذلك الوقت تعيش في ظلال القرون الوسطى ولم تهب عليها نسمة واحدة من ريح الصناعة . كانت المدن الكبيرة هناك نادرة والتجارة تافهة ، وحتى الصناعات اليدوية كانت منخفضة المستوى مما جعل الارستقراطية قوة وحيدة لا ينازعها أحد .

وعلى العكس من ذلك كانت الأحوال في سائر بلاد أوروبا . فكلما اتجه المرء غرباً كان يجد الطبقة المتوسطة أكثر نمواً ، حتى يصل الى انكلترا نفسها فلا يجد فيها أوتوقراطية على الاطلاق . فالملك مقيد بسلطة البرلمان ، والبرلمان في يد حفنة من الأغنياء . وكان الفرق كبيراً بين الأتوقراطية في روسيا والأغنياء الحاكمين في انجلترا ، ولكنهما كانا يشتركان في شيء واحد : الخوف من الشعب ومن الثورة معاً ...

وهكذا كانت الرجعية مسيطرة منتصرة في أوروبا .

كانت الحروب في الزمن الماضي أما دينية أو عائلية أو وطنية . وان كانت تخفي وراءها عادة بعض الاسباب الاقتصادية ايضاً .

وعند ما نصل الى العصور الحديثة نجد ان الحروب الدينية والعائلية قد اختفت .

لم تنته الحروب طبعاً ، بل لعلها زادت في نطاقها ، ولكن اسبابها اصبحت سياسية واقتصادية والاسباب السياسية مرتبطة عادة بالوطنية ، كغزو دولة لدولة اخرى ، وكصراع بين وطنيتين . ولكن حتى هذه الخلافات نجد لها اسباباً اقتصادية كاحتياج الدول الصناعية الى اسواق وخامات تستأثر بها .

وهكذا نجد ان العوامل الاقتصادية ما زالت حتى الآن من الاسباب الاولى في اشعال الحروب .

وقد حدث نفس التطور بالنسبة للثورات . كانت الثورات قديماً تحدث في بلاط القصور : افراد اسرة حاكمة يتآمرون ضد بعضهم البعض ويتبادلون المكائد والاغتيالات ... او انفجار يائس يقوم به الناس لانهاء حياة طاغية ، او استيلاء جندي طموح على العرش بواسطة القوة المسلحة . مثل هذه الثورات كان ينهض بها افراد قلائل ، أما عامة الناس فكانوا لا يشاركون فيها ، بل يهتمون بها ... فالحكام يتغيرون ولكن النظام يبقى وحياة الناس لا تتغير . أجل ، فهناك الحاكم الطاغية الذي لا يحتمل والحاكم الذي يستطيع الناس احتماله ولكن سواء كان الحاكم طيباً او رديئاً فان الظروف الاجتماعية والاقتصادية كانت تبقى على حالها ... اي ان الثورات لم تكن اجتماعية .

والثورات الوطنية تنطوي على تغيير أكبر من ذلك : فحين تحكم احدى الدول ، دولة اخرى ، فمعنى ذلك ان طبقة حاكمة اجنبية هي التي تسيطر . وهذا الوضع يلحق بالدولة المحتلة اضراراً بالغة ، اذ معنى ذلك ان تكون الدولة المحكومة مكرسة لصالح الدولة الحاكمة والطبقة الاجنبية الحاكمة .

ان مثل هذا الوضع يؤدي حتماً الى الثورة الوطنية ، لأنه من ناحية يؤذي كرامة الدولة المحكومة ... ويحرم الطبقات البارزة فيها من الوصول الى مراكز السلطة والنفوذ ، التي لولا الحكم الاجنبي لشغلها ابناء هذه الطبقات ، والثورة الوطنية الناجحة هي التي تطرد العنصر الاجنبي وتضع العناصر الوطنية القوية بدلاً منها ... ومعنى ذلك ان مثل هذه الثورة الوطنية تعود بالنفع اولاً وقبل كل شيء على ابناء الطبقات العليا لانهم هم الذين يستفيدون مباشرة من خروج العنصر الأجنبي .

أما الطبقات الفقيرة فلا شك انها تستفيد أيضاً اذ لا تعود بلادهم محكومة لحساب دولة أجنبية . ولكن فائدتهم تبقى ضئيلة ، ما لم تكن الثورة الوطنية مصحوبة بثورة اجتماعية أيضاً ...

والثورة الاجتماعيــــة شيء يختلف تماماً عن الثورات الاخرى التي لا تغير شيئاً سوى السطح ، هي ثورة سياسية بغير شك ، ولكنهـــا تنطوي على شيء أكثر من ذلك ، اذ تغير تكوين المجتمع ذاته ، فالثورة الانكليزية ، مثلا ، التي جعلت سلطة البرلمان هي العليا ، لم تكن ثورة سياسيـــة فحسب ، بل كانت اجتماعية في بعض نواحيها ، اذ ادت الى مشاركة الطبقة الغنية للملك في سلطـة الحكم . وبذلك ارتفعت تلك البورجوازية سياسياً واجتماعياً ، بينما لم ينل ابناء البورجوازية ولا عامة الناس شيئاً . والثورة الفرنسية كانت ثورة اجتماعية ، بل وربما اكثر من ذلك قليلاً ، فقد قلبت نظام المجتمـــع كله رأساً على عقب ، ولعبت الجماهير فيها دوراً هاماً .

وقد انتصرت البورجوازية هنا أيضاً ، فقد اعادت الجماهير — بعد ان لعبت دورها — الى مكانها القديم ، واخرجت في الوقت نفسه النبلاء أصحاب الامتيازات .

فالثورات الاجتماعية اذاً أبعد أثراً من التطورات السياسية ، اذ انها وثيقة الصلة بظروف المجتمع . والثورة الاجتماعيــة لا يمكن ان يخلقها فرد طموح او جماعة معينة ، ما لم تكن الجماهير مهيأة ومستعدة لهذه الثورة بحكم الظروف .

ولست أقصد باستعداد الجماهير ان تكون متيقظة لما ستفعله بعد اخبارها به . ولكنني اقصد ان تكون الظروف الاقتصادية والاجتماعية قد وصلت الى حالة أصبحت حياتهم معها عبئاً لا يجدون خلاصاً منه الا بعد تفكير كبير ، حقاً ، لقد كانت الحياة خلال قرون طويلة عبئاً رهيباً بالنسبة لجماهير ضخمة من الناس ، احتملت هذا العبء احتمالاً غريباً ، كانت هذه الجماهير تثور أحياناً ، ثورات فلاحين في الغالب ، ولكنها كانت تفقـــد رشدها من الغضب فتنطلق

مدمرة ما كانت تستطيع ان تضع يدها عليه ، ولكن هذه الجماهير كانت تثور خالية من أية رغبة في تغيير النظام الاجتماعي ، وان كان هذا الجهل لم يمنع انهيار تلك الأوضاع الاجتماعية مرة اخرى ، كما حدث في روما القديمة ... وفي اوروبا في العصور الوسطى وفي الهند والصين وغيرها من الامبراطوريات التي اندثرت .

وفي الماضي ، كانت التغييرات الاجتماعية الاقتصادية تتم ببطء نظراً لأن وسائل الانتاج والتوزيع والنقل ظلت دهوراً طويلة دون أن تتغير تغيراً يذكر. وعلى ذلك ، كان الناس لا يلحظون هذا التغيير البطيء ويبقون على اعتقادهم بأن النظام الاجتماعي القديم هو الاصلح ولا بديل له . كذلك ساهم الدين في وضع هالة من القداسة حول هذه النظم ، وما يصاحبها من عقائد وتقاليد . واصبح الناس على درجة من الاقتناع بدوام هذه الأوضاع حتى انهم لم يفكروا قط في أي تغيير للنظام الاجتماعي بالرغم من تغيير الظروف تغييراً كبيراً . ولكن بظهور الثورة الصناعية وتغير وسائل النقل هذا التغيير الرهيب ، أصبحت التغييرات الاجتماعية اسرع من ذي قبل ، فقفزت طبقات جديدة الى المقدمة واصبحت واسعة الثراء . كما ظهرت طبقة من العمال الصناعيين تختلف تماماً عن طبقة العمال اليدويين او الزراعيين ، كل ذلك أصبح يقتضي تغييراً اقتصادياً وسياسياً عاجلاً . واصبحت اوروبا الغربية في حالة غريبة من القلق . والمجتمع الحكيم هو المجتمع الذي يقدم على التغييرات الضرورية اذا دعت اليها الحاجة وبذلك يفيد من التطور . ولكن المجتمعات ليست عادة عاقلة ، ولا هي تفكر تفكيراً جماعياً بل ان افرادها يفكر كل واحد لنفسه ومن أجل مصلحته ، كما ان الطبقات التي تضم أفراداً تتشابه مصالحهم تعمل لحساب نفسها . فإذا كانت هناك طبقة تحكم مجتمعاً من المجتمعات ، فانها تريد ان تبقى حاكمة مسيطرة تستغل الطبقات الادنى منها . والعقل والنظر البعيد يؤكدان الخير في المدى الطويل لا يصيب فرداً الا اذا كان خيراً للمجتمع الذي

يعيش فيه هذا الفرد ، ولكن الفرد صاحب السلطة او الطبقة صاحبة السلطة ، لا تريد ان تبقى على سلطتها . ولعل اسهل طريقة لذلك هي محاولة اقناع سائر الطبقات والأفراد بان النظام الاجتماعي القائم هو خير نظام يمكن قيامه ... وفي ذلك يساهم رجال الدين ويساهم التعليم ، حتى يصل الى اقناع الناس بعدم جدوى أي تغيير على الاطلاق. وما اكثر ما ينجح رجال الدين ورجال التعليم في ذلك ... حتى ان الذين يقاسون اكثر من غيرهم يصلون الى الاقتناع بحق النظام الاجتماعي القائم في الاستمرار ... ببقائهم جائعين خائفين ... بينما يستمتع الآخرون بالحياة المترفة .

هكذا نجد اناساً يعتقدون ان النظم الاجتماعية شيء لا يتغير وان فقر الأغلبية لا ذنب فيه لا حد . انها في رأيهم تعود الى الحظ . فالمجتمع دائماً محافظ يكره التغيير ، يجب ان يبقى حيث هو ، ويؤمن بأنه خلق ليبقى حيث هو . ومن اجل ذلك نرى المجتمع كثيراً ما يعاقب اولئك الذين يريدون ان يخرجوه من الوحل الذي يعيش فيه .

ولكن الظروف الاقتصادية والاجتماعية لا تنظر لحسن الحظ ، انها تمضي وتتغير ولو بقيت آراء الناس جامدة. وبالتدريج تتسع مسافة الخلف بين الحقيقة الواقعة وبين المعتقدات القديمة بحيث لا يبقى هناك مفر من عمل شيء لتقليل مسافة الخلف بين الاثنين والا تعرض النظام للكارثة والانهيار .

تلك هي الظروف التي تخلق الثورة الاجتماعية الحقيقية ، فاذا وصلت الامور الى هذا الحد ، فلا مفر من نشوب الثورة ، مهما تأخرت بفعل انتشار المعتقدات القديمة ...

أما اذا لم تتوفر هذه الظروف ، فان اي عدد من الأفراد لا يمكن ان يخلق ثورة اجتماعية مهما بذلوا من جهود .

أما اذا انفجرت الثورة فعلاً فسرعان ما يسقط القناع الذي كان يخفي الاوضاع الحقيقية عن العيون وسرعان ما يدخل الفهم الى عقول الناس . والناس اذا خرجوا من الجحر لا يلبثون ان يزحفوا الى الأمام . وهذا هو السبب في ان الناس في ايام الثورات يتقدمون بنشاط عجيب .

وهكذا تأتي الثورة نتيجة حتمية للرجعية المتحجرة . أما اذا تجنب المجتمع غلطة الاقتناع بدوام النظم الاجتماعية واحتفظ بمرونته وقدرته على التطور مع تغير الظروف ، فانه لا يتعرض للثورة الاجتماعية أبداً. لقد اطلت الحديث عن الثورات دون أن اقصد ، والواقع ان هذا الموضوع يستهويني ويثيرني ، فالقلق يغمر العالم الآن ويعبث في كل مكان ، والنظام الاجتماعي يقف ، في كثير من البلدان ، على وشك الانهيار ، وهذا ما يدعو المرء الى الاعتقاد بان العالم يقبل على تطورات خطيرة .

واذا ما انا اندفعت في هذا الحديث الطويل عن الثورات وذلك لمناسبة شروعي في الحديث عن تلك الثورات التي غمرت اوروبا في القرن التاسع عشر.

وكثير من هذه الثورات كان من نوع الثورات الوطنيـة ضد الغاصب الأجنبي ، الا ان الأفكار الثورية في البلاد الصناعية بالذات ادت الى مزيد من الخلاف بين طبقة العمال الجديدة والرأسماليين أصحاب الصناعات . وبدأ الناس يفكرون ويعملون بانتباه من أجل الثورة الاجتماعية .

وجاء عام ١٨٤٨ الذي يسمى في اوروبا عام الثورات. فقد نشبت الثورات في كثير من البلاد ونجح بعضها وان كان أغلبها قد انتهى الى الفشل . كانت الوطنية المقهورة وراء الثورة في بولندا وايطاليا وهنغاريا .

وبعد فترة أخرى من الزمن نجحت المجر في نيل استقلالها بواسطـة ثورة أخرى من نوع جديد قادها زعيم اسمه « دياك »... وقد نشبت ثورة اخرى في

المانيا أيضاً سنة ١٨٤٨ ولكنها لم تكن ذات خطر، فتم اخمادها مع وعد باجراء بعض التعديلات لتهدئة الخواطر .

وتم كذلك تغيير كبير في فرنسا. فمنذ طرد البوربون كان يحكم فرنسا الملك لويس فيليب ، وكانت ملكية شبه دستورية ، وفي سنة ١٨٤٨ ثار الناس عليه وأرغموه على التنازل ، ثم اعلنت الجمهورية مرة اخرى فكانت الثانية وكانت الاولى خلال الثورة ...

وانتهز ابن احـــد اخوة نابوليون – وهو لويس بونابرت – انتهز فرصة الاضطراب ، فعاد الى باريس وتظاهر بأنه من انصار الحرية الكبار ، فانتخبه الفرنسيون رئيساً للجمهورية الجديدة ، ولم يكن تظاهره بأنه من انصار الحرية الا خدعة ليصل الى القوة ... فلما اطمأن الى قوته ، واطمأن الى سيطرته على الجيش ، عمد سنة ١٨٥١ الى القيام بالانقلاب ، فحاصر باريس واطلق الرصاص على الناس وارهب أعضاء البرلمان ، وأعلن نفسه، في السنة الثانية، امبراطوراً، واتخذ له اسم نابوليون الثالث . وهكذا انتهت الجمهورية الثانية في فرنسا ، بعد عمر قصير غير مجيد لم يدم اكثر من اربع سنوات .

ولم تقع في انكلترا خلال سنة ١٨٤٨ ثورة ما، ولكنها تعرضت لاضطرابات ومتاعب خطيرة ، ولانكلترا اسلوب خاص بها في الرضوخ عندما تهددها بوادر اضطراب خطير ، وبذلك تتجنب وقوعه . فدستورها المرن يسهل لها ذلك من ناحية ، كما ان الخبرة الطويلة عوّدت الانكليزي على ان يقبل بالحل الوسط اذا لم يعـد ثمة طريق آخر أمامه ... وبذلك تجنبت انكلترا كثيراً من التغيرات الكبيرة المفاجئة التي تعرضت لها الدول الأخرى لأن دساتيرها اكثر صلابة وابناءها أقل مرونة .

وفي سنة ١٨٣٢ . شهدت انكلترا اضطراباً كبيراً من أجل اصدار قانون الاصلاح الذي أعطى حق الانتخاب لعدد اكبر من المواطنين ، وبه اقتصر حق

الانتخاب على عدد من أبناء الطبقة المتوسطة ، اما العمال والأغلبية الساحقة من الناس فلم يكن لهم حق الانتخاب ... وكان البرلمان من أجل ذلك في يد حفنة من الأغنياء الذين كانوا لا يريدون فقد هذه الميزة التي تعيدهم الى مقاعد مجلس العموم في كل انتخاب دون أي عناء .

وقد قاوم هؤلاء الأغنياء اصدار هذا القانون بكل قوتهم ومهارتهم ، وكانوا يرددون أن انكلترا سوف تنهـــار والعالم سوف ينتهي ، اذا تم اصدار ذلك القانون ! ..

ووصلت انكلترا الى مرحلة الخوف من وقوع حرب اهلية ... قبل ان يوافق البرلمان على اصدار هـــذا القانون ... ولم تتمزق انكلترا بل ولم يتغير البرلمان كثيراً ، فقد ظل واقعاً تحت سيطرة نفس الحفنة من الأغنياء ... وان كانت الطبقة المتوسطة الميسورة الحال ، قد نالت مزيداً من القوة ...

فلمـا جاءت سنة ١٨٤٨ تعرضت البلاد لهزة جـديدة ... فقد قامت حركة ضخمة تريد ارغام البرلمان كي يوافق على اصلاحات اخرى كثيرة ... وبعد ان افزعت هذه الحركة الطبقات الحاكمة الى حد بعيد، تم اخمادها... وظل السخط بين طبقات العمال محتدماً ... فبدأ البرلمان يصدر اول قوانين للعمال ... وهي قوانين كانت لا تفيد العمال الا قليلاً ...

وفي ذلك الوقت كانت انكلترا تحصل على ارباح هائلة من تجارتها المتزايدة.. اي انها اصبحت مخزن العالم كله في التجارة ... وكانت أغلب هـــذه الأرباح تذهب طبعاً الى أصحاب المصانع ، فلا يتسرب منها الى العمال الا التافه القليل ولكن هذا القليل ، على أية حال ، ساعدعلى تأجيل الثورة التي اوشكت على النشوب سنة ١٨٤٨ ... رغم ان خطرها بقي معلقاً في الافق ...

***

اميركا والاقتصاد العالمي

لقد قضت الحرب الاهلية في اميركا على ارواح الكثيرين من شبابها، وتركت لها عبئاً باهظاً من الديون . غير ان تلك البلاد كانت شابة مليئة بالنشاط فاستمر نموها السريع... وكانت كذلك تملك موارد طبيعية هائلة، خصوصاً في المناجم الغنية بالموارد الرئيسية الثلاث التي تقوم عليها اليوم كل صناعة حديثة : الحديد والفحم والبترول . وكان ثمة كثير من مساقط المياه التي يمكن استغلالهــا في توليد الكهرباء ، وشلالات نياجارا المعروفة في طليعتها .

كانت تلك الدولة قارة هائلة يقطنها سكان قليلون نسبياً ، فكان كل فرد يجد امامه مجالاً واسعاً للثراء ، وعلى ذلك تهيأت لها كل الاسباب لاقامة دولة صناعية من الدرجة الاولى ، وقد اخذت في ذلك بسرعة ملحوظة ، فلم تأت سنة ١٨٨٠ حتى بدأت الصناعة الاميركيــة تنافس الصناعات الانكليزية في الاسواق الخارجية . فقد وضعت الصناعة الاميركية والالمانيــة حداً للتفوق الذي استأثرت به انجلترا في التجارة الخارجية مدى قرن كامل من الزمان ...

وتدفق المهاجرون على الدولة الجديدة من جميع الشعوب الاوروبية : المان واسكندنافيون وايرلنديون وايطاليون ويهود وبولنديون ... جاء بعضهم طريد الاضطهاد السياسي في اوطانهم الاصلية وجاء بعضهم الآخر بحثاً عن مستوى افضل من الحياة ...

لقد ارسلت اوروبا المزدحمــة الزائد من سكانها الى اميركا في صورة هذا المزيج الغريب من الاجناس واللغات والاديان ... كان هؤلاء المهاجرون يعيشون في اوروبا منفصلين ، ولكل واحد منهم عالمه الخاص الصغير ، وقلوبهم

جميعاً مليئة بالحقد المتبـــادل ولكنهم ذهبوا الى مكان جديد وجو جديد ، اختفت فيه معظم هذه الاحقاد القديمة ، وسرعان ما جاء نظام التعليم الاجباري الموحد فمحا الرواسب الوطنية القديمة . وبدأ الطابع الاميركي يظهر من خلاصة هذه البوتقة الغريبة وان بقي الانجلو سكسون القدامى يعدون انفسهم الطبقـة الارستقراطية ويستأثرون بالزعامة الاجتماعية .

وقد حاولت الولايات المتحدة ان تبقى بعيدة عن مشاكل ومؤامرات القوى الاوروبية المتنازعة وان تبقى اوروبا بعيدة عن الامريكتين الشمالية والجنوبية معاً .. ولذلك وضع الرئيس مونرو مبدءاً عرف باسمه فقد اعلن ان الولايات المتحدة لن تقبل تدخل اية قوة اوروبية في نصف الكرة الامريكي . وقـــد انقذ هذا التصريح جمهوريات امريكا الجنوبية من براثن اوروبا الى حد بعيد .

وقد كانت امريكا الجنوبية دائماً مختلفة عن امريكا الشمالية . ولم تفلح مائة سنة للقضاء على وجوه الاختلاف هذه . ففي حين نرى كندا تزداد شبهاً بالولايات المتحدة يوماً بعد يوم ، ولا نرى ذلك بالنسبة لجمهوريات امريكا الجنوبيـــة : فالحدود التي بين الولايات المتحدة والمكسيك تفصل نوعين من الناس والثقافة .. ونجد الى الجنوب ان اللغات الاسبانية حتى اليوم من اللغات الاولى في العالم ، لسبب واحد هو انتشارها في هذه البقعة من الارض ، وامريكا اللاتينية ما زالت تنظر الى اسبانيا على انها ام روحية لها ... وهناك لا يعلق المواطنون اهمية كبيرة على الاجناس كما يفعلون في كندا والولايات المتحدة وقد تزاوج الاسبان مع الهنود الحمر اصحاب البلاد الأصليين ، ومع الزنوج ايضاً ، واخرجوا عنصراً مولداً ...

وعلى الرغم من مرور مائة سنة من الحرية على هذه البلاد ، فانها فشلت حتى الآن في تحقيق الإستقرار ... فالثورات والديكتاتوريات العسكرية تتعاقب من حين الى آخر ، حتى إنه يصعب جداً تتبع الخطوط السياسية

الدائمة التغيير ... واقوى هذه الجمهوريات هي : البرازيل والارجنتين والمكسيك وشيلي وفنزويلا ...

ومنعت الولايات المتحدة – بتصريح مونرو – اوروبا من التدخل في شؤون امريكا اللاتينية . ولكن ما ان ازدادت ثراء حتى بدأت تمد بصرها الى الخارج بحثاً عن ارض بكر تتوسع فيها ...

وكان من الطبيعي ان يقع بصر الولايات المتحدة على أمريكا اللاتينية ... ولكنها لم تحاول ان تستولي على أي من هذه الجمهوريات بالقوة ، اي بالطريقة القديمة لبناء الامبراطوريات ، ولكنها ارسلت بضائعها اليها واستولت على أسواقها ...

كذلك وظف الأمريكيون رؤوس اموالهم هناك في السكك الحديدية والمناجم وفي اقراض الحكومات ... حتى انهم كانوا يقرضون الاحزاب في أوقات الثورات ! والذين وظفوا أموالهم على هذا النحو هم الرأسماليون الامريكيون وأصحاب البنوك ومن ورائهم كانت تقف دائماً حكومة الولايات المتحدة نفسها !

وشيئاً فشيئاً اصبح هؤلاء الرأسماليون يسيطرون على حكومات أمريكا اللاتينية بواسطة اموالهم التي يقرضونها اياها ويوظفونها في بلادها ، بل لقد صنع هؤلاء الرأسماليون بعض الثورات والانقلابات عن طريق تقديم النقود لهذا الحزب او ذاك . ولقد حدث فعلا ان ارسلت الولايات المتحدة جيوشها لنصرة حزب معين من الأحزاب ، بدعوى العمل على اعادة الأمن والنظام :

بهذه الطريقة اذن ، أصبح للرأسماليين الأمريكيين سيطرة قوية على تلك الدول الصغيرة في الجنوب ، فقد اداروا بنوكها وسككها الحديدية ومناجمها ، مستغلين ذلك كله لمصالحهم الخاصة . أي ان الولايات المتحدة استولت على ثروة هذه الدول . وهذا هو الشكل الجديد للامبراطوريات : امبراطورية

اقتصادية خفية تحكم وتستغل وتسيطر دون أي مظهر خارجي للحكم والاستغلال.
لجمهوريات امريكا الجنوبية – من الناحية السياسية والدولية – دول حرة مستقلة. ولا شيء يدل على انها فاقدة لحريتها... ومع ذلك فان الولايات المتحدة تستعمر معظمها استعماراً كاملا ...

وهكذا تطور الاستعمار على مر الايام، حتى أصبح استعماراً خفياً، اقتصادياً. فحين قضي على الرق، ثم على رقيق الأرض في عهد الاقطاع، حسب الناس ان الإنسان صار حراً. ولكنهم سرعان ما ادركوا أن الإنسان ما زال مستعبداً مستغلا، يحكمه الذين يملكون قوة المال، فبعد العبودية، ورق الارض، اصبح الناس عبيد الاجر وما زالت الحرية بعيدة عنهم.

وكذلك الحال بالنسبة للدول: فالناس يحسبون ان المشكلة كلها في الحكم السياسي الذي تفرضه دولة على اخرى، فاذا اقصينا هذا التحكم السياسي جاءت الحرية حتماً، وهذا غير صحيح، وكثيراً ما نجد اليوم دولاً حرة سياسياً... ولكنها خاضعة تماماً لدولة اخرى نتيجة للسيطرة الاقتصادية.

ان الإستعمار الاقتصادي هو أقل انواع الإستعمار كلفة بالنسبة للدول الاستعمارية، فهو لا يثير المتاعب التي يثيرها الاستعمار السياسي، ذلك لأن كثيراً من الناس لا يلحظونه ...

وتمتد الامبراطورية الأمريكية الخفية حتى تصل الى جزر الفلبين، مع العلم ان هذه الجزر كانت امريكا، نفسها، قد حررتها، في حرب خاضتها ضد اسبانيا ...

ومنذ عشرات السنين، تم شق قناة بناما، في تلك الرقعة الرقيقة من الأرض التي تربط بين الأمريكتين وقد وضع مشروع حفر القناة فرديناند دي ليسبس،

نفس الرجل الذي شق قناة السويس ، ولكنه لم يلبث ان اصطدم في بناما بمتاعب جمة منعته من اتمام عمله ، فاتمه الأمريكيون .

وتقع القناة في جمهورية بناما الصغيرة . ولكن الولايات المتحدة تحكم اليوم القناة والجمهورية على حد سواء . ورغم ان القناة بالغة الأهمية من الناحيــة التجارية ، الا انها ليست في مثل اهمية قناة السويس .

وهكذا مضت الولايات المتحدة تزداد قوة يوماً بعد يوم ، ويزداد انتاجها من الملايين وناطحات السحاب .

***

فشل العالم الرأسمالي

ان رجال المال والبنوك يلعبون في هذا العالم الحديث دوراً بالغ الأهمية حتى ملوك الصناعة فقد ذهبت ايامهم وأصبح رجل المال الكبير هو الذي يحكم الصناعة والزراعة والنقل ، وكل شيء ، حتى الحكومات نفسها ! ذلك ان الصناعة والتجارة مع تقدمها وازدهارها أصبحت تحتاج الى مزيد من النقد ، والبنوك هي التي تمول التجارة والصناعة بهذا النقد . فأغلب الأعمال الصناعية والتجارية في العالم تتم الآن بواسطــة الاقتراض ، والبنوك الكبيرة هي التي تتوسع في الاقراض او تقلل منه ، وتسيطر عليه في جميع الأحوال . رجل الصناعة ورجل الزراعة على السواء ، كل منهما مضطر للذهاب الى البنوك كي يقترض منه ما يستطيع ان يواصل به عمله ...

ولا يأتي ربح البنوك من فوائد هذه القروض فحسب ، بل من ازدياد سيطرتها تبعاً لذلك على الصناعة والزراعة ، فالبنك يستطيع ان يدمر رجل الاعمال ، ويستطيع ان يرغمه على قبول الشروط التي يمليهــا عليه ، بمجرد امتناعه عن

اقراضه ، او بمطالبته — في لحظة حرجة — برد ما عليه ، وهذا النوع من الضغط يقع في الحياة الداخلية لكل بلد وفي الحياة الدولية ايضاً ، فالبنوك المركزية الكبيرة تقرض كثيراً من الحكومات في بلاد مختلفة كما تقرض الافراد تماماً ... وبهذا الاسلوب يسيطر رجال البنوك في نيويورك ولندن على كثير من حكومات اميركا الوسطى والجنوبية .

ومن ابرز خصائص هذه البنوك ، انها تكسب في حالات الرواج والكساد على السواء ، فهي في حالات الرواج تشارك في الرخاء العام ، وتكسب من حركة النقود ، ومن اقراض المشروعات نظير فوائد مجزية . وهي في حالات الازمة والاقتصاد تقبض يدها على اموالها ولا تخاطر بها ... ولكنها تكسب من ناحية اخرى : ففي فترات الازمة تهبط اسعار كل شيء ... الاراضي والمصانع على السواء ... وتفلس كثير من المنشآت .

وهنا يستطيع البنك ان يتقدم ويشتري كل شيء ومن مصلحة رجال البنوك ان تكون ثمة دورات متتابعة من الرواج والكساد ؟

فرجال البنوك هم السادة في العالم الرأسمالي اليوم ، وهذا الامر هو الذي حدا بكثير من الناس حتى يطلقوا على هذا العصر اسم العصر المالي ... للتمييز بينه وبين العصر الصناعي الذي سبقه .

ففي حزيران ، مثلاً ، سنة ١٩٣٣ ، بذل العالم الرأسمالي محاولة للتعاون على حل المشاكل التي تواجهه . وعقد مؤتمر اقتصادي دولي في لندن ، تحدث فيه المندوبون عن الرعب الجديد الذي يغمر العالم وحذروا من ان فشل هـذا المؤتمر قد يؤدي الى تداعي البناء الرأسمالي كله !

وبالرغم من كل هذه الأخطار والتحذيرات ، فقد عجزت القوى الكبرى

عن التعاون ، وظلت كل واحدة منها تحاول ان تشق طريقها الخاص بها . وبذلك فشل المؤتمر ، واخذت كل دولة تواصل سياستها الاقتصادية الوطنية ...

كان من المستحيل ، مثلا ، بالنسبة لانكلترا ان تكفي نفسها ، ما دامت لا تنتج الطعام اللازم لها ، وما دامت الخامات اللازمة لصناعتها تأتيها من الخارج . ومن اجل ذلك عمدت انكلترا الى الاخذ بسياسة اقتصادية وطنية على اساس يشمل الامبراطورية كلها ، بقصد جعل الامبراطورية البريطانية وحدة اقتصادية واحدة او كتلة استرلينية واحدة . وبناء على هذه الفكرة عقدت انكلترا مؤتمراً اقتصادياً في اوتاوا .

ولكن حتى في هذه المؤتمرات ثارت الصعوبات ... اذ كانت كل من كندا واستراليا وجنوب افريقيا غير مستعدة لكي تفرط في اية مصلحة لها من اجل انكلترا . بل لقد كان على انكلترا ان ترضخ لبعض طلبات هذه الدول . وجعلت انكلترا الهند توافق رسمياً على معاملة البضائع الانكليزية بالرغم من المعارضة الشعبية الواسعة لهذا الوضع .

وفي نفس الوقت ، ظهرت بوادر خطر آخر يهدد صناعات الامبراطورية البريطانية وأسواقها ... اذ بدأت المنتجات اليابانية الرخيصة تتدفق في كل مكان ، وكانت رخيصة بحيث ان اي رسوم جمركية لم تكن كافية للحد من انتشارها ... ويعود هذا الرخص الى هبوط قيمة « الين » والى تفاهة الاجور التي تدفع للفتيات العاملات في المصانع اليابانية ، والى ان شركات النقل البحري اليابانية لا تأخذ الا اجوراً بسيطة ...

واذا فشلت الرسوم الجمركية في درء منافسة البضائع اليابانية ، عمدت انكلترا الى اغلاق بعض الأسواق اغلاقاً محكماً في وجه هذه البضائع ، او الى عدم السماح لها بالدخول الا بكميات محدودة .

ولكن اذا تم طرد البضائع اليابانية من الأسواق بهذه الطريقة ، فماذا يصيب صناعة اليابان الضخمة ؟ أما ان يتحطم كيانها الاقتصادي كله ، وأما أن تعمد الى خلق أسواق لها بالقوة .. وبذلك تنشب الحرب ...

ان مثل هذه المراحل أمور لا مفر منهـــا ... وخاصة في عالم المنافسات الرأسمالية وما يتركه هـــذا العالم من آثار في تطوير الحروب وتصعيد اهوالها ومخاوفها .

***

ما هي الفاشيه؟

كانت ايطاليا قبل نشوب الحرب العالمية الاولى في حالة اقتصادية سيئة .

وقد اشتبكت مع تركيا في حرب انتهت بانتصارها واستيلائها على ليبيا مما ارضى الاستعماريين فيها... ولكن هذه الحرب الصغيرة لم تحل شيئاً من مشاكلها الاقتصادية ... بل تفاقمت وبـــدت البلاد وكأنها على وشك ثورة عارمة ... فعمت الاضرابات الضخمة المصانع ولم يكن هناك من يمسك بزمام العمال ويخفف من حدتهم الا الزعماء الاشتراكيون المعتدلون الذين نجحوا في اخماد هـــذه الاضرابات ...

ثم جاءت الحرب، ورفضت ايطاليا ان تنضم الى حليفتها المانيا، وحاولت ان تقف موقفاً حيادياً بغية الكسب من التعامل مع العسكريين ... ولا شك ان هذا الموقف الذي ينطوي على المساومة مع هؤلاء والانضمام الى من يدفع اكثر ، ليس بالموقف الشريف . ولكن الدول تعـــودت ان تتجرد من الاخلاق التي يلتزم بها الأفراد وهي لذلك كثيراً ما تتصرف على نحو يخجـــل منه الافراد

العاديون وقد استطاعت انكلترا وفرنسا ان تدفعا رشوة اكبر، وبذلك دخلت ايطاليا الحرب الى جانبهما في شهر أيار سنة ١٩١٥ ، وكان الثمن معاهدة سرية تعطي ايطاليا قطعة من الأرض في آسيا الصغرى والبلقان ...

ولكن الثورة الروسية نشبت قبل ان تنفذ هذه الاتفاقية فضاعت الصفقة وهذا ما تسبب بسخط الايطاليين واثارة نقمتهم .

وقد ضاعف من سخطهم انهم خرجوا مغبونين من سوق المساومات في مؤتمر الصلح في فرساي ، بعد ان كانت الرأسمالية والبورجوازية الايطالية قد وضعت املها في المستعمرات التي سوف تظفر بها ، وتخفف من حدة الأزمة الايطالية المستحكمة ...

وساءت الأحوال في ايطاليا بعد الحرب اكثر مما ساءت في أي مكان آخر . وبدا ان النظام الاقتصادي يتداعى ، وان أنصار الشيوعية والاشتراكية يتزايدون . وكان شبح الثورة الروسية ماثلاً للعيان ...

كان هناك ، من ناحية ، عمال المصانع الذين يقاسون قوة الحياة ، ومن ناحية أخرى كان هناك الجنود المسرحون بعد الحرب بلا عمل . وحاول زعماء الطبقة المتوسطة ان ينظموا هؤلاء الجنود ليقاوموا بهم قوة العمال النامية ...

وفي سنة ١٩٢٠ بدأت الأزمة . اعلن اتحاد عمال المعادن الذي يضم نصف مليون عامل ، مطالبته بزيادة الاجور . ورفض هذا الطلب ، فقرر العمال ان يضربوا واختاروا نوعاً جديداً من الاضراب ، هو : ان يذهبوا الى المصانع دون ان يعملوا شيئاً ... وهذا نوع من الإضراب ابتكره النقابيون في فرنسا قبل ذلك بزمن . ورد أصحاب المصانع على ذلك باغلاق مصانعهم ... وهنا استولى العمال على المصانع وحاولوا أن يديروها على اسس اشتراكية ! ..

وكانت هـــذه الحركة تعني عملا ثورياً تماماً ... ولو استمر لادى اما الى

ثورة اجتماعية واسعة، وأما الى كارثة شاملة ... اذ لم تعد هناك فرصة لأي حل وسط ، وكان الحزب الاشتراكي في ذلك الوقت قوياً جـــداً في ايطاليا ، فالى جانب سيطرته على نقـــابات العمال ، كان يسيطر على ٣٠٠٠ بلدية ومجلس محلي وكان له ١٥٠ نائباً في البرلمان. والحزب اذا كان قوياً، شرعياً ، يمتلك مؤسسات كبيرة ، ويشغل مراكز هامة في الدولة ، فمن الصعب عليه جداً ان يكون ثورياً ، ومع ذلك فان هذا الحزب – رغم كثرة عـــدد المعتدلين فيه – ايد تصرف العمال .

ولم يشأ الحزب ان يتراجع ، ولكنه لم يجرؤ على المضي الى الأمام ، فاختار موقفاً وسطاً . وكما يحدث لكل من يتشكك ويتردد في اتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب ، تعرض الحزب لهزيمة ساحقة واضطهاد بالغ . وبسبب هـــذا التردد من الزعماء ، فشلت حركة العمال في الاستيلاء على المصانع .

وقد شجع هذا الفشل أصحاب المصانع وكشف لهم عن أن تقـــديرهم لقوة العمال وزعمائهم كان مبالغاً فيه ! فبدأوا يفكرون بخطة للانتقام ولتحطيم الحركة العمالية والحزب الاشتراكي نفسه .

وكانت أول قوة فكروا بالاستعانة بها ، هم جماعة المغامرين التي تكونت سنة ١٩١٩ ، من الجنود المسرحين، بقيادة بيتو موسوليني كانوا يدعونها بالفرق الفاشية وهدفها انتهاز كل فرصة لمهاجمة الاشتراكيين ومؤسساتهم ... كان يحطموا مطبعة احدى الصحف الاشتراكية أو يهاجموا مجلساً بلدياً أو تعاونياً يسيطر عليه الاشتراكيون ، وأخذ كبار الرأسماليين وابناء الطبقة المتوسطة الكبيرة يمولون هذه الفرق الفاشستية ويحاولون استخـــدامها في مقاومة الاشتراكية ، حتى الحكومة كانت تشجعهـــا من اجل تحطيم قوة الحزب الاشتراكي ...

كان موسوليني ، منظم هذه الفرق ، في ذلك الوقت شاباً مغامراً ، وكان

ابوه اسكافياً اشتراكياً مما جعل الفتى نفسه يشب وفي ذهنه كثير من الأفكار الاشتراكية . وفي صباه اصبح مشاغباً عنيفاً ، وطرد اكثر من مرة من عدة مقاطعات سويسرية من أجل دعايته الثورية . وكان يهاجم الزعماء الاشتراكيين المعتدلين بشدة على اعتدالهم ، وكان يدعو علناً الى استخدام القنابل وشتى وسائل العنف ضد الدولة .

وفي خلال حرب ايطاليا مع تركيا .. كان أكثر الزعماء الاشتراكيين يؤيدون الحرب ... ولكن موسوليني لم يؤيدها ... والقي في السجن عدة مرات لأنه استخدم وسائل عنيفة في معارضتها .

وقد اشتد في حملاته على الزعماء الاشتراكيين لتأييدهم هذه الحرب حتى نجح في اقناع الحزب بطردهم من حظيرته ، وأصبح هو رئيس تحرير الجريدة اليومية الاشتراكية « افانتي » ، وكانت تصدر في ميلانو ، ومضى يكتب فيها داعياً العمال الى العنف وهي دعوة كانت تقابل بالمعارضة القوية من الاشتراكيين المعتدلين ، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى ولبضعة شهور ظل موسوليني يعارض إشتراك ايطاليا في الحرب ويدعو الى الحياد ... ولكنه فجأة غيَّر آراءه جميعها ، وأعلن انضمامه الى الحلفاء ، وترك الجريدة الاشتراكية ، وأصدر جريدة يدعو فيها الى سياسته الجديدة، فطردوه من الحزب الاشتراكي . وبعد قليل تطوع في الحرب كجندي عادي وحارب في الجبهة الايطالية حتى سقط جريحاً .

ولما انتهت الحرب ، لم يعد موسوليني يسمي نفسه اشتراكياً ... بل أصبح شخصاً عائماً لا يربطه شيء ... لا يحبه الاشتراكيون ولا صلة له قط بالعمال وبدأ يهاجم الاشتراكية بل والدولة البورجوازية أيضاً ... هاجم كل شكل من أشكال الدولة وسمى نفسه بالفردي ، ودعا الى الفوضوية ... كتب في ذلك مقالات صريحة ... وأعلن بعدها مبدأ « الفاشية » .

وفي شهر آذا سنة ١٩١٩ ، جند الجنود المسرحين في فرق مقاتلة وكان اسلوب هذه الفرق هو العنف ، ولما كانت الحكومات تساعد هذه الفرق ولا تقاومها ، فقد زاد عدوانها وجرأتها ، وكثيراً ما كان العمال في المدن يشتبكون مع هذه الفرق في قتال منظم ويطردونها ... ولكن الزعماء الاشتراكيين قاوموا فكرة مقابلة العنف بالعنف ... ودعوا العمال الى مقابلة الإرهاب الفاشي بالسلم والهدوء ... أملا في ان تتعب الفاشية وتسكن ، ولكن قوة هذه الفرق ، على العكس مما ظنوا ، قويت وتزايدت ، بفضل أموال الأغنياء وتغاضي الحكومة ، بينما فقد الرأي العام روح المقاومة التي كانت لديه ضد هذه الفرق ...

وقد اتجه الفاشست بزعامة موسوليني الى الخلط بين دعوتين متعارضتين : الأولى انهم اعداء الإشتراكية والشيوعية ... وبذلك ضمنوا تأييد الطبقات الغنية ... ولكن موسوليني كان اشتراكيا سابقا وسطوره مملوءة بالشعارات المعادية للرأسمالية ، وهذا ما كان يعجب الطبقات الفقيرة... وهكذا اصبحت الفاشية مزيجاً يمكن تفسيره بأكثر من معنى ! فهي حركة رأسمالية تصيح بهتافات معادية للرأسمالية ، اما العمود الفقري لها فكان من الطبقة المتوسطة خصوصاً الصغيرة منها . كذلك جوانب هذه الحركة العمال العاطلين والذين تنظمهم نقابات . وبما انه لا شيء ينجح مثل النجاح ، كما حدث عندما استطاع الفاشست ان يرغموا التجار بالقوة مثلا على تخفيض الأسعار ، فكسبوا عطف رجل الشارع ، فقد انضم الى الحركة كل المغامرين وان ظلت بالرغم من ذلك لا تمثل من الناس الا اقلية بسيطة .

وهكذا ، بينما كان القادة الإشتراكيون يتشككون ويترددون ويتنازعون فيما بينهم ، وتقع الإنقسامات في حزبهم ، نمت قوة الفاشية ... وكان عجيباً ان يجمع موسوليني في حزبه جميع هذه التناقضات ، وان يقنع كل فئة بأن الحركة الفاشية هي حركتها ... الأغنياء يرون فيه المدافع عن املاكهم ،

ويعتبرون كلماته وشعاراته المعادية للرأسمالية مجرد سطور جوفاء لخداع الجماهير، والفقراء يعتقدون انها حركة ضد الرأسمالية ...

وبذلك مضى موسوليني يتكلم للفقراء يوماً وللأغنياء يوماً آخر ، وان كان في حقيقته صنيعة للطبقة الغنية التي تموله والتي تستخدمه لتحطيم قوة الاشتراكية التي باتت تهدد مصالحهم .

واخيراً ، في شهر تشرين الأول ، زحفت الفرق الفاشستية على روما . وحاول رئيس الوزراء الذي كان يعطف على هذه الفرق حاول ان يعلن الاحكام العرفية ، ولكن الملك نفسه كان قد اصبح في صفوف موسوليني... فرفض التوقيع على قرار اعلان الأحكام العرفية ، وقبل استقالة رئيس الوزراء . . ودعا موسوليني الى تشكيل الوزارة الجديدة !!

وفي ٣٠ تشرين الأول وصل الجيش الفاشستي الى روما وفي نفس اليوم وصل اليها موسوليني بالقطار ، ليصبح رئيساً للوزراء .

انتصرت الفاشية اذاً واستولى موسوليني على الحكم . ولكن لأية غاية ؟ وماذا كان برنامجه وسياسته ؟ ان الحركات الكبرى لا بد إن تقوم على اساس مذهب واضح ينمو ويتبلور حول مبادىء ثابتة واهداف ينظمها برنامج محدد . ولكن الفاشستية تنفرد بأن ليس لها مذهب تدين به ولا فلسفة تقف خلفها ...

وفي سنة ١٩٢٠ اعلن موسوليني :

« ان الفاشيين ، وان كانوا غير مرتبطين بمبادىء معينة ، إلا أنهم يسعون باستمرار نحو هدف واحد . ذلك هو رخاء الشعب الايطالي ! » ومن الواضح ان هذا الهدف لا يعتبر سياسة معينة . فانه من السهل على اي مخلوق ان يقول انه يسعى الى رخاء شعبه .

وفي سنة ١٩٢٢ ، وقبل الزحف على روما بشهر واحد قال موسوليني :

« ان برنامجنا بسيط جداً ... فنحن نريد ان نحكم ايطاليا ».

ومرة اخرى عاد يوضح هذه الحقيقة في مقال كتبه في الانسكلوبيديا الايطالية عن اصل الفاشية ... فقال انه لم تكن لديه خطط معينة للمستقبل عندما زحف على روما ! لكنه قرر فقط استغلال الازمة للقيام بمغامرته متأثراً في ذلك بما تعلمه ايام كان اشتراكياً ...

والفاشية وان لم يكن لها أي مبدأ أو عقيدة الا ان لها اسلوباً اكيداً في العنف والارهاب وانه ليكفي ان نعرف نظرتها الى التاريخ حتى نفهمها على حقيقتها .

أما رمزها فقد اخذ من رمز قديم كان يحمله الاباطرة الرومان القدامى وهو عبارة عن حزمة من العصي في وسطها بلطة ، وكانت هذه الحزمة تدعى في اللاتيني « فاسش » ومن هنا كان اسم الفاشستية ... وكذلك المنظمات التابعة لها فقد اخذت اسمها ونظامها من التشكيلات الحربية في روما القديمة .

والسلام الفاشستي هو نفس السلام الذي كان مستعملاً في روما القديمة برفع الذراع مبسوطاً الى الامام ...

اذاً فقد كان الفاشست ينظرون الى امبراطورية روما القديمة ويستلهمونها ! اي ان نظرتهم استعمارية ، وقد كان شعارهم « لا تناقش بل اطع فقط ! » وهو شعار قد يناسب الجيوش المحاربة ولكنه قطعاً لا يناسب الشعوب ! وكان اسم قائدهم موسوليني « الدوتشي » وهي الترجمة الايطالية لكلمة « دكتاتور » وكان زيهم الرسمي عبارة عن قميص أسود . ومن أجل ذلك عرفوا باسم « القمصان السود » .

ولما كان برنامج الفاشست الوحيد هو الحصول على السلطة فقد تحقق لهم هذا البرنامج فعلاً بتعيين موسوليني على الفور يدعم مركزه عن طريق تحطيم المعارضة وتدمير الخصوم . وبدأت موجة عالية من العنف والارهاب تجتاح ايطاليا . وقد استعمل العنف في التاريخ كثيراً ، ولكنه كان يستعمل دائماً مصحوباً بالاعذار والمبررات ، باعتبار انه ضرورة مؤلمة . اما الفاشية فانها لا تقف من هذا العنف موقف الاعتذار . ان الفاشيين يدعون الى العنف ويشيدون به علناً . وهم يمارسونه حتى ولو لم توجد أية مقاومة .

فقد لجأ موسوليني الى ارهاب اعضاء البرلمان عن طريق الاعتداء عليهم بالضرب المبرح ، فارغمهم بهذا الاسلوب على اقرار قانون انتخابي ... وكان ذلك بمثابة الغاء للدستور ... وحصل موسوليني على هذا الاقرار بأغلبية كبيرة ...

وقد كان غريباً حقاً ان يستمر الفاشيون في اعمال العنف غير المشروعة حتى بعد أن اصبحوا في الحكم ... يسيطرون على البوليس وشتى اجهزة الدولة ...

أجل ، فقد استمروا يزاولون العنف غير المشروع بعد أن أصبح من حقهم ان يمنعوا البوليس من التدخل . لقد ارتكبوا جرائم القتل والتعذيب والضرب وتدمير الممتلكات . وكان هناك اسلوب فريد تميزوا به ، انه ارغام المعارضين على تعاطي كميات فظيعة من المسهلات !

وفي سنة ١٩٢٤ اغتيل عضو البرلمان الايطالي « جياكو موماتيوتي » فاهتزت اوروبا كلها لهذا الحادث وكان كذلك احد الزعماء الاشتراكيين النافذين ... وذنبه انه وقف في البرلمان وهاجم الاساليب الفاشية خلال الانتخابات التي اجريت في ذلك الوقت وبعد خطبته هذه بأيام قليلة تم اغتياله وحوكم القتلة محاكمة صورية ، انتهت باطلاق سراحهم دون انزال أي عقاب بهم ...

كانت تعليمات موسوليني لاتباعه هي : ان يجعلوا حيـــاة المعارضين صعبة ومستحيلة ...

وقد نفذ الاتباع هذه التعليمات بأمانة . فكل شيء يجب ان يكون فاشياً .. ويجب ان يشغل الفاشيون جميع الوظائف .

وهكذا أصبح موسوليني الحاكم المطلق في ايطاليـــا ... ولم يكن رئيس الوزارة فقط ، بل كان في آن واحد وزيراً للخارجيـــة والداخلية والحرب والبحرية والطيران والعمل ! اي انه كان في واقع الحال مجلس الوزراء بأكمله .. وراحت اختصاصيات البرلمان تتحطم شيئاً فشيئاً حتى صار كالشبح ... اذ ان المجلس الفاشيستي الاعلى هو الذي كان يحكم الدولة ويحكم المجلس هذا موسوليني.

وقد لفتت انظار اوروبا الخطب التي القاها موسوليني عن السياســـة الخارجية . كانت خطباً غريبة انفجارية تهديدية لا تمت بصلة الى خطب الساسة والدبلوماسيين ورؤساء الدول . كان يبدو دائماً في موقف المتحـــدي ... يتحدث عن الامبراطورية التي ستبنيها ايطاليا والطائرات الايطالية التي سوف تملأ الجو ؛ وكثيراً ما لجأ الى تهديد جارته فرنسا دون ان يكون هناك سبب يدعوه الى ذلك . وكانت فرنسا بالطبع أقوى كثيراً من ايطاليا ، ولكن لا احد هناك كان مستعداً للحرب ، ولذلك تجاهلوا خطب موسوليني وأهملوها . واصبحت عصبة الأمم هدفاً رئيسياً لتهجماته واحتقاره ! بالرغم من ان ايطاليا كانت عضواً فيها ... ومع ذلك فقد سكتت عن عدوانه ...

وفي هذه الفترة تغير الكثير في ايطاليا ، وأصبح السائح يعجب بما يراه من مظاهر النظام في كل شيء ... وأصبحت روما من اجمل البلدان بما ادخل عليها من منشآت : وبات حلم الامبراطورية الرومانيـــة يتهادى امام أعين موسوليني !

وقد استمر هذا الارهاب حتى سنة ١٩٢٦، اذ ان موسوليني أصدر في هذه السنة عدة قوانين استثنائية ، اعطت الدولة سلطات هائلة للقضاء على المعارضة، فاصبح هذا الارهاب لا شيء يبرر وجوده . وفي ظل هذه القوانين الاستثنائية كان الناس يسجنون ويعاقبون ويطردون من بلادهم بالمئـــات ... وتقول الاحصاءات الرسمية ان عدد الذين حوكموا طبقاً لهـــذه القوانين في الفترة بين سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٢ بلغ ١٠٠٤٤ شخصاً ... كما خصصت ثلاث جزر قريبة من ايطاليا انفي غير المرغوب فيهم ، وهي جزر بونزا وفنتولين وترميتي ، حيث ان الأحوال المعيشية فيها كانت سيئة ولا تحتمل .

وقد استمر الضغط والاعتقالات حتى النهاية وعلى نطاق واسع . ومعنى ذلك ان المقاومة السرية والثورية ظلت ملتهبة في تلك البلاد رغم كل المحاولات التي بذلت لاخمادها .

***

القسم الخامس
في الأساليب الحربية

دوافع الحرب

تعتبر الحرب مسألة حيوية للدولة وقضية حياة أو موت للامة، وازدهار او خراب لها ... وهذا ما يدعو الى دراسة المسؤولية العسكرية باعتناء والاهتمام بها على ان تكون الدراسة شاملة ودقيقة معاً .

ان الحرب قضية خطيرة جداً وقد يكون السلاح معولاً للشر والخطر هو ان تترك في ايد رجال لا يدركون خطورتها وهذا ما يصبح مدعاة للهواجس والقلق .

ولذلك يتحتم علينا ان نعمد الى معالجة ظروف الحرب واعتباراتها معتمدين في ذلك خمسة عوامل رئيسية .

فأول هذه العوامل هو العامل الاخلاقي أو المعنوي او النفسي او القوة او الضعف للعهد الحاكم .

والثاني هو الطقس .

والثالث هو طبيعة الأرض .

والرابع هو القيادة .

أما الخامس والأخير فهو ما نسميه بالقواعد الفكرية وقواعد الايمان في نظام الحكم وفي معتقدات الناس .

فحين تتخطى الحملة العسكرية حدود البلد الذي تنتمي اليه ، فان جميع

المسؤوليات القانونية وغيرها تقع على عاتق القائد العسكري ، أما العامل الاخلاقي الذي اعنيه . فهو ذلك العامل الذي يضبط علاقة الامة بالمسؤولين عن الحكم ، ومدى الانسجام بين الطرفين ، أي بين الامة والدولة حتى يصح للشعب ان يرافق المسؤولية الحكومية ويؤيدها في الحياة وفي التضحية بالنفس ، بدون أدنى تردد أو خوف أو ارهاب .

فعندما تعالج الدولة الناس والرأفة والحكمة والعدل والانصاف والحزم ، فان الامة تضع كل ثقتها بالحكم ويتلاحم الجيش في عواطفه وارادته ويصبح الجميع (حكومة وامة وجيشاً) متحدين يخدم بعضهم البعض الآخر بصدق وأمانة وثقة واخلاص ... وهنا تتغلب سعادة الناس على مصاعبهم ويصبحون قادرين على تجاهل مخاوف الموت والاقدام على بذل التضحيات .

وأعني بعامل الطقس ، أي تفاعل العناصر الطبيعية... من قسوة برد الشتاء الى حرارة الصيف وتصريف العمليات العسكرية في مراعاة معقولة لأوضاع الطقس ...

وأعني بالحديث عن طبيعة الأرض هو صعوبة المسيرة العسكرية أو سهولة تحركاتها ... وهل ان المعارج والمداخل والمنعطفات الأرضية الجغرافية تساعد أو تعرقل العمليات الحربية ؟

فمن الضروري ، عند دفع الجنود الى ميدان القتال ، ان نكون على علم مسبق بطبيعة الارض وميادين الحرب وطرق الوصول اليها وحرية التصرف فيها أو التحايل على متاعبها ومصاعبها .

فاذا صحت التقديرات سلفاً للاتعاب والمسافات كان من الممكن ان نستعمل أفضل الطرق في مسيرة مباشرة أو غير مباشرة وفي منعرجات ومنعطفات أو في خط مستقيم .

ان القائد الذي يعلم مسبقاً التفاصيل اللازمة عن طبيعة الأرض ، يستطيع تقدير مزايا استعمال المشاة او الفرسان ، وحين يعلم سلفاً مصاعب الأرض يصبح في استطاعته أن يحسب لحجم القوة العسكرية اللازمة للعمليات الحربية ... وعندئذ يستطيع ان يلم الماماً دقيقاً بطبيعة الأرض لاختيار ميدان القتال وتوزيع قوته او تركيز تلك القوة .

أما عامل القيادة فأعني به مواهب القائد نفسه وما يتحلى به من إنسانية وشجاعة وحزم .

فهذه المواهب هي الفضائل التي يجب ان يتحلى بها القائد العسكري حتى يستطيع الجيش ان يطلق عليه اسم « الرجل المحترم » ...

ان توفر الحكمة عند القائد يسمح له بادراك الاوضاع وتطورها فيتحكم فيها كيفما شاء .

واذا توفر الاخلاص عند القائد فان الجند الذين هم تحت امرته لن تساورهم الشكوك على الاطلاق في تصرفات هذا القائد... اما اذا توفرت لديه أبداً الإنسانية وحسن الأخلاق فيصبح قادراً على ان يمارس المودة والعطف والانصاف بالنسبة للآخرين وأن يقدر حق التقدير مدى نشاطهم ومتاعبهم ... واذا توفرت الشجاعة عنده استطاع التحكم بالظروف المؤاتية للنصر من دون تردد او احجام .

ونأتي إلى توفر الحزم لديه الآن ، فنقول : عندئذ يسود النظام صفوف الجند لكونهم يدركون عدالة النظام ويتخوفون من العقاب .

اما إذا لم تتوفر الشجاعة الشخصية عند هذا القائد ، فإنه يمسي عاجزاً حتى على قهر شكوكه وبالتالي يعجز عن استنباط الأهداف والخطط العظيمة .

وننتقل الآن الى العامل الخامس والاخير وهو مجموعة العوامل الفكرية والتي منها الثقة بالنفس والثقافة وسعة الفهم للغاية والأهداف والمقدرة على استيعاب الفكر العسكري والطاقة على التنظيم وتوزيع المسؤوليات على الضباط وتدبير المؤن والامدادات والعتاد للجيش ، بما في ذلك العتاد الروحي ، حتى يفهم المحارب كيف تكون حالته في المعركة ، ولماذا يندفع اليها ويضحي في سبيلها ، وما هي الأهداف القومية والواجبات المقدسة التي عليه ان يصونها او يستعيدها من العدو المغتصب .

ولا اظن ان هناك قائداً عسكرياً لم يسمع بهذه المزايا . ان الذين يتحلون بها يكون النصر حليفهم أما الذين يفتقرون اليها فان الهزيمة ترافقهم دائماً .

ويخطر في بالي ، ازاء ما تقدم ، السؤال التالي :

أي الفريقين المتحاربين يملك التفوّق في مدارج التدريب في صفوف الضباط والجنود ؟

وعلى ذلك اجيب :

إذا كان الضباط غير معتادين على التدريب المتواصل الشديد والصحيح ، فان القلق والتخاذل سيعتريانهم في المعركة ... وكذلك الحال اذا لم يكن قادة الجيش يتمتعون بالمواهب والطاقات الشخصية والفكرية الاصيلة ، فاني على ثقة من أنهم سيصابون بشلل فكري ونفسي امام العدو .

ويجب ان نعرف أيضاً أي الفريقين المتحاربين أفضل في تصريف أمور الناس في بلده ، فلا الافراط في فرض القيود على الامة ولا الافراط في ضبط عثرات الناس دليل على الحكم الصالح .

ويمكنني أن ادرك سلفاً اي الفريقين المتحاربين سيكون النصر حليفه اذا تيقنت من معرفة الامور التالية :

أ – اذا اهتدى القائد العسكري بالدهاء الاستراتيجي فان النصر سيكون حليفه ... ويحق لهذا النوع من القادة ان يتسلم زمام الأمور ... أما اذا رفض فانه سيهزم ويجلب العار لامته ويجب اعفاؤه من منصبه أو طرده وتخليص البلاد منه بشتى الوسائل .

ب – فعندما يهتدي القائد بهذا الدهاء عليه ان يفتعل الظروف والأوضاع المناسبة للتنفيذ ، وان يمارس المرونة والتأقلم على تلك الأوضاع ، حتى يستطيع ممارسة التنفيذ المعقول لهذه الاستراتيجية .

والذي أقصده من كلمة « افتعال » هو أن يقوم القائد بالاستنباط الدقيق تبعاً لما يواجهه من حالات تمكنه من السيطرة على الموقف – وذلك في حالات الدفاع أو الهجوم أو التراجع او الاستحكام ، فلا يفقد التوازن العسكري في جميع ما يتعرض له من حالات طوارىء ... وهل الحرب ، في جميع مجالاتها ، الا حالات طوارىء ؟ !

ب – عليه أن يعلم ان جميع انواع الحروب تستند الى الخدعة ...

***

فحين تأنس في نفسك القوة ، تظاهر بالضعف من اجل ان تخدع العدو . واذا كنت تدبر للحرب فتظاهر أمام العدو انك لا تدبر لها ... واذا كنت على مقربة منه فاظهر على انك لا تنوي الإقتراب منه او الاشتباك معه . أما اذا كنت بعيداً عن مواقعه فافتعل من الضجيج والتمويه والحركة ما يوحي اليه بأنك قريب من مراكزه . حاول ان تغري العدو ببعض المغريات العسكرية أو السياسية ليستفزك على القتال اذا كنت فعلا تنوي قتاله ... واخيراً حاول ان تخلق الفوضى في صفوفه اذا كنت تنوي ضربه الضربة الساحقة ... ولا فرق اكان نوع تلك الفوضى التي تخلقها سياسياً ام عسكرياً ام نفسياً ... فالمهم هو وجودها في صفوفه .

اما اذا جمع العدو قواته فعليك انت ان تستعد بسرعة ... واذا كانت قوتك أضعف من قوته فتفادى الاشتباك معه الى ان يتم استعـــدادك لتتعادل قوتك معه او لتتفوق عليه من حيث القوة ... اياك والغضب ، فانه رذيلة يجب على جميع القادة ان يتفادوها ، فمن شأنها ان تخلق الفوضى في تفكيرهم وتفسد عليهم صحة التصرف .

ماذا يحدث اذا كان القائد ، بطبعه ، ميالاً الى الحماقة ، فلا شك انه يصبح فريسة الارتجال ... وتفتقر ارادته واخلاقه إلى الحزم . ثم ماذا يحدث اذا كان قائد العدو عنيداً وميالاً الى الغضب ؟ وهنا يتحتم عليك أن توجه له الاهانات وتثير فيه الغضب ... وهكذا تستطيع أن تستفز مشاعره وتزعزع طاقته على سلامة التصرف ... وعندئذ يمكنك ان تهاجمه بعنف وبحركة خاطفة حتى ولو لم تكن لديك خطة كاملة للهجوم... فتظاهرك بالضعف ضروري لتشجع عدوك الأحمق وتزيد من غروره وحمقه .

اذا كنت على استعداد للحرب ، ولم يكن عدوّك مستعداً فحاول أن تستفزه في مختلف نماذج الغزو على فترات متقطعة حتى يعتريه القلق فيجابـه تحدياتك وهو على غير أهبة الاستعداد للحرب ، فإذا ما انقضضت عليه أصبح فريسة سهلة لقوتك .

وكذلك اذا كان العدو مستريحاً ، فحاول دائماً ان تزعجه .

وتقع على القائد الأكبر مسؤولية تحصين المواقع التي يجب ان نستحكم فيها، في الجبال والأنهر والأودية والمناطق الصالحة للدفاع والاستحكام... ولنحاول، ونحن في فترة الاستجمام والدفاع والاستحكام هذه ، ان نعقـــد احلافاً مع مصادر وقيادات عسكرية خارجية قوية ... وهذا ما يترتب علينا القيام به في الشؤون الخارجية ...

أما في الشؤون الداخلية فعلينا أن نخلق مزارع عسكرية على التخوم التي

يهددها العدو في فترة استجماعنا للقوى الخارجية ، وترتيب طاقاتنـا العسكرية الداخلية .

ثم نعمد في المرحلة التاليـة الى اختيار صفوة ممتازة من وحـداتنا العسكرية لندربها تدريباً استثنائياً أو نستغل بعض المواقع الضعيفة في جبهة العدو لتقوم هذه الوحدات العسكرية الممتازة من قواتنا المسلحة في غزو تلك المواقع الضعيفة في جبهة العدو ، وحيث لا ينتظر العدو منا ان نضربه ، فيترك تحصيناته هناك ضعيفة أو مهملة .

ان مثل هذه الغارات التي ستقوم بها وحـداتنا العسكرية الممتازة ستخلق الفوضى في جبهة العدو – فإذا أسرع لينجـد موقعاً ضربناه في جهة الشرق ، فسيجد اننا ضربناه في موقع آخر في جهة الغرب– وفي نفس الوقت.. وهكذا تتبعثر يقظة العدو وتشتد متاعبه ، ونفسد عليه راحته ، ونشتت قوته ونحن في نفس الوقت نستجم ونعد الرجال والعتاد ونكسب الأحلاف الخارجية إلى جانبنا ...

حاول أن تزرع الشقاق في صفوف العدو اذا كانت وحـدته القوميـة متماسكة ... وأخلق له نزاعات أخرى إذا كانت وحدته القومية قلقة يعتريها الشقاق والفوضى .

حاول أن تخلق الخلافـات بين الحاكم ومن يتعاون معـه من الوزراء أو الحكام الآخرين الذين يتعاونون في معسكر العدو .

وحاول أيضاً ان تفصله عن حلفائه أو أن تحول بينه وبين الاستنجاد بحلفاء أقوياء قد يكون لهم مصلحة في معسكر العدو .

حاول، كذلك أن تغذي شكوكه في التعاون الداخلي مع حلفائه في المنطقة ، وفي التعاون الخارجي مع حلفاء اجانب ...

وعندئذ تستطيع أن تنزل به الضربة القاضية .

هاجم العدو حيث لا يكون مستعداً للهجوم . وحيث توجد أضعف تحصيناته ... واضربه حيث لا ينتظر منك الهجوم .

هذه هي مفاتيح الاستراتيجية العسكرية للنصر ... ومن غير الصواب ان نستوعبها كلها دفعة واحدة ... ومن المستحيل أيضاً أن نحصرها في اطار فكري ضيق .

فإذا جابهك العدو، ليكن جوابك عليه متناسباً مع التطورات التي تكتنف الأوضاع والظروف الطارئة ، واستنبط ما استطعت من أساليب لا تتقيد بغير الحكمة والدهاء واصول الفهم للمسؤولية العسكرية ، فكيف نستطيع اذن ان نحصر الإجهاد العسكري في اطار فكري ضيق ؟

أما إذا أوحت هذه الاعتبارات بأن احتمالات النصر مشكوك فيها أو غير متوفرة فمعنى ذلك أن الدراسات والتقديرات قد أدركت الحقائق وأوصت بما تستوجبه تلك الحقائق من تفادي الحرب أو تأجيلها أو أية وسيلة أخرى تساعد على تفادي الهزيمة .

فبدون الدرس الصحيح والإجتهاد الدقيق والمشاورة الصريحة لا تتم المسؤولية العسكرية ... ولا يصح الإجتهاد . ولا تتوفر القيادة الناجحة ولا يتحقق النفع القومي من الحروب .

فالشورى بين القادة هي مسؤولية أساسية في العمل العسكرى وضرورية من أجل تنمية الفكر والثقافة العسكرية والمسؤولية السياسية بين الدولة والامة .

●

كيف كانت تشن الحرب قديماً [١]

ان العادة في الحروب القديمة هو ان الحملة العسكرية تحتاج الى الف عربة مسلحة تجرها اربعة خيول . والف مركبة للنقل مسقوفة بغطاء جلدي تجرها اربعة خيول . وتحتاج الحملة كذلك الى مائة الف مقاتل في عتادهم الكامل .

كانت العربات التي تجرها الخيول تستعمل في الحروب القديمة للقتال والنقل. وكلا النوعين كانا خفيفي الوزن والحركة . وكانت عربات النقل تستعمل للمؤونة والذخيرة وملابس الجند وشتى حاجياتهم الاخرى . ويصف احد المؤرخين القدماء ان العربة التي تستعمل للقتال كانت تحمل ثلاثة ضباط . ويرافقها اثنان وسبعون جندياً من المشاة .

وهذه الوحدة العسكرية الصغيرة التي كانت ترافق عربة القتال ، كان يخدمها عشرة من الطباخين والخدم ، وخمسة عمال مسؤولين عن ترتيب ملابس الجند وتنظيفها وخمسة عمال آخرين لرعاية الخيول وتقديم العلف والماء لها . وخمسة عمال آخرين ايضاً لجمع الحطب وجلب المياه .

وكانت عربات النقل يخدمها خمسة وعشرون جندياً ...

وهكذا كانت تتكون الوحدة المقاتلة من ١٠٠ مقاتل (٣ ضباط و٧٢ جندياً وخمسة وعشرون جندياً لعربة النقل وخدمة الجند والخيول .

واذا اعتبرنا نفقات النقل لمسافة الف فرسخ من قاعدة الجيش في العاصمة او الوطن الى ميدان القتال ، لمثل هذه الحملة العسكرية الآنفة الذكر ، واضفنا

---

(١) شن الحروب الحديثة اقرأه في كتابنا الثاني (خطرات في الحروب الحديثة).

الى ذلك نفقات اضافية للترفيه والتسلية للجنود واجور الممثلين واجور المستشارين المرافقين للحملة ، ونفقات فرعية اخرى وتكاليف الصيانة للعربات والسلاح.. فستبلغ مجموع النفقات الف قطعة ذهبية في اليوم الواحد . وعندما تتوفر هذه النقود في ميزانية الدولة ، عندئذ يصح شن الحملة العسكرية ...

وعندما يسير الجيش الى ميدان القتال تصبح خزينة الدولة خالية. فالهدف الرئيسي للحرب هو النصر والغنيمة الاولى للحرب كذلك هي النصر .

فاذا طال امد القتال فان السلاح سيصاب بعطب او اضرار او نقصان ... وتصاب معنويات الجنود بالانحطاط الكبير المرير .

واذا اضطر الجند لمهاجمة المدن ، فان مثل هذا الهجوم يستنفـــذ طاقاتهم وهنا يفضل ان يجرى العبء العسكري في ميدان القتال نفسه.. اما اذا اشتبك الجيش في معارك عسكرية طويلة الامد ، فان الموارد العادية للدولة لن تكفي حاجات القتال.

وحين يضعف سلاحك لكثرة استعماله، وتصاب الدروع باضرار متلاحقة، وحين تستنفذ طاقاتك من كثرة القتال وقلة الاستجمام ، وحين يطير المال من خزانة الدولة لحاجات الحرب الطويلة ، فسيستغل الحكام في المناطق المجاورة هذا الارهاق الذي تواجهه انت ويخلقون لك المتاعب ، وحتى لو كانوا اصدقاء موالين لك .

إن أفضل السياسات العسكرية هي التي تتوخى الضرب للعدو بسرعـــة ساحقـــة . وأتعس تلك السياسات العسكرية هي التي تنزلق في حرب طويلة مرهقة ليست لها معالم واضحة ليوم النصر .

فقد يفتقر الهجوم إلى الأسس السليمة . ولكن مهما يكن هذا الأمر فاجعل هذا الهجوم خاطفاً وسريعاً تظهر نتائجه على عجل – إذا اضطررت لمثل هذا الهجوم .

وليس في تاريخ الحروب دولة استفادت من حرب مرهقة طويلة حتى وإن حالفها النصر في النهاية البعيـدة . ان الحرب أشبـه بالنارَ فالذي لا يقوى على الانتهاء من استعمال السلاح في أقصر وقت ، فستلتهمه النار .

وهكذا فان الذي لا يفهم ولا يعرف الأخطار المترتبـة عن شن الحروب واستخدام الجند، فإنه لا يفهم ولا يعرف أيضاً المزايا والمهارة في شن الحروب.. فبقدر ما يدرك القائد الأخطار الجاثمة في الحرب بقـدر ما يكون لمثـل هذا القائد حظوظ في الانتصارات .

فأهل المقدرة الصحيحة على شن الحرب هم اولئك الذين يستطيعون النصر الكامل في حرب قصيرة واحدة– لا في سلسلة من الحروب ترهق موارد امتهم من حيث الارواح والأموال .

تقدم الأمة للجيش ما تحتاجه عملياته العسكرية من رجال وعتاد . والامة ترهن مواردها البشرية والمادية لحاجات الحملة العسكرية اكان ذلك من أجـل الدفاع او من أجل ردع العدو ...

فواجب الجيش ، اذن ، هو أن يجلب النصر لامته ليعوّضهـا عن هذه التضحيات التي قدمتها الامة لحاجات الجيش ومهامه العسكرية .

وتقدم الامة، عادة، للجيش كل ما يطلبه من عتاد ورجال ومال وصلاحيات هادفة من ذلك فقط إلى تحقيق النصر .

فإذا فشل الجيش في تحقيق هذا النصر ؛ فمعناه قـد عجز عن حمل الأمانة القومية ، وعجز عن القيام بمسؤولياته ... وأصبح لا يحق له أن يطالب الامة بمزيد من التضحيات ، لأنه خذلها وجلب على نفسه وعليها الخسائر التي تحتاج الأمة الى زمن وجهد طويلين لاستعادتها أو تعويضها بأموال جديـدة وانفس جديدة وطاقات جديدة ومعنويات جديدة .

وكانت الأمم في العصور القديمة لا تعطي لقادة الجيش في حملاتهم العسكرية ، أكثر من حاجاتهم الضرورية ، التي تعرف نفقاتها الكاملة سلفاً ... وتترك الامة حرية التصرف للجيش في مهامه العسكرية في تلك الحملات . وتقـــدم له كل العتاد والأرزاق ونصف الرواتب والتعويضات للقواد والضباط والجند . على أن ينالوا النصف الثاني عند عودتهم منتصرين على العدو .

أما اذا أرهق الجيش امته بالنفقات والخسائر المرة تلو المرة فان نتيجة ذلك تكون خسائر مزدوجة :

- خسائر الجيش نفسه .

- وخسائر الأمة في مواردها وطاقاتها .

ويصبح كلاهما فقيراً في الطاقات والموارد والمعنويات . ويصبح مصير الأمة اتعس من ذي قبـــل ويسهل على الأعداء انتهاك حرماتها واذلالها أو اختلاس مزيد من مصالحها وأرضها وحرياتها .

فإذا تجاوزت حاجات الجيش من المؤونة والعتاد أكثر من الف فرسخ (وهي أبعد المسافات في الحروب القديمة) ولاكثر من الزمن المقدر للحملة العسكرية ، فان الجيش نفسه سيجوع وستجوع الأمة أيضاً ...

وباستطاعة الجيش أن يعتاش من غنائمه في أرض العدو البعيدة ... ولكن عيش الأمة في عقر دارها يصبح صعباً جـــداً ، بعد أن قدمت للجيش أكثر مدخرها من المال والأرزاق والأنفس والطاقات .

واذا لم يحقق الجيش النصر على العدو سريعاً ، فان الأمة ستصاب بمختلف الوان الضعف والأذى والضائقات .

ان اسعار الحاجيات ترتفع بسرعة عنـــدما يدق النفير العسكري وتعلن

الطوارىء ويجري الإستعداد للحرب ويخوض الجيش المعارك ، وبارتفاع الأسعار تتضاءل ثروة الأمة وأول من يصاب منها بالأذى هم المزارعون والفقراء وأصحاب الدخل المتواضع وذلك ان الدولة ستقوم بتحصيل المزيـــد من الضرائب ... وأغلبية الناس هم من أصحاب الدخل المتواضع الذين لا يمكنهم دفع المزيد من الضرائب الحكومية .

وكذلك ترتفع الأسعار حيثما يشن الجـــند الحملات العسكرية ، فالجيش المقاتل لا يعبأ عادة بالاقتصاد وبالنفقات فترى الناس يتهالكون عليه للاستفادة من نفقاته في المناطق التي يمر بها أو يخيم فيهـا ... وهنا يتم الجشع والاستغلال والثراء غير المشروع .

وهكذا يعتري الطاقات العامة للامة أنحسار متواصل في الأموال والأرزاق والأخلاق وتتبعثر مدخرات الأجيال السابقة من الجهد والميراث ، وتزداد الامة ضعفاً ... وكل ذلك يعود الى سبب التقصير أو العجز او سوء التدبير للمسؤولية العسكرية ...

ان أستياء الرجال والنساء سيزداد اذا ما طال أمد الحرب دون أن تكون هناك بادرة تبشر بنصر قريب ... فبعضهم يريد الزواج والاستقرار والبعض الآخر يريد عودة المعيلين له من زوج او ابن أو والد ...

والقيادة العسكرية والسياسية الحكيمة في مناخ الحروب هي القيادة التي تتعمد أن تثبت الطمأنينة في نفوس الأمة باعلامها عن الحقائق أو أكثر الحقائق حتى تنمي في معنويات الامة صخور الثبات والصبر ، بدلاً من تشويه الحقائق او الصمت عنها، ففي ذلك مدعاة الى قلق الخواطر ، وازدياد الاستياء وتضاؤل المعنويات وفقدان الثقة بين الشعب والقيادات .

ان الأعباء على الحكومة في حالات الحرب اعباء جسام ، فهي مسؤولة عن

حاجات الجيش المقاتل وحاجات الأمة معاً . فحاجات الجيش وحده ، ابان الحروب ، تستهلك مقدار ستين بالمائة من ميزانيـــة الدولة ... وما يتبقى لا يكفي عادة لحاجات الامة والخدمات التي على الحكومة أن توفرها للناس وحتى في ظروف التقشف .

لذلك ، فان على القيادة العسكرية الحكيمـــة أن تحاول ما استطاعت تحقيق النصر السريع ، أو سد حاجات الجيش من غنائم يظفر بها هذا الجيش نفسه فوق أرض العدو ... ويعيش على مواردها ابان زحفه ومعاركه لتحقيق النصر الكامل .

ان طناً واحداً من القمح يظفر به الجيش الزاحف من ارض العدو ، يعادل عشرين طناً من قمح الوطن في مجموع النفقات ... فقمح الوطن يحتاج الى نفقات النقل والصيانة من ارض الوطن الى معسكر الجيش، أما القمح المأخوذ من ارض العدو فهو لا يحتاج الى شيء من هذا على الاطلاق .

وكلما ازدادت مصاعب النقل وفساد الرقابة في المسؤولية العسكرية كلما ازدادت هذه النفقات المرتفعة .

ونتساءل الآن لماذا يتعمد الجندي المقاتل ذبح جنود العدو ؟ ونجيب بأن ذلك يعود الى حنق المقاتل والثأر .

أما السؤال الثاني فهو :

لماذا يستولي الجند على الغنائم من أرض العدو ؟ والجواب هنا واضح جداً : فالجندي يود النصر لنفسه والمجد القومي لأمته وهدم طاقات العدو وموارده لئلا يهدد مرة اخرى سلامة الوطن . ويجب الا تكون الغنائم المادية هـــدف النصر او الحرب .

ان على الجنود المنتصرين في جميع المقاطعات والمدن أن يأخذوا كل الاموال والكنوز التي في خزائن الدولة المهزومة والأرزاق التي في مستودعاتها وان يوزعوها على جنود وضباط الجيش المنتصر ... فإن ما تريده الامة هو أرض العدو لتحكمها ويتوارثها المواطنون جيلاً بعد جيل .

كما أن معاملة الاسرى بالرفق واللين هي أمر ضروري في العرف الحربي . فمن الضروري أن يعامل الجيش المنتصر الأسرى من جند العدو معاملة رفق وشهامة ، حتى يستطيع استخدامهم لحاجته في خدمة جيشه وطاقاته ولمآرب سياسية اخرى .

وهذا يعني أن يزداد الجيش المنتصر قوة فيكسب معركة ويكسب انصاراً في حسن المعاملة للاسرى وما في جعبتهم من معلومات عن معسكر العدو وطاقات لمعونة الجيش على مزيد من الانتصارات .

كما انه يعني دمج قوات الجيش المنتصر وعتاده بالعتاد الذي غنمه من معسكر العدو واسراه . فيزداد الجيش المنتصر قوة على قوة .

إن الهدف من العمل العسكري هو النصر العاجل لا رياضة الحرب الطويلة المرهقة ... لذلك فإن القائد العسكري الذي يجيد فهم مسؤولياته ، ويجيد معرفة الفكر والفنون العسكرية ، فانه يقوم بخدمة مزدوجة لامته : أي الدفاع عن كرامتهم وحقوقهم ...

فالاعتبارات والشروط والدقة التي كان الأقدمون يراعونها في اختيار القواد العسكريين ، هي نفس الشروط والإعتبارات والدقة التي تراعى ، هذه الأيام ، عند اختيار القواد العسكريين أيضاً ...

●

استراتيجية الهجوم

إن أفضل السياسات العسكرية وأمهر أساليب الحرب هو ان يفوز الجيش بأرض العدو كاملة وفي أدنى حد من الخراب والدمار .

فان فوزه بهذه الأرض وهي مدمرة يسودها الخراب يعتبر ادنى مراتب الفوز في مدارج السياسة والمهارة العسكرية . فليست الحرب مجرد مباراة في قتل الانفس وتخريب الديار ، بل انها قهر العدو والغنيمة التي تؤول الى الجيش المنتصر .

ان الافضل هو أن تأسر قوة العدو من أن تحطمها... وأن تقبض على فرقة عسكرية أو فصيلة او وحدة صغيرة بكامل عتادها من ان تحطم ذلك العتاد...

وليست اصول البراعة العسكرية ان يكسب الجيش الانتصارات على العدو في مئة معركة ، بل البراعة هي ان يخضع العدو ويقهره في أقل الخسائر وأقصر المعارك ...

ولذلك ، فاسمى مهام الحرب هو ان تهاجم تدابير العدو وتفسد عليه خطته الاستراتيجية .

فالعبقرية والدهاء تكمنان في حل المشاكل قبل وقوعها ، وكذلك في الحرب ، فإن الرفعة في الدهاء هو ان تفسد وتقهر طاقات العدو قبل ان تزداد خطورتها وعليك اذاً ان تهاجم تدابير العدو في مستهل صياغته .

أما الدرجـــة الثانية في البراعة العسكرية فهي المقدرة على تفكيك عرى الصداقة والاحلاف التي للعدو من انصاره في المنطقة أو في خارجها.. وعليك الا

تتركله المجال كي يتحالف أو يستجمع انصاره. أعمد الى درس محالفاته وصداقاته مع جيرانه أو مع دول خارجية ، درساً دقيقاً ... فإذا كان للعدو احلاف وجيران لا شك في ولائهم له وفي حسن علاقته هو بهم – فالمسألة تصبح خطيرة في طاقات مثل هذا العدو ... وبحيث لا يمكن قهره بسهولة .

وإذا كان العدو على اختلاف مع انصاره وجيرانه ، وكانت صداقاته مع الدول الخارجية قلقة ، فإن هذا النوع من العدو يسهل افتراسه والتغلب عليه ..

وتأتي في المرتبة الثالثة من البراعة العسكرية مسألة الهجوم المباشر على العدو .

وفي هذه الناحية لنا آراء وتحذيرات هامة يجب الأخذ بها :

– إن القائد الذي يعتمد على السلاح وحده ، فهو قائد تعس ولا محالة في ذلك .

– إن المعارك الحربية لها مسؤوليات تتجاوز المقدرة على فن القتال وحده ، بل تحتاج الى الفكر الأصيل أيضاً ...

– إذا عجزت عن أفساد تدابير العدو وهي لا زالت في المهد ... وإذا عجزت عن عرقلة تحالفه وروابطه مع أنصاره وحلفائه ، ومن هم ذوي المقدرة على أسعافه ... عندئذ فقط ، اشحذ سلاحك لتضمن النصر ...

* * *

إن أسوأ السياسات العسكرية هي محاصرة المدن أو الدول من كل الجهات .

وعندئذ ترى الجبان يستأسد وترى الضعيف يتفانى في التضحية وتبذل المدينة أو الدولة المحاصرة من جميع جهاتها جهود الجبابرة لفك الحصار .

عليك أن تترك للمدينة او الدولة منفذاً ما حتى يجنح العـــدو إلى نوع من الاسترخاء... فلا يستأسد ولا يتفانى ولا يجند كل جهوده وطاقاته على الاستماتة لفك الحصار... فمحاصرة المدن او الدول حصاراً دقيقاً من كل الجهـات هو عمل مرهق للجيش المحاصر ... ومدعاة لحرب طويلة مرهقة له أيضاً ...

إن حصار المدن هو آخر ما يجب أن تلجأ اليه القيادة العسكرية البارعة... بعد أن تستنفذ كل ما في فنون الحرب الأخرى من وسائل لقهر العدو والانتصار عليه .

والذي يدفعنا إلى هذه الارشادات هي الأسباب التالية :

أ – إن الحصار يستوجب عدة أشهر لنقل المعدات وبناء الاستحكامات وجلب السلاح الثقيل الضروري لدك الأسوار وبناء المتاريس حول المدينة من كل نواحيها ... ونصب قواعد الضرب الثابتة أو المتنقلة حول كل أسوار المدينة أو حدود الدولة المحاصرة .

ب – وقد يحـدث أن ينفذ صبر قائـد الجيش الذي فرض الحصار من كل الجهات على العدو ، فيصدر أوامر لوحدات جيشه بأن تتسلق أسوار المدينـة المحاصرة زرافات ووحدانا من جهة واحدة أو من مختلف الحدود .

ومما لا شك فيه أن مثل هذا الهجوم على اسوار المدن ، وحدود الدولة من كل النواحي سيواجه تحديات دفاعية قوية من المدينة أو الدولة المحاصرة التي لا بد وأنها بنت استحكامات دفاعية على كل الأسوار وكل الحـــدود . ولذلك تزداد خسائر الجيش الذي يتعمد هدم الأسوار أو تسلقهـا المرة تلو المرة قبـل اغتصاب المدينة .

فالماهرون في صنعة الحرب هم اولئك الذين يخضعون العدو بلا خسائر كبيرة

عليهم ، ويحتلون مـدنه بلا محاصرتها بلداً بلداً ... ويسيطرون على دياره بلا معارك طويلة مرهقة .

ان أمهر القادة العسكريين هم اولئك الذين ينتصرون في أساليب الدهاء الاستراتيجي وليس في شن المعارك الضخمة .

ليس من الضروري أن يكون هدفك الإستيلاء على كل ما تحت السماء من أرض . بل يجب أن تتواضع في الأهداف وتختار الأهم منها . فلا ترهق جنودك بالقتال المتواصل . ولا تستنفذ طاقات بلدك على تمويل الحرب ...

ان هذه هي استراتيجية الهجوم الصالحة ، كما ان إستعمال الجند تحت امرة القائد في ميدان القتال ، هو فن قائم بحد ذاته .

فإذا كانت قوتك في الرجال تعادل عشرة أضعاف قوة العدو فحاول أن تطوقه من جميع نواحي معسكره ولتأخذ منه ، بهذه الطريقة ، أكبر عـدد ممكن من الاسرى والغنـائم . وإذا كانت قوتك خمسة أضعاف قوة العـدو ، عندئذ هاجمه .

فانا إذا كان تحت أمرتي خمسة أضعاف ما عنـد العدو من قوة فاستفزه إلى الجبهة وافاجئه بضرب مؤخرته وافتعل ضجيجاً في القطاع الشرقي من جبهـة القتال لاضرب العدو من جهة الغرب .

أما اذا كانت قوتك ضعـف قوة العـدو فحاول أن تشطر معسكره إلى شطرين .

أما إذا كانت نسبة القوة العسكرية اثنين لواحد لصالحك انت على العـدو وكان هـذا التفوّق الذي تملكه انت غير قادر على أن يعطيـك السيطرة على

الموقف العسكري فعليك ان تلجأ إلى المراوغـة وتناوش العدو في طرف من قوته ليلحق بك فتنقسم قوته إلى طرفين .. ثم اضربه بعد أن تشطره .

واذا عجز القائد من شطر قوات الأعداء ، فسيعجز القائد عن استنباط ما هو أدهى من فنون الاستراتيجية ...

وإذا تعادلت قوتك العسكرية مع قوة العدو فاشتبك معه إذا شئت . ففي حالة تعادل القوى فان امهر القائدين سيقرر مصير المعركة .

أما إذا كنت اضعف عدداً من عدوك ، فكن مقتدراً على الأقل وجرّب أن تنجح في عملية الإنسحاب والتراجع التكتيكي .

وإذا كان عدد الجنود في معسكرك يقل عن العـدد في معسكر العـدو ، فحاول مؤقتاً ان تعطيه فرصة الهجوم المفاجىء على معسكرك ...و اكبر الظن انك تواجه ناحية ضعيفة في معسكر العدو لتفاجئه انت بالهجوم ... عنـدئذ استجمع كل قوتك وأعزم على النصر وسيكون النصر حليفك .

أما إذا كان العدو قوياً وأنا ضعيفـاً ، فسأتفادى الإشتباك معه وانسحب مؤقتاً ، لكي أتفادى بعثرة الجهد والقوى واستنبط اسلوباً حاذقاً للهجوم أو لاستحكامات الدفاع .

وفي مثل هذه الحالات فان الذي يقرر النصر النهائي هو مهارة القيـــادة وثقافة الجند وتجاربهم في فن القتال وفي رواسخ المعنويات... وإذا كان معسكري وقواي في نظام معقول ومستوى حسن ، وكانت قوات العدو ينقصها النظام ورفعة المستوي ... واذا كنت انا نشيط الفكر والحركة وكان خصمي بليداً مشوش الفكر وفاقد الحركة الماهرة ... عنـــدئذ سأشتبك معه في القتال على الفور .

أما إذا لم تتعادل قوتك مع قوة العدو في كل مقاييس القوى ، فكن قادراً على الأقل في أن تتفادى اعطاءه الفرصة للاشتباك معك .

فإن أية خسارة تلحق بك ، وأنت أضعف من عدوك ، فهي غنيمة للعدو القوي .

***

فالصغير لا يقاس بالكبير ولا الضعيف بالقوي ولا القلة بالكثرة في مستويات الرجال والعتاد والكفاءة والاستعداد ...

إن الجيش هو حامي الديار . فإذا كانت طاقته ومهارته في الحماية ضعيفة ، فستصبح الديار ضعيفة ، أما اذا كانت طاقة الجيش على الحماية معقولة وماهرة وأمينة على المسؤوليات فستصبح الديار عزيزة ومطمئنة ينتشر فيها الازدهار... ويعود كل ذلك إلى حسن اختيار رئيس الدولة لقائد الجيش وان الامة التي تسيء اختيار قادتها ستصاب لا محالة بالخراب .

حالات عدم الاختيار ومساوئه :

هناك ثلاث حالات يجلب الحاكم فيها على الجيش الخراب او يجلب فيها الجيش على الحكم وعلى الامة الخراب .

ا — حين يأمر الحاكم الجيش بالاندفاع بينما الأوضاع العسكرية تستوجب الاستحكام أو التراجع أو اتخاذ موقف دفاعي أو حين يأمر الحاكم الجيش بالتراجع بينما الحاجة هي في الهجوم .

فالعمليات العسكرية ، اهجومية كانت أم انسحابية ، فهي تقع على عاتق القائد العسكري وحده ويتحكم فيها حسب الاوضاع والظروف والدراسات

الدقيقة . فليس هناك اسوأ من أن يتولى الحاكم قيادة الجيش من مكتبه في العاصمة .

٢ – حين يكون الحاكم جاهلاً بالشؤون العسكرية ثم يصر على التدخل فيها.. أو كان عارفا بالشوؤن العسكرية وجاهلاً بمسؤوليات الحكم ...

ففي كلا الحالتين تصاب قوة البلد العسكرية بأشنع أنواع الأذى والضعف والبلبلة .

فالجيش لا يضبطه تصرف العابثين ...

أما فيما يتعلق باصول التصرف وبالمسائل القانونية والمراسيم والاجراءات العسكرية ، فإن مسؤوليات القوات المسلحة للدولة تضبطها قوانين عسكرية خاصة مصنوعة خصيصاً للقوات العسكرية المسلحة ، وعليها أن تلتزم بها في أغلب المحاولات .

فإذا جرى تطبيق السياسات والاجراءات والالتزامات التي يسير عليها العهد السياسي الحاكم تطبيقاً لازماً على القوات المسلحة أيضاً فسيصاب اهل الصنعة والمسؤولية العسكرية بالفوضى وبلبلة الفكر ومشاكل عقائدية واجرائية لا حصر لها .

فقد يكون أساس الحكم في البلد منصفاً ورحيماً وعادلاً وذا عقيدة سياسية باهية يؤمن العهد الحاكم بها وينفذها استناداً الى ايمانه العقائدي .

ولكن هذا الالتزام اذ اصلح الشؤون الأمامة والسياسة فإنه لا يصلح لشوؤن العسكرية .

فالقيادة والمهارة والشؤون والمسؤوليات العسكرية تحتاج الى المرونة

والتأقلم والاستنباط العاجل لكل ما يقتضيه الموقف العسكري من تطورات وحاجات ومفاجآت واجتهادات .

والجيش لا يلتزم بأي ضوابط سوى تلك التي في فن الحرب ومسؤولية الدفاع القومي – لا الالتزام بأهواء العهد الحاكم اذا كان ذلك العهد ملتزماً بعقائد غير مألوفة أو متجانسة مع مسؤوليات الدفاع القومي في اطاره العسكري على الأقل .

٣ – حين يكون العهد الحاكم جاهلاً بطبيعة الموقف العام الذي يؤثر ، اخيراً كان ام شراً ، في المسؤوليات العسكرية الصرفة ... فيملي التعليمات ويسخر الجيش لاغراض قد لا تتناسب مع الوضع أو مع حرية التصرف لأهل المسؤولية العسكرية في الميدان وهم يجابهون عدواً له اجتهاداته الخاصة في الكر والفر .

وتحدث الطامة الكبرى اذا بعث العهد الحاكم رجالاً من أعوانه جاهلين باصول المسؤولية العسكرية ، ليتولوا الادارة أو التوجيه والتسلط على القوات العسكرية للبلد.. . عندئذ نرى الفوضى تنتشر ويعم الاستياء في صفوف القوات المسلحة ويختل التفكير الصحيح في الشؤون والمسؤوليات وتفسد طاقات الجيش وتشوش خواطره وتشل كفاءاته ومهامه العسكرية الصحيحة ، كما تكثر فيه الشكوك والدسائس : فهناك من يطمع بالنفوذ على الحكومة ، ومن يدافع عن نفوذه في الجيش .

وعندما يصاب الجيش بالدسائس والشكوك الداخلية فان حكام الدول المجاورة سيخلقون المشاكل لهذا البلد ... ولهذا قيل « ان الجيش الذي يركب الدولة او العكس بالعكس سيركبه العدو » فالجيش الذي هو فاسد في داخله لن يولد منه سوى ذرية متلاحقة من الهزائم .

وكذلك فالجيش لا يأمره قائد يطمع في قهر حكومته بدلاً من قهر العدو..

فإذا حدث وطمع الجيش في كلا المسؤوليتين: أي مسؤولية الحكم ومسؤولية الحرب، فانه سيصبح كعود الطرب المقطوعة اوتاره، لا يصلح لعزف الألحان لأنه طبل اجوف.

حالات التنبؤ بالنصر العسكري

هناك خمس حالات يصح فيها التنبؤ بالنصر العسكري.

الحالة الاولى: هي التي تدرك المسؤولية العسكرية فيها صلاحية الظروف الراهنة لشن الحرب او تأجيل القتال حتى تحين ظروف اخرى اكثر ملائمة من الظروف الراهنة.

الحالة الثانية: هي ادراك القيادة ادراكاً صحيحاً واميناً اذا ما كان الموقف يتطلب اعداد جيش كبير او صغير. اذ لا نفع في ان ترهق موارد الامة بالاعداد لجيش ضخم باهظ النفقات متشعب المسؤوليات وفيه حشد كبير من الانصار او من الاتباع الذين لا نفع منهم في العمل العسكري... عندئذ ينتفخ بطن الجيش وتتعطل طاقته على الحركة السريعة. كما تنشغل قيادته بمسائل ادارية او سياسية لا صلة لها بالمسؤوليات العسكرية وهي مسؤوليات جسام تستنفذ منها كل ما عندها من مواهب وطاقات واجتهادات في صنعة القتال، بحيث لا يجوز للقيادة ان تشغل نفسها بمسؤوليات او مسائل اخرى.. اذ ان هناك حالات لاتستطيع فيها الكثرة من الجند ان تحارب القلة في معسكر العدو.

وهناك حالات ايضاً يستطيع فيها الجيش القليل العدد ان يسيطر على جيش عدو له اكثر في العدد والسلاح .

فالنصر هو للقادر على الحركة السريعة والذي لا يرهق نفسه باكداس من المسؤوليات الجسام التي لا علاقة لها بصنعة الحرب انما تخلق للجيش مكامن ضعف وليس مصادر قوة .

الحالة الثالثة : هي ان تتوفر في صفوف الجيش وحدة هدف ووحدة حال ومصير ... فاعتبارات الطقس في فصول السنة اقل اهمية من اعتبارات الطبيعة الجغرافية لأرض القتال . وكلاهما اقل في الاعتبارات العسكرية من اهمية العلاقة البشرية في صفوف الجيش .

فالجيش المتحالف والمؤلف من عناصر متشعبة في الانساب والولايات والرئاسات والمذاهب ، هو جيش تعيس مهما كان ضخماً في عدد الرجال وكمية العتاد العسكري .

فقد تتحد هذه العناصر على مستوى الجند في خصومتها المشتركة للعدو . ولكن قيادات جيش او رئاسات الولايات التي ينتمي اليها الجيش المتحالف قد لا تكون متحدة ... فاعلم ان هذا النوع من الجيوش لا نصراً يرجى منه .

وليست المسألة هي في توحيد هذه القيادات المتطاحنة تحت امرة قائد واحد بل المسألة هي في وحدة الفكر والغرض والعقيدة التي يؤمن بها الجيش المتحالف كله .

الحالة الرابعة : هي ان تكون يقظة العدو وحذره ، اقل من يقظة الجيش المتحدي له . ان الاعتماد على مظاهر القوة العسكرية وحدها ، اصيلة كانت ام مزيفة هو خطأ كبير . فالقوة الفعلية تستند الى امرين : الاستعداد العسكري واليقظة لمواطن الضعف والقوة معاً في طاقات العدو .

الحالة الخامسة : هي حرية التصرف لقيادة الجيش في مسؤولياتها العسكرية دون العبث السياسي من جانب الحكومة ... ويشترط في ذلك ان تكون القيادة العسكرية مدركة لمسؤولياتها المهنية في فنون الحرب .

فمن مسؤولية الحكم الأولى أن يحسن اختيار القيادة العسكرية ومسؤولية هذه القيادة أن تجيد فن القتال للدفاع عن البلد ضد العدو الخارجي أو ردعه عن العدوان أو استخلاص ما اعتدي عليه سابقاً من حرمات البلد ، واحباط ما يدبره العدو من مآرب عدوانية .

أمـــا قضايا السياسة المحلية للحكم وشؤون الأمن الداخلي للبلد فتلك مهمة منوطة بقوات الأمن الداخلي ... والتي تتألف من رجـــل الخفر والحراس والشرطة المحلية .

فإذا تدخـــل الجيش النظامي في المشاكل الداخلية للبلد ، وهي مشاكل سياسية عادة ذات علاقة بالصراع الأناني بين الطامعين في الحكم ، فان هذا التدخل من جانب الجيش النظامي سيخلف في صفوفه الشقاق والمتاعب والحزبية والفساد .

فمهمة الجيش هي الدفاع عن كرامة كل الأمة أمام اعدائها الأجانب ، وليس التشيع لفريق على فريق آخر لأن الجيش يتكون من كل الفرقـــاء وفي الأمة الواحـــدة .

فالحكومة الأمينة على مصالـــح الامة ، وعلى سلامة العهد الحاكم نفسه ، يجب ان تعلم كيف تختار الشخصيات العسكرية لقيادات الجيش على أساس المقدرة والكفاءة والمواهب العسكرية ، وذلك قبل أي اعتبار آخر .

والشخصية العسكرية ذات الموهبة و المقدرة والامانة في مسؤولية الدفاع ، تحرص اشد الحرص على ان تدرس الفكر السياسي كجزء متمم للثقافة والعلوم

العسكرية ليعرف العسكري حدوده من المسؤولية السياسية للحكومة .

والفكر السياسي شيء مختلف عن الصنعة السياسية ، التي تتطلب نوعاً آخر من الشخصيات غير الشخصية العسكرية ... فاذا قـام المحترفون للصنعة السياسية بالتدخل في مهام الصنعة العسكرية ، أو العكس بالعكس ، فسيحيق الفساد بالنظام الحكومي وبالنظام العسكري معاً .

وفي مناخ الأزمات فان سلامة البلد هي في أن يعمل ويعلم كلا النظامين ، بما لكل منهما من مسؤوليات ومواهب وطاقات ... واقسى واشد الأزمات في حياة الامة ، هو مناخ الحروب . لذلك يجب أن تتلاحم المواهب السياسية مع المواهب العسكرية في كل مراحل الاستعداد والتنفيذ للحرب . ومثل هذا التلاحم لا يتم الا بمراعاة الدقة في ترك المسؤولية العسكرية لاهلها والمسؤولية السياسية لاهلها ...

تحتاج الحرب في مرحلة الاستعداد وفي مرحلة القتال، تحتاج الى مائة تعديل وتبديل في كل خطوة تستوجبها المعرفة والمهارة والفنون العسكرية .

فإذا هم فرضوا على القيادة العسكرية أن تكون مطية للطامعين في المجد السياسي ، فسيصبح الوضع أشبه بمن تكفل باطفاء الحرائق ، ولكنه في نفس الوقت مضطر الى ان يستشير أو ينفذ أوامر عجيبة تصدر اليه من مصادر ليست خبيرة أو مسؤولة أو موجودة معه لاطفاء الحريق ...

فتشابك الصنعة السياسية بالصنعة العسكرية هو أشبه بمن يتكفل ببناء طريق عمومي ولا يستطيع ان يمنع المارة من استعمال الطريق أبان عملية البناء... كما أن المارة لا يريدون أن يتريثوا حتى يتم بناء الطريق ليصبح صالحاً للاستعمال الدائم ... وفي مثل هذه الحالة ، فان بناء الطريق لن يتم ... فاذا فرضنا على القـائد العسكري قيوداً لا علاقـة لها بشؤون الدفـاع العسكري، أو استبـاح هذا القائد لنفسه أن يتكفل بمهام ليست من

أصول مهنته ومسؤوليته العسكرية ، بينما العدو الماكر يتربص الشر بالبلد ، فان سلامة البلد تزول مناعتها أمام مكر العدو .

وهنا يصبح الرجل العسكرى ، والحالة هذه ، مثله مثل الصياد الذي يرى الطيور الجوارح تنقض عليه ... فلا يستطيع اقتناصها ، حتى ولا الدفاع عن نفسه أيضاً ، لأن يديه مقيدتان بحبال معقدة والسهم والقوس الى جانبه عاطلان عن الاستعمال ...

هذه هي مجمل الحالات الخمس التي تؤثر خيراً أم شراً في حالات النصر العسكري .

لذلك أقول :

اعرف عدوك واعرف نفسك في آن واحد ... فأنت لو حاربت في مئة معركة فانك ستظل قادراً على الثبات والصمود ...

واذا كنت قليل الدراية بشؤون العدو وكنت واسع الدراية بشؤون نفسك ، فحظك في النصر أو في الهزيمة يتعادل مع حظ العدو .

اما اذا كنت جاهلاً بشؤون العدو وشؤونك الخاصة أيضاً ، فتأكد بأنك ستظل محاطاً بالمهالك في كل معركة ...

ان هذا النوع من العسكريين لا يصلحون لشيء ابداً ويطلق عليهم اسم قطاع الطرق ... كما انهم جماعة لا تعرف شرف المهنة العسكرية ولا تكترث بعار الهزيمة على الاطلاق .

●

التشكيلات العسكرية

كان المحاربون الأشداء في الزمن القديم ، هم الذين يستجمعون القوة والمهارة والمناعة في طاقات القتال وينتظرون تصدع المناعة في بعض طاقات العدو ليضربوه .

تعتمد المناعة العسكرية قبل كل شيء على المقدرة الذاتية وعلى معرفة نفس المقدرة عند العدو أيضاً .

واستناداً الى هذا، فان المناعة العسكرية أو المهارة في الاستعداد العسكري هو أن تخلق المناعة والقوة والشدة في طاقاتك ، وذلك قبل أن تسعى لهدم المناعة في طاقات العدو .

فأنا كقائد، سأعمل قبل كل شيء ما انا مسؤول عنه في معسكري، واتأكد تماماً من قيامي بجميع الواجبات اللازمة له ... أما واجباتي في القضاء على العدو ، فتلك رهينة بامور لست متأكداً تمام التأكيد منها .

فالاستعداد الأول والأهم هو الاستعداد الذاتي ... فباستطاعة العسكري ، احياناً ، ان يعرف كيف السبيل إلى النصر . ولكنه قد لا يعرف كيف يحققه .

فالمناعة العسكرية هي المقدرة على الدفاع ... بينما النصر العسكري يعتمد على مقدرة الهجوم .

ويضطر الجيش احياناً إلى الدفاع وان لم تكن طاقاته غير مكتملة بعد ... مع ان الجيش يمارس الهجوم عندما تكتمل طاقاته .

نرى الخبراء في فنون الدفاع يخفون استحكامات الجيش المدافع كما لو كانت كنزاً في بطن الارض ... ولذلك فالهجوم يستوجب المقدرة المزدوجة : حماية النفس أولاً والحاق الأذى بالعدو والانتصار عليه في نفس الوقت ... كما يعتمد خبراء العمليات العسكرية الدفاعية على قوة التحصينات الطبيعيـــة (كالجبال والأنهار والسفوح) او التحصينات المفتعلة – وكل ذلك من اجل منع العدو ان يفلح في شن الهجوم ... ويعتمد خبراء العمليات العسكرية الهجومية عادة على مواسم الطقس ومزايا طبيعة الارض الصالحة للهجوم ... أو لاستجلاب العدو واستفزازه ووضعه في مواقع جغرافية مزاياها افضل للجيش المهاجم .

وتستوجب المقدرة على الهجوم المهارة أيضاً في التمويه على العـدو وافساد محاولاته لمعرفة الاستعداد للجيش المهاجم واتجاهاته وتجمعاته وعتـاده وتنوع مراكزه وتشعب خططه للهجوم .

اما الرجل العسكري الذي يريد أن تتحقق له سبل النصر ، سهلة كانت ام صعبة ، في نفس النظرة والمعايير والعواطف التي يراها غير العسكريين ، فهو رجل يفتقر إلى مسؤوليات الحرب . فالنظرة والصنعة والمسؤولية والسلوك العسكري تضبطها امور لا تضبط بقية المواطنين .

هناك فرق كبير بين القائد الخبير المقتدر ، وبين القائـــد صاحب الحظ السعيد ... فإذا أصاب القائد العسكري حظاً حسناً في المعركة ضد خصمه ، فالنصر الذي يتولد عن هذا الحظ السعيد لا يكون معياراً لكفاءة القائد الظافر أو مبرراً لتوكيله بقيادة حملات عسكرية اخرى اذا لم تتوفر لمثل هذا القائد شروط المهارة والحكمة والمعارف اللازمة للقيادة العسكرية .

كان القدماء ، عادة ، يعتبرون النصر العسكري السهل على الأعداء معياراً للمهارة والكفاءة في القيادة التي حققت ذلك النصر ... ولكن اسباب هذه

السهولة هي في الجهد الدقيق والمهارة الفائقة والاستعداد الصحيح والفكر العميق وبعد النظر والكفاءة المهنية والخطط التنفيـــذية التي وضعها سلفاً قائد الحملة وأعوانه من الخبراء والمستشارين .

ان هناك الكثير من المعارك الظافرة التي حققها القائد العسكري بسهولة وسرعة ... ولكن مثل هذا النصر لا يكسبه عند الناس صفة الحكمة والكفاءة والمهارة والبسالة .

كما ان اكثر الناس العاديين لا يـــدركون كيف ان النصر يتحقق في بعض الحالات قبل بدء المعركة .

لذلك لا ينال القائـــد المنتصر الثناء من الناس العاديين على دهائه ومهارته وشجاعته وحكمته ، لأن مثل هذا القائد لم يلوث حد السيف بالدماء الغزيرة لكي يرغم العدو على الهزيمة والطاعة والخضوع لارادته .

واحياناً نرى الناس العاديين يعتبرون الحرب مجرد سفك الدماء وحسب ...

اما القائد الممتاز فهو ذلك الذي يكسب النصر دون ان يرتكب الاخطاء.. ومعنى ذلك انه يضمن سلفاً تنفيذ كل خطوة من خطواته ... وبذلك يعتبر ان معسكر العدو حلال له ... يصول ويجول فيه ويحقق النصر لذاته ...

عليك ان تقتصد في الجهد الذي لا نفع لك منه عندما تضع خطة المعركة... فلا تقم بحركة لا فائدة منها ... ولا تتخذ خطوة استراتيجية لا لزوم لها .

فالقائد المحنك هو الذي يدبر مواقفه بحيث لا يترك للاعداء منفذاً اليها ... وينتهز كل فرصة ليفرض تدابيره على العدو ... والجيش الظافر هو الذي يربح المعارك بثقة في النفس تسند الى الاستعداد الدقيق الشامل، سلفاً، بحيث يكسب الفوز على العدو فكرياً قبل بدء المعركة .

والجيش الذي يبتغي النصر يحارب من اجل النصر — لا من اجل المجد فقط ولا كذلك من اجل دفع أذى العدو — بل من اجل قهره والقضاء على شروره مرة واحدة إذا امكن . وهذه المسؤولية تستوجب سعة الجهـــد في التفكير والاستعداد والتخطيط سلفاً لشؤون الدفاع وشؤون الهجوم ، وكل ذلك يتم في بعد نظر ودهاء وليس في التسرع والارتجال .

***

اعلى المراتب العسكرية :

ان اعلى مراتب القيادة العسكرية هي :

— سعة الفكر ووضوح الرؤية .

— التجانس ووحدة الحال بين القائد والجند .

— الدهاء الاستراتيجي العميق .

— التخطيط البعيد النظر .

— العلم بأحوال الطقس وطبيعة الأرض .

— المقدرة على فهم العوامل الانسانية ابان المعارك الدموية .

وهكذا نرى ان القائد الذي يميل الى الثقة الزائفة بنفسه ويخطىء في تقدير طاقاته وطاقات جيشه وبلده وطاقات عدوه ، ولا يجيد استيعاب الحقائق ولا يحسن التأقلم والمرونة وسرعة الخاطر والمقدرة على الاستنباط. فيهمـــل الفرص المؤاتية ويعتريه التردد والقلق وتساوره الشكوك في اشد ساعات الحرج والحاجة

إلى العزم والحزم ، فهو قائد لا يستطيع ابداً ان يضمن النصر او يضع خطة صالحة للتغلب على العدو .

ان هذا النوع من القواد يميل دائماً الى تصديق الانباء والتقارير المرفوعة اليه دون ان يدقق في صحتها ، او يرفض تصديق انباء وتقارير صحيحة لأنه متقلب الفكر مصاب بالقلق النفسي وفاقد لمتانة الاعصاب والحزم اصلا ..

كثيراً ما يحاول أن يكون كالثعلب الماكر الذي في طبيعته الخبث ، ولكن الخبث شيء مختلف عن الدهاء الذي يستند الى المعرفة والتجارب الشخصية والمقدرة الذاتية ... ان مثل هذا القائد يبعثر قوة الجيش من دون سبب ، على اعتبار ان الخبث يتوجب ذلك ، وان كانت الحكمة واصول المسؤولية وحاجات المعركة وفنون الحرب والدهاء الاستراتيجي توحي بعكس ذلك ...

فما الفرق بين هذا القائد العابث الاهوج وبين الراعي الغبي الذي يدفع بقطعانه من البقر والنعاج الى مكامن الذئاب والنمور ؟ ...

وليست صنعة الحرب ان تنسف قوانين السماء أو تعبث في الأرض فساداً أو ان تتحكم برقاب العباد من الجنود في القوات المسلحة الذين يتولى القائد امرتهم ، او من السكان العزل من السلاح الذين يتولى الدفاع عنهم .

وهناك قوانين وعرف وشرائع تضبط الحرب... فمقاصد القتال العسكري هي صيانة النظام والقانون ، لا الفتك بالشرائع . فالجيش الذي لا يتحلى قواده وجنده بالوازع الوجداني والانساني وما تفرضه الشرائع والقوانين من حلال او حرام سيجلب على نفسه الهزيمة آجلا ام عاجلا ، وان حقق لنفسه انتصاراً هنا او انتصاراً هناك ...

فصنعة القتال العسكري ليست وحشية لا تعرف سوى البطش والاذى ،

بل هي تضحية فردية وجماعية تتوخى صيانة الشرائع وضبط الأمن والقانون ولهذا نرى ان اصول فن الحرب لا تستند الى البطش والاذى ... بل الى قواعد من الحذق والاقتصاد في الخسائر ، وكل هذا كي يستعيد الجيش حقوق الأمة في أقصر وقت ودون ان يتكبد خسائر فادحة ...

وننتقل الآن الى بعض فنون الحرب فنوجزها في خمسة ، ولعلها اهم ما يجب ان يعرفه القائد :

أ — تحديد فسحة الميدان .

ب — تقدير حاجات القوات المسلحة المعركة .

ج — محاولة دقيقة لمعرفة اقصى المكاسب واقصى الخسائر للجيش المحارب .

د — مقارنة ذلك بما يمكن للعدو ان يكسبه او يخسره .

هـ — الأمانة في فهم مجالات النصر او فهم مجالات الهزيمة سلفاً .

ويحتاج تحديد فسحة الميدان الى دراسة طبيعـــة الارض التي تدور عليها المعارك . وتكون تقديرات حاجات القوات المسلحة في عملية الجمع والطرح على اساس المهارة في العلوم العسكرية لا على أساس مشيئة القائد نفسه بدون تقدير للعواقب او مقارنة لما جرى في المعارك السابقة ... ويحتاج هذا كله الى ثقافة عسكرية وليس الى مجرد الشجاعة او الحزم او العناد او الدلال الشخصي عند بعض القواد ...

فنحن عندما ندرس طبيعة الأرض، علينا مراعاة امرين : هما نوع جغرافية الميدان وبعد المسافة عن القاعدة الرئيسية للجيش المدافع ...

وفي كلا الحالتين فان الجيش لا بد له من القيام بحساب دقيق لانواع المصاعب

او التسهيلات الجغرافية في ارض العدو اذا كانت الحملة العسكرية للهجوم او في أرض الوطن اذا كانت الحملة العسكرية للدفاع .

وهذا يستوجب الحصول على معلومات دقيقة عن الطرق وعن الجبال والوديان وموارد الماء او عدم توفر هذه الموارد ... وحتى الاستعلام عن العشب للخيل وللبهائم الأخرى التي تستعمل لنقل معدات الجند ... وقد حلت اليوم المشكلة بوجود الناقلات الآلية مما يستدعي تأمين المحروقات في الدرجة الاولى .

ويستوجب الامر كذلك ، الحصول على معلومات وافرة عن طاقات العدو في كل مرحلة من مراحل القتال، ومعرفة مستوى المعنويات في حقوقه ومستوى العتاد ... وكل هذا قبل بدء المعركة او ابان احتدامها . كما ان معرفة مستوى المعنويات في صفوف الجيش القومي نفسه الذي يقاتل ، هي من الامور الضرورية جداً .

ولا نفع في قيادة تعتمد على نفسها اعتماداً زائفاً ، لا يستند الى فنون الحرب وواجبات المعرفة الدقيقة المتواصلة عن كل هذه الاوضاع والتقلبات ...

ولا تكمن المسألة في ضخامة عدد الجيش او عدد الرجال... اذ ان الضخامة لا تعني شيئاً ، بل ربما كانت عبئاً على الجيش اذا لم تعرف القيادة والجند كيف يجيدون فن القتال .

ولا يقاس الوزن الشخصي للقائد بشهرته او نفوذه الشخصي ، بل بمهارته العسكرية .

كما ان الحرب نفسها لا تكترث بالشخصيات . بل انها ، من طبيعتها ، تستوجب المعرفة وتفرض على القيادة السعي المتواصل لتقدير كل لحظة من لحظات الموقف .

فقد يكون الجيش مالكاً لاقوى العتاد وعلى رأسه قائد مشهور ، وفجأة يركب الغرور هذا القائد فيعتبر نفسه رباً صغيراً متناسياً ان الرب الاكبر هو ادرى من الجميع بكل الحقائق .

ولذلك فالقائد الذي يتصف بالتواضع وفي البحث عن المعرفة ، سيجلب عليه نقمة اله السماء ويجلب على الجيش وعلى الامة مختلف اللعنات .. ففي الحرب قوة طبيعية مثلها مثل مجرى المياه في الانهر والبحور ...

ان طبيعة المياه هي كونها لا تجري من اسفل الى اعلى ... انما عكس ذلك ، اي من اعلى الى اسفل ، فإذا اقيمت السدود في وجه هذه المياه الجارية ، ولم يتركوا لها منافذ معقولة لتتسرب منها في مجراها الطبيعي نحو المصب النهائي لذلك المجرى ، فان مثل هذه السدود قد تصمد شهراً او فصلاً وربما سنة ... واخيراً تتداعى قوة السدود ولا تعود تقوى على ضبط المياه ... فيتحطم السد الكبير وتندفع المياه جارفة كل شيء ولن يقوى على ضبطها اي مخلوق كان .

وهكذا الحرب . فان فنونها تستوجب اولاً ان يسلك الجيش مسالك طبيعية معقولة في منعرجات سهلة تتناسب مع طبيعة الارض . فقد تحتاج المعارك الى اقامة السدود من اجل الدفاع ، او جمع القوة او المياه في مكان واحد – كإنشاء سد مثلاً – من اجل الهجوم لتسليطها فجأة على قوات العدو وسحقه بقوة لا يقوى على ضبطها العدو – كالماء الهائج المندفع من سد تحطم فجأة ووراءه خزانات هائلة من المياه المتصاعدة .

ان كل ذلك يحتاج الى دهاء وحكمة وتوقيت وتعمية انظار العدو عن الاستعدادت لما وراء السدود العسكرية .

* * *

حول تنظيم الطاقات

ان التكفل بأمر اعداد كبيرة من البشر او الجنود لا يختلف عن التكفل بادارة اعداد صغيرة منهم ... فمراعاة التنظيم واجبة وضرورية في كلا الحالتين.

وتستوجب مهام الحملة العسكرية ، اول ما تستوجب ، تحديد المسؤوليات للقيادات ومساعديهم ... ثم تحديد القوة والطاقات للجند من مختلف الرتب . فالمألوف في العمليات العسكرية القديمة ان يراعى الترتيب التالي :

– الجندي فرد له سلاح معين ووظيفة معينة . فإذا ما اتحد الفرد مع الفرد اصبحا زوجاً لهما سلاح معين ووظيفة معينة .. وباتحاد الزوج مع فرد ثالث يصبحان ثالوثاً ... ولهذا الثالوث وظيفة خاصة منوطة به ... كما ان الثالوث مع الزوج يؤلفون وحدة مقاتلة ، لها قوة خاصة بها ايضاً .

وتشكل الفصيلة من خمس وحدات تتكون كل وحدة من خمسة افراد .

وتتألف من فصيلتين وحدة مقاتلة تختلف في مهامها وطاقاتها عن مهام وطاقات غيرها من الوحدات العسكرية وهكذا دواليك الى ان يتم التشكيل العام لقوة الجيش .

وكل وحدة عسكرية تعلو على من دونها من الوحدات في القوة وفي المهام وفي عدد الجنود . وفي اصول التدريب وفي عملية القتال وفي شتى فنون الحرب . وليس المهم ان يكون الجيش ضخماً في العدد ، بل يجب أن يكون دقيقاً في التنظيم وتوزيع المهام على مختلف الوحدات . ومسؤولية القيادات في جميع هذه الوحدات العسكرية الصغيرة فالاكبر والأكبر هو ان تقوم كل وحدة بالمهام

الملقاة على عاتقها وتنفذ كل ما اعدت له من سلاح وتـــدريب ودور في الهرم الكامل للقوة العسكرية ...

ولا تختلف المهارة العسكرية واصول مسؤولياتها سواء كان الجيش مؤلفاً من الف جندي أو عشرة آلاف او مئة الف ...

فالذي يسوس القلة على أساس التنظيم الصحيح ، يستطيع ان يسوس الكثرة على نفس ذلك الاساس ايضاً .

فالمسألة هي مسألة الدقة في اصدار الاشارة او في ضبطها حسب حاجات الحركة العسكرية اثناء التدريب او اثناء القتال .

وقد تتبعثر وحدات الجيش هنا وهناك ، في محتشدات القوة العسكرية ، وذلك على مسافات بعيدة لا يربطها ولا يضبطها رقيب يرى ويسمع كل شيء .

وهذا مستحيل بطبيعة الاشياء .

ولكن ما تتلقاه من اشارات وما تلتزم به من أوامر وما تسمعه من ابواق النفير للهجوم أو للتراجع والمصطلح عليها بين مختلف الوحـــدات في النظام العسكري ، هذا فقط هو الذي يربطها ببعضها البعض ويضبط قوتها الشاملة . ولا يسمح هذا الضبط للشجاع ان يفسد الخطة العسكرية اذا اراد هو التضحية . ولا يسمح ، كذلك ، للجبان بالتراجع ... فكلا الاثنين مقيـــد بالاشارات العسكرية وبالأوامر وبالقوة الشاملة لكل وحدات الجيش ومهام كل وحدة في معترك القتال او الاستعداد للقتال .

اما في حالات الدفاع امام هجمات العدو مثلا ، فالجيش المدافع يتغلب على قوة العدو في الصمود والثبات بفضل مهارة القيادة في توزيع المهام على وحدات الجيش المدافع وذلك فيما بين الوحدات العادية والوحـــدات الاستثنائية .

فالوحدات العسكرية التي تواجه العـدو على خط القتال وجهاً لوجه هي القوة العادية ... أما الوحدات العسكرية التي تتولى ضرب اطراف العدو من جناحيه او من الخلف ، فهي التي تعرف بالوحدات الاستثنائية ... ومن قواعد المهارة والدهاء العسكري هو ان توهم العدو بأن وحـداتك العسكرية العادية هي الوحدات الاستثنائية والعكس بالعكس .

ومن ضروب المهارة العسكرية ايضاً هو ان يعتمد القائـــد تسليط اقوى وحداته على اضعف وحدات العـــدو ... كما تسلط المطرقة على السندان ... فعليك اذن ان تركز أقوى ما عندك على اضعف ما عند العدو او على أضعف نقطة من معسكر العـــدو من حيث الحراسة واليقظة لتحركاتك العسكرية . واستعمل اقوى سلاح عندك ضد اضعف سلاح عند العدو وكل ذلك يجب ان يتم في غفلة عن استعداده ويقظته ... حتى ولو كان سلاح العدو الذي تضربه اكثر من سلاحك ، فإن الضربة المفاجئة ستقضي على قوته وكثرته وتشل حركته... وقد تم الاتفاق ، عادة ، في العمليات العسكرية ان يجري استعمال الوحـدات العادية منها للاشتباك العـام مع العدو ... اما استعمال الوحدات النهائية او ما يعرف بالوحدات الاستثنائية فهو فقط لتمزيق قوى العدو وذلك تمهيداً للفتك النهائي به .

اما مواهب القائد العسكري في الاستفادة المعقولة لطاقات الوحـــدات العسكرية الاستثنائية فانهـــا ولا شك طاقات هائلة اذا احسن استعمالها في الوقت المناسب، بحيث تصبح مثل مجرى النهر العظيم ، مهما جرى في منعرجات الأرض ، يميناً ويساراً ، شمالاً وجنوباً ، فان قوة انـــدفاعه لا يقف طويلا في طريقها اي حاجز .

وكذلك مقدرة الوحدات الاستثنائية على الحركة فهي مقدرة هائلة ، شرط ان يحسن تدريبها ، واستعمالها من جانب القيادة ... فالوحدات هذه واذا ما توفرت لها الشروط الآنفة الذكر ، فانها قادرة على الاتيان بالمعجزات الخوارق.

وتصبح هذه الوحدات اشبه بنوطة موسيقية تتألف من خمسة اوزان فقط ولكنك تستطيع ان تصنع منها قوالب لا حصر لها من الانغام والاناشيد ... كما ان نفس الوحدات تصبح اشبه بالاركان الأساسية التي تصنـــع منها كل الألوان ... وهذه الأخيرة، في اساسها، هي خمسة فقط – الأبيض – الاسود– الاخضر – الأحمر – الأصفر – واذا احسنت مزيجها ، استطعت ان تستخرج منها انواعاً لا حصر لها من الألوان الاخرى التي تودها .

اما في المعارك العسكرية ، فالاركان الاساسية للقوة العسكرية تتألف من عنصرين رئيسيين فقط ، هما :

– الوحدات العادية .

– والوحدات الاستثنائية

ومن هذين العنصرين ، مجتمعين ، تستطيع ان تصنع اشكالاً وقوالب وقوى متمازجة ومتنوعة تبلغ اقصى حدود التنوع ... وعليك ان تعلم بان هـــذين العنصرين الرئيسيين مكملان لبعضهما البعض ... وفي تكافلهما طاقات وامكانات لا حصر لها ... تماماً كالحلقات الحديـــدية في الشبكة المحكمة ... اذ ليس في استطاعة احد ان يعرف اين تبدأ قوة الشبكة واي حلقاتها أقوى من الاخرى!

فالماء المندفع يكتسح كل ما في طريقه لأن قوته الأولى هي « الاندفاع » .

عليك ان تضرب عدوك باقصى سرعة ممكنة وتنقض عليه كما ينقض العقاب على ضحيته فيكسر ظهرها ويشلها ولا تعود قادرة على الحركة وان كان قد بقي فيها طرف من الحياة .

والقائد الماهر هو الذي يجيد قوة الإندفاع ويحسن عملية التوقيت .

فالطاقة على الاندفاع هي اشبـــه باليد التي تشد القوس والسهم الى الوراء

تمهيداً للضرب ... اما التوقيت فهي مهارة اليد في توجيه السهم نحو الهدف وفي اللحظة المناسبة .

قد يبدو كل شيء فوضى في ابان المعركة وكأن لا ضابط هناك يسير الامور.. ولكن المعارك التي تكسب النصر هي التي تعلم عناصر النظام في اطار الفوضى السائدة اثناء المعارك وابان احتدامها ... ومصدر هذه الفوضى هو في الواقع نتيجة التنظيم العسكري السابق للمعركة ...

فالاشارات العسكرية والأوامر والأعلام والأبواق وغير ذلك من الاشارات التي تنقل التعليمات الى الوحدات المقاتلة ابان المعركة ، هي نتيجـــة للتنظيم العسكري الدقيق الذي يعتبره الأخرون فوضى لا ضابط لها .

***

والشجاع الأصيل فعلاً هو الذي يتظاهر بالجبن ليغري الأعداء ويحملهم على الاسترخاء ...

والقائد العسكري الذي يتظاهر بالضعف ليخدع الاعداء يجب ان يكون قائداً قوته في منتهى الاستعداد والطاقات ... وتتوقف الفوضى أو عدمها في المعارك على المهارة والدقة في التنظيم العسكري ... كما تتوقف الشجاعة والجبن على الظروف والطوارىء ... أما القوة والضعف العسكري فتتوقـــف على تشكيلات الطاقة للقوات المسلحة وعلى حسن اختيار المواقع ...

فحين تتاح للوحدات العسكرية ابان المعركة ان ترابط في مواقع ذات مناعة او مزايا عسكرية ، عندئذ نرى الجبان يصبح شجاعاً لا محالة... أما اذا ضاعت تلك المواقع ، فاكبر الظن ان الشجاع سيعتريه الجبن ...

ولا نعرف في فن الحرب قوانين تابعة للشجاعة والجبن .. فالجود بالنفس يتوقف على حدة الازمات ...

والدهاء في فن الحرب هو ان تجعل العدو يتحرك حيث تريده انت ان يتحرك، أي نحو مواقع لك فيها مزايا تفوق مواقعه.

ومعنى هذا هو أن تغري العدو او تستفزه وأنت مدرك بانه سيقبل المغريات ويجابه الاستفزاز – والشرط هو كذلك أن تكون أنت على دراية أيضاً باصول الفتك بالعدو اذا جابهك بعد هذا الاغراء أو الاستفزاز الذي تسببت له به .

ولذلك نقول ان القائد الحكيم وذا المهارة العسكرية هو الذي يعرف كيف يستفيد من مزايا المواقع ويجيد استغلال الظروف او يفتعل الظروف والمواقع المناسبة له .

ويعتمد خبراء القتال العسكري على الفرص المؤاتية وعلى افتعال تلك الفرص ... فلا يتركون الاعباء كلها على عاتق الجند والضباط فقط ...

كما على القائد ان يعرف كيف يختار المواقع والظروف وتوزيع المسؤوليات ثم يترك المجال لجنوده وضباطه ان يستغلوا تلك الظروف والمواقع أجمل استغلال .

وهكذا لا تضيع مواهب القائد او الضابط او الجندي بل تتكافل جميعها وتتلاحم من اجل النصر .

***

قال بعض العسكريين القدماء :

« لا تنتظر المجد ممن لا مواهب عندهم » ...

فالحرب خدعة ، ولكي تجيد استعمال القوة العسكرية ، مهما كانت طاقتها

في العدد والعتاد ، فان ما يجب عمله هو ان نعطي لكل ذي موهبة مجالاً لكي يبرزها ... وهذا يعني استعمال النبيه والغبي من الجند والضباط والشجاع والأقل شجاعة ، وان نعطي لكل وحدة ولكل فرد ما يصلح له من مجال وطاقة ...

فلا تكلف الجندي او الضابط بما لا طاقة له به ولا معرفة ولا استعداد على القيام به على الوجه المعقول ...

ان القائد او الضابط العسكري الذي يعرف كيف يستفيد من القوة العسكرية فان عليه حسن الاستعمال للمواقع اولاً ... وللرجال ايضاً ، كما يستعمل البناء الحجارة والاخشاب في بناء السدود وتشييد القلاع .

فمن طبيعة الحجارة انها سريعة الثبات والصمود على الأرض الحسنة... فإذا ما كانت الأرض غير صالحة فان الحجارة تتدحرج بسرعة حتى ولو داستها اضعف الاقدام.

اما اذا كانت مصنوعة بشكل احجام هندسية معتدلة فان حظها في الصمود والثبات أوفر جداً . ويكون صمودها أقوى إذا كانت مربعة ... اما إذا كانت مستديرة الشكل فمن السهل ان تتدحرج عند اول لمسة او ضغط .

وكذلك الرجال ، فإذا كانوا على هندسة حسنة من التدريب واختار لهم القائد مواقع حسنة ، فان الثبات والصمود سيكون الصفة الملازمة لهم .

وبناء على ذلك نقول :

ان قوة الجيش العسكرية اذا وضعت تحت قيادة نبيهة ، ستصبح قوية مثل الحجارة ، واذا اقتضى الموقف أن تثبت وتصمد فانها ستفعل ذلك ...

مواقف الحروب الثلاثة :

إن في الحروب ثلاثة مواقف :

الموقف الاول : هو ان يكون قائد الجيش مستهتراً بالعدو ويكون الضباط والجند تحت امرة ذلك القائد وعلى روح معنوية عالية ويحبون القتال حباً جماً ، ولهم اطماح عالية في المهام العسكرية ... ولعل هذا هو اجمل المواقف من حيث قوة المعنويات ...

الموقف الثاني : هو أن يجد القائد نفسه أشبه برجل فرد يدافع عن ممر جبلي صغير كامعاء الخروف ، وأمامه ألف رجل من الاعداء ... ففي مثل هذا الموقف تصمد استحكامات الرجل المدافع طويلاً ، وقد يتحقق له النصر ...

وهذا هو أجمل المواقف بالنسبة لطبيعة الأرض وعلاقة ذلك بالقوة العسكرية للجيش .

الموقف الثالث : هو أن نغتنم فرصة استرخاء العدو أو اهماله أو فقدان اليقظة في صفوفه ، أو أن يكون العدو خائر القوى نفذت موارده من الغذاء والماء والكثير من الذخيرة والعتاد ... أو أن استعداداته واستحكاماته العسكرية لم تستكمل أو انها لم تتخذ مواقعها الهجومية بعد ... أو كأن يكون نصف جيشه لم يعبر القناة أو النهر ، فهناك يكون سحق العدو أمراً ممكناً وربما أكيداً ... شرط أن تجيد القيادة تقدير هذا الموقف وهو ما يعرف عادة بالقوة عند العدو .

وأخيراً نقول بأن القوة العسكرية لا تشترط الضخامة أو كثرة العتاد ، بل تشترط حسن الاستغلال المواقف وللرجال حين يصبحون مثل صخرة ملساء فوق قمة جبل مرتفع . لن يحتاج القائد ، عندئذ ، الا لدفعة بسيطة ، فتحدث قوة هائلة تهبط كالرعد وتحطم كل من يحاول أن يعترض طريقها .

●

القسم السادس

في دراسة الامكانيات

المهارة القيادية

ان كل من يصل الى ميدان القتال قبل عدوه ، ستتاح له الفرصة ، على وجه العموم كي يستجمع قواه ويرتب أوضاعه ... وذلك قبل وصول عدوه فيرغمه على دخول المعركة قبل أن يكون جيشه قد استعد لها...

لذلك فالمهارة القيادية هي أن تستدرج عدوك الى الميدان الذي تختاره، لا ان تتركه هو يستجلبك الى الميدان الذي يختاره هو .

ولكي تحمله على ذلك ، فمن الضروري أن توفر له بعض المزايا ، ولكي تمنعه من الوصول الى الميدان الذي يختاره هو ، فمن الضروري أن تخلق له الأذى الذي يحول دون وصوله الى ذلك الميدان .

فإذا استطعت ان تحتل انت اماكن استراتيجية في مواصلات العدو في أرضه فستعطل عليه الحركة وتمنعه من أن يختار ميدان القتال الصالح له .

وإذا استراح العدو فتعمد أنت أن تفسد عليه الراحة وتخلق له المتاعب .

وإذا كان بمتليء المعدة فحاول قطع المؤونة عنه ...

وإذا كان جيشه مستقراً فحاول أن ترغمه على الحركة . وحاول أن تفاجئه في أماكن لا يتوقع منها المفاجأة . واسرع في الحركة العسكرية حيث لا يترقب منك العدو مثل هذه الحركة .

فإذ أردت تسير مسافة ألف فرسخ من غير أن ترهق قواتك المسلحة فعليك أن تختار المسالك التي ليس للعدو فيها تجمعات أو طاقات أو مجالات للاشتباك معه أثناء هذه المسيرة .

تحرك دائماً نحو الفراغ الذي لا يملأه العدو وسر في الأرض التي ليس له فيها معاقل وتفاد المسالك التي يدافع هو عنها ... ثم فاجئه في المناطق التي لم يكن يتوقعك أن تأتيه منها ... والسرعة هذه تستوجب عليك الضرب حيث ليس له استحكامات معقولة ... وضماناً لذلك ودفاعاً عن النفس والمواقع، عليك أن تتمركز في مواقع لا يستطيع ان يصل اليها الا بعد ان يبذل الكثير من المشقة والصعوبة .

ويجب هذه المبادىء البسيطة في أول مراحل القتال وعلى مدى تطورها .

***

ان الجيش الذي يتقن اسلوب الهجوم ، سيفسد على العدو دقة الحركة ويضيع عنه معرفة مواطن الضعف التي يجب عليه حراستها ... أو مواطن القوة التي يستطيع التحصن فيها.. أما الجيش الذي يتقن الخبرة في مواقف الدفاع العسكري فانه يفسد على العدو مقدرته على اختيار نقاط الضعف في معسكر الجيش المدافع .

اما الخبير الماهر في فنون الحرب فهو الذي لا يترك اثاراً لتحركاته السريعة مهما كانت قوته العسكريـــة ضخمة أو مثقلة بالعتاد ... ويتحرك للهجوم أو يستقر من أجل الدفاع بحيث لا يثير ضجيجاً كبيراً يتيح للعدو اقتفاء آثاره ...

حاول دائماً ان تجعل العدو يرى مواطن القوة في جيشك ولا يرى مواطن الضعف فيه ، بل تعمد ان تجعله يرى الضعف في جيشك على أنه قوة وليس ضعفاً .

حاول أيضاً أن تجعل من قوة العدو ضعفاً ، فاضربه في أضعف مراكزه وأقلها حراسة حتى تفسد عليه الثقة بالنفس .

حاول أن تخفي هجماتك بحيث لا يستطيع أن يكتشف أبـــداً هل هذه الهجمات هي دليل البأس من جانبك أم دليل اليأس ...

يتطلب منك هـــذا الدهاء أن تكون قليل الكلام ولا تعتريك الحرتقة في التصريح أو في الحركة ...

فالجيش الذي يخطط للهجوم عليه ان يختار أضعف مواطن العدو فيضربها فجأة وبسرعة .

أما الجيش الذي يخطط للتراجع او للاستحكام والدفاع ، فعليه أن يتراجع بسرعة الى خطوط استحكام ودفاع مدروسة سلفاً ... حتى لا يسبقه العدو اليها ويحطمها أو يفسد مناخها على الجيش المتراجع ...

وقديماً قيل : أهجم بسرعة الريح وتراجع بسرعة البرق ...

وعندما تختار بدء المعركة ، ارغم عدوك على الاشتباك حتى ولو كانت تحصيناته دفاعية ومخططاته لا تفرض عليه إن يشتبك معك ... وسيتم لي ذلك عندما اضربه في مناطق لا بد له من ان يضطر للعمل العسكري فيها ...

وفي عدم قرارك بالاشتباك مع العدو فارسم خطاً على الارض او الخريطـــة الجغرافية حيث تريد الاستحكام الصحيـــح ثم حاول ان تشغل العدو في زوايا ونواحي بعيدة عن هذا الخط الذي رسمته لنفسك من اجل الدفاع والاستحكام في مواطن القوة التي اخترتها انت بذاتك .

من الضروري ان تستوعب بدقة مواطن الضعف والقوة في معسكر العدو وطاقاته ... وان تخفي مواطن الضعف والقوة والطاقات عندك عن معرفـــة العدو ... ففي مثـــل هذه الحالة استطيع تركيز قواي وطاقاتي في غفلة عن

يقظته.. ثم اضرب فجأة بحيث لا يستطيع ان يدرك مدى طاقتي على الضرب.. وليس من الضروري ان استعمل كل السلاح او كل الجند لهذه الضربة او الضربات المفاجئة ... بل استعمل اقوى ما عندي من سلاح في اقصر وقت واعنف الضربات واترك العدو مبلبل الفكر مشتت الخواطر لا يدري ماذا يفعل ... فان النصر، في حالة كهذه، مضمون لي.

واحاول في بعض الحالات ان استعمل في معارك الهجوم وحدات خفيفة من الفرسان السريعي الحركة، يضربون قواعد العدو في الاطراف وفي المؤخرة كما لو كانوا طيوراً تهبط عليه من السماء ...

وفي حالات اخرى الجأ الى وحدات قوية بطيئة الحركة ولكنها ثقيلة السلاح من المركبات المسلحة بحملة الرماح وحملة الاقواس والسهام[١]، فاضرب العدو في وسط محتشداته لاخلق الذعر في صفوفه ثم اضرب بعض اطرافه في الجناح الايمن او الجناح الايسر او من المؤخرة ايضاً.

واختار بعض حالات الهجوم احياناً في وضح النهار ... فاخدع العدو في التمويه العمدي عليه، مستعملاً شارات عسكرية في لغة البيارق او لغة الطبول ... وكل ذلك حتى لا يفهم العدو بالضبط مقاصدي ... فاذا كانت الشارات تلك تعني الحرب في لغة الحروب فان ما اهدف اليه انا منها عندئذ، يكون عكس ذلك ... وهكذا اتمكن من خداعه.

والجأ احياناً الى الهجوم في الليل، او اوهم العدو باني ساهاجمه ليلاً ... فاستعمل الطبول واطفأ النيران واظهر كما لو اني عازم على ضرب مقدمة العدو، بينما اكون قد تدبرت، سلفاً، ضربه عند الفجر في جناحه الايمن او جناحه الايسر او في مؤخرته ... وهكذا فاني لا أعتمد على القوة فقط، بل على الحيلة والخدعة في أي مجال يتوفر لي.

---

(١) كان هذا في القديم.

ومن الضروري الا يعرف العدو سلفاً أين هو الموقع الذي سأختاره كميدان رئيسي للقتال ... فـــلا اتحرك بقوتي الى مكان معين على مسرح ومرأى من الملأ الأعلى .

فكتمان التحركات العسكرية عن مسامع العدو ، تفرض عليه ان يبذل الجهد للدفاع أو الاستعداد على كل الجبهات الممكنة – لا على الجبهة الأولى التي يعتبرها الجبهة الفاصلة في الحرب .

وحين تتشعب طاقات العدو ، ففي استطاعة القائد ان يضربها في أي موقع يختار ، وشرط الا يكون ذلك القائد قـــد جمع سلفاً كل طاقاته العسكرية في مكان واحد وأعلن عن ذلك التجميع اعلاناً مما جعل العدو يتيقظ ...

فاذا كتمت عن العدو تحركاتك ، فلانه لا بـــد وان يبعثر قواته في جميع الجهات ، وان يحرس مواطن الضعف في كل جهاته ، فتصبح طاقاته مشتتة ، وبالتالي ضعيفة .

عندئذ اختر اقوى ما عندك من وحدات واضرب اضعف ما عند العدو ... فعلى الجانب الضعيف في الطاقة العسكرية ان يستعد دائماً ضد العدو ... وعلى الجانب القوي ان يرهق العدو باعباء الاستعداد .

وعندما تعلم القيادات أين ميدان القتال ومتى تبدأ المعركة ، فان الجنود ستقطع مسافة الف ميل لتلبي بكل سرور نداء الحرب ... وهذا يدل على ان الجنود يعلمون بأن على رأسهم قيادة تعلم كل شيء ويستلهمون منها الثقة بالنفس ولا ننس ما لهذه الأخيرة من قوة هائلة في الحروب .

اما اذا كانت القيادة قلقة ولا تعرف كيف تختار الميدان ولا الزمان للمعركة، فان اليد اليمنى لا تعرف ما تصنعه اليد اليسرى ولا تدري المؤخرة كيف تساند المقدمة في التشكيلات المألوفة عند الجيوش ...

ويزداد عجز اختيار الزمان والمكان للمعركة عند القيادات، خطراً كلما اتسعت ساحات القتال وتعددت جبهاته ...

والحكمة في القيادة هي ان تحدد سلفاً اين مكان المعركة ومتى ستبدأ ... ولا يتم هذا الا بتقدير المسافات والابعاد الجغرافية وإحصاء منعرجات ومداخل الطرق ... ثم تعيين الوقت اللازم لعبورها ومدته.

وبعد هذا يجري توزيع الجيش على قطاعات تتجه في شتى النواحي التي تؤدي إلى ملتقى الجيش كله بعد ان تتم مسيرته نحو الهدف المنشود.

ولا يسير الجيش كله دفعة واحدة وفي طريق واحد، بل تتشعب مسالكه على عدة طرق تؤدي جميعها الى المكان الذي اختارته القيادة كميدان للمعركة، بحيث تصل جميع الوحدات العسكرية الى ذلك الميدان في وقت واحد ... وهذا يفترض ان تبدأ السير نحو الميدان ... وعلى الوحدات ان تقطع أطول طريق.

***

ان هذه العملية تشبه قوافل التجارة الآتية من مختلف القرى لتلتقي في السوق العام الذي يقام عادة في مكان واحد ويوم ثابت يعرف الجميع موقعه وموعد افتتاحه، فترتب كل قافلة مسيرتها في طرق وازمنة مختلفة انما تلتقي جميعها في ساحة السوق العام في موعد افتتاحه المعروف، كما ذكرنا، من الجميع!

واني على ثقة بأن في استطاعة الجيش المتحفز، النبيه، ان يصنع النصر، ويفتعله افتعالاً، حتى ولو كان العدو أقوى في البأس والعتاد والرجال، فان اسلوبي هو أن امنعه من أن يفرض علي الاشتباك في المعركة، الا في الزمان والمكان المناسب لي.

ومهما كان العدو متفوّقاً عليّ في البأس والطاقات العسكرية فانه سيعجز عن قهري طالما انني اخفي عليه مواطن الضعف والقوة عندي . واجعله بسبب ذلك ، في دوامة مرهقة من الاستعداد للحرب ، فتتبعثر طاقاته وموارده ، ولا اترك له فرصة ليستريح او يحسن اعداد مخططاته للفتك بي .

وهذا يستوجب عليّ ايضاً ان استوعب دائماً ما في خواطر العدو وما عنده من حركة واستعداد .

فاستفزه في مواطن الضعف حتى اعرف مدى طاقاته في مواطن القوة ، والعكس بالعكس ، دون أن أسمح لنفسي أو للعدو بالاشتباك الكامــــل في المعركة . والغرض من الاستفزاز هو محاولة الفهم لاسلوبه العسكري في الحركة كأن أقوم بغزوات على بعض مواقعه في فترات السلم مثلاً فإذا سكت عن هذه الغزوات فهو اما يكون خائفاً مني أو أن يكون أدهى مني يصطنع الصبر حتى لا يكشف عن مواطن الضعف والقوة عنده ... ولكني رغم ذلك ، استطيع أن أفهم ما اريد أن أفهمه من معنويات العدو أو من دهائه أو من خوفه أو من عدم استعداده اذا كررت هذه الغزوات واختلقت لها الأعـذار المختلفة . فانا سأجد دائماً مبررات لهذه الغزوات الاستفزازية في تخوم العدو حتى اتيقن من مواطن الضعف والقوة عنده . فإذا أيقنت انه اضعف مما أتصوره فاني سأضربه الضربة القاضية ... وإذا تيقنت بأنه أقوى مما كنت اتصوره فسأتفادى الحرب الفعلية معه .

أما اذا استطعت ان اعلم مواطن القوة والضعف عند العـدو فاني سأدبر اسلوب القتال واختار المكان للمعركة او اختار مواقع الدفاع والاستحكام اذا لم اقرر الدخول معه في المعركة ...

فالمعروف ان أمهر طرق التمويه على العدو ، هي ان اجعـــل تشكيلاتي العسكرية قبل المعركة واثناءها مجهولة بالنسبة له . أما أفضل وسائل التمويه في

التشكيلات العسكرية فهي ان أتفادى جعل قواتي العسكرية الموحدة في قالب نظامي ظاهر للعيان ، وذلك حتى اقطع الطريق على جواسيسه كي لا يجمعوا له المعلومات الصحيحة عن تجمعاتي وتشكيلاتي العسكرية ...

أما حسن اختياري للتشكيلات فسيساعدني على تغطية مواطن الضعف في طاقاتي العسكرية ، وان ابالغ في مواطن القوة لنفس الطاقات والعكس بالعكس .

ومن عادتي الا اكرر الاساليب والاستراتيجية العسكرية التي سبق لي وحققت النصر بها في معارك سابقة ... بل اني استنبط لكل معركة اساليب واستراتيجية تناسبها وتعمي بصائر العدو وتفسد مقدراته على التنبوء بما في خاطري من اساليب ومن دهاء .

ان الجيش هو أشبه بالماء الجارية ... فهي تتفادى الجريان في المرتفعات وتختار الاندفاع من أعلى الى اسفل ... وعلى الجيش ان يكون كالماء ، ينساب في تناسق مع طبيعة الارض فيتفادى الحواجز الطبيعية ويلف ويدور من حولها .. وهكذا الجيش المحارب ينساب في تناسق مع طبيعة مواطن الضعف والقوة في معسكر العدو ويلف ويدور حول تلك المواطن وكما ان الماء لا يعرف شكلاً او قالباً واحداً في مجراه ، كذلك الجيش المقاتل ، فعليه ان يتخذ مختلف الاشكال والقوالب في مرونة دائمة تناسب الاوضاع والمواقف ...

ان النصر يستوجب التعديل المتواصل في اساليب القتال ، تماشياً مع ما يطرأ من تبديل او جمود في المواقف والطاقات في معسكر العدو ... فهذا النوع من النصر هو أشبه بالوحي الرباني – يكتشف فيه القائد مواطن الضعف والقوة عند الاعداء ويعد طاقاته حسبما يقتضيه الموقف فيحقق النصر لنفسه أو يمنع الأعداء من احراز النصر عليه .

***

الخدعة العسكرية

تقع على عاتق القائد تجميع القوات المسلحة التي هي تحت امرته ... ثم يرتبها في تشكيلات يراها مناسبة لفن القتال وحاجات المعركة ... بعد ذلك يجمع قواته في المعسكرات تمهيداً للعمل الحربي .

ويتولى القائد وظيفته في قيادة الحملة العسكرية بتكليف من رئيس الدولة بعد التشاور مع أعضاء الحكومة .

وليس في فنون الحرب ما هو أصعب من مسألة المراوغة او المناورة ... فالصعوبة تكمن في أن تجعل اتعس طرق المواصلات اكثرها صلاحاً لزحف الجيش وتحركاته ... وان تنتزع المزايا من اسوأ المواقف . لهذا ، يجب عليك ان تختار طرق المواصلات غير المباشرة وان تعمي ابصار العدو عن مآربك العسكرية الكبرى فتشغله بمناوشات جانبية وتستفزه عمداً ليتلهى بتلك المناوشات .

فان انت فعلت هذا وصلت الى اغراضك قبل وصول العدو اليها حتى ولو سبقك في الزحف او في الطاقات .

ان الذي بامكانه أن يقوم بهذه الأعمال ، بامكانه أيضاً افتعال الدهاء الاستراتيجي من اجل العمل الحربي المباشر وغير المباشر .

تظاهر بانك بعيد عن تحدي العدو وعن مواقعه ... ولكن تعمد ان تصل الى المواقع قبل وصوله اليها ... لانك تملك المعرفة الدقيقة عن المسافات وعن المسالك التي لا سبيل للعدو ان يراقب تحركاتك منها . الجأ الى طرق ومسالك طويلة معوجة بحيث تصبح بالنسبة لك اقصر طرق القتال بطاقات الخصم ...

فتخدع العدو ... وتقتنصه وهو مرتخ في قواعد له لا يترقب منك أن تصل اليها فجأة ...

عندئذ تصبح بقية العمليات العسكرية مفيدة لك ومؤدية الى انتصارات اخرى اكثر سهولة واضمن تحقيقاً بفضل هذه الخدعة ...

ولا تظن ان المناورة تحقق المزايا والمنافع دائماً ، بل انها قد تخلق المتاعب وتزيد من الصعوبات وتهدد الطاقات لمن لا يجيد استعمالها ... ولا تعطي الخدعة ثمارها الا اذا كانت على يد القائد الماهر ، كما انها تؤدي الى أشنع النتائج اذا جاءت على يد قائد غبي .

يجدر بك الا تسخر كل قوتك العسكرية دفعة واحدة من أجل كسب هدف واحد فقط وخاصة في حرب لها اهداف عديدة ومسؤوليات متنوّعة . كان تزحف بجيشك لتضرب بعض وحدات جيش العدو وتترك قواعد التموين في معسكرك بدون قوة دفاعية .

وهكذا ستخسر جميع امكانيات النصر ، فيضرب العدو قواعدك وهي عاجزة عن الدفاع ...

فاذا تحرك الجيش بكل ما عنده من رجال وعتاد وذخيرة ومؤن ، فان حركته ستكون بطيئة ولا تستطيع افتراس المزايا على عدو سريع الحركة .

أما اذا ترك الجيش وراءه العتاد الثقيل وقوافل المؤونة والاحتياطي الكثير من الذخيرة ، وزحف بطلائعه سريعاً لا يرهقه السلاح الثقيل فهو قادر على كل ما يطلب اليه .

فقد يحدث ان يزحف الجيش بكل رجالة وعتاده على وجه السرعة ليلا ونهاراً ليصل الى الميدان .

وفي مثل هذه الحالة تصل الوحدات المقاتلة الى الميدان قبل الوحدات المثقلة بالسلاح الثقيل او بالذخيرة والمؤونات... أو تتأخر الوحدات النشيطة لتجاري بطء الوحدات الاخرى . وهكذا يصيب الاذى طاقات الجيش .

فالعادة هي ان يسير الجيش بمعدل ثلاثين فرسخاً في اليوم الواحد، ويقطعها على مراحل مختلفة.

اما في حالات الاضطرار فانه يستطيع أن يقطع ضعف تلك المسافة في يوم واحد على مرحلتين.. او ثلاثة أضعاف المسافة اذا لم يتوقف ليلاً نهاراً ...

وأن أكبر الظن في هذا النوع من الحركة ، إن الجيش سيخسر عدداً من جنوده ... إذ يقع اكثرهم اسرى في يد العدو ... وان هذه الحركة السريعة لا تمارس في العمليات العسكرية الا مرة واحدة من بين عشرات المرات .. وفي حالات لا بد منها كي يضمن الجيش هزيمة هامة على جيش العدو في سباق لاحتلال موقع خطير يهدده العدو نفسه .

ويتطلب هذا النوع من الزحف الاضطراري ، يتطلب من القائد أن يختار الاصحاء والاشداء من بين الجند والضباط ... لكي تتشكل منهم مقدمة الجيش ، ويبقي الآخرون في المؤخرة ...

ولا يمارس هذا النوع الا اذا كانت القيادة بحاجة ماسة لتسبق العدو إلى احتلال موقع ممتاز ... فمن مساوىء الزحف الاضطراري السريع ان تتعطل المركبات المسلحة الثقيلة وعربات النقل والذخيرة والمؤونة ، وان تفسد طاقات ثلث الجيش على وجه التقريب .

وكل جيش يفقد السلاح الثقيل او وسائل النقل الثقيلة سيفقد بعض المؤن والذخيرة . فوفرة المؤونة الغذائية للجيش ، هي أهم ، في بعض الحالات ، من

احتلال موقع عسكري . ولا بد من وجود دليل يرشد الجيش في الطرقات التي سيعبرها وخاصة اذا كانت مسالك وعرة ولم يسبق له ان مر فيها مطلقاً .

فلكي تضمن أفضل النتائج واسرع الطاقة على الحركة ، فان على قيادة الجيش الزاحف ان تدرس درساً دقيقاً خرائط المنطقة التي سيجتازها الجيش ، لتعرف مواطن الخطر فيها على المركبات المسلحة ، وعلى عربات النقل ... ولتعرف بالضبط مناطق المستنقعات او شح الآبار أو منعطفات الجبال والوديان، وأن تقيس بالضبط ابعاد الطرق وضيق المسالك او فسحها . وأسماء المدن والقرى والمعالم الجغرافية لكل النواحي التي سيمر فيها الجيش الزاحف ، وتلم كذلك بطبيعة السكان في تلك المدن ... وتقف على اوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وولائهم السياسي ...

كل هذا يجب معرفته سلفاً — وقبل ان يزحف القائد بجيشه هذا الزحف الاضطراري السريع . الذي لا يسمح بالتريث لاكتشاف هذه المعلومات ابان الزحف .

وعلينا ان نختار ، لمثل هذه المهام ، اشجع الضباط واكثرهم ذكاء وثقافة وصلابة واتقاناً للمهنة العسكرية ... ونضع الدليل الواضح تحت تصرفهم ونتركهم يتحسسون ويستطلعون مسالك الأرض وحقائق المعاش وطبائع المجتمع في المناطق الأمامية التي يتجه نحوها الجيش الزاحف .

كما علينا ان نلجأ ايضاً ، والحالة هذه ، الى التمويه والتعمية والتضليل لجواسيس اعدائنا ... فنصطنع آثار أقدام تتجه في غير الطريق الذي يتجه جيشنا نحوه ...

وفي بعض الحالات نضع في خوذاتنا العسكرية أغصان الشجر او سنابل القمح او غير ذلك من وسائل التضليل والتمويه ، وندفن اكثر متاعنا في غمار

الأشجار الباسقة او الغابات او الحقول حتى لا يستطلع العدو تحركاتنا من ابراج مراقبته أو من الحراس والجواسيس الذين يبعث بهم لترقب خطانا .

كما يجب ان نظل ، طوال مسيرتنا ، حذرين ومتيقظين لكل حركة أو صوت أو ملامح بعيدة أو قريبة حتى لا نفاجأ بما ليس في حسابنا من علوم أو من حقائق أو من حقائق لم تشرحها لنا الخرائط العسكرية او لم يفطن الى اعلامنا بها الدليل المحلي ...

كما علينا ان نراقب الرياح ونستطلع الأجواء ... فنفحص مجرى المياه والينابيع الأنهار ... ونرى اذا ما كان العدو قد استعملها ام لم يستعملها ...

تختلف حاجات الجيش المهاجم عن حاجات الجيش المدافع ، خصوصاً وانه من المنتظر أن يلجأ العدو نفسه أيضاً إلى الخدعة والتمويه والتضليل العسكري في ارض يعلم اننا غرباء عنها او عن مدى استعداداته واستحكاماته وما دبره لنا من مصائد او ما وضعه للفتك بنا من خطط ومقالب .

فإذا كانت مخططاتنا غير مكتملة ، فان باستطاعة العدو أن يدرك بسرعة مدى تفاهة معارفنا ومدى جهل قيادتنا وتقصيرنا في الاستعداد وانغماسنا في الجهل ...

وليست المسألة هنا مسألة شجاعة وصبر على تحمل المشاق ابان الزحف بل المسألة هي في المخاطر التي قد نواجهها في مصائد العدو وفي كيفية الخدعة التي قد يدبرها لنا ... وكثيراً ما تغلبت الخدعة على الشجاعة والبسالة .

فإذا لم نتقن الاستعداد الفكري والعملي في الزحف والمناورة ، فاننا سنكون أشبه بعملاق شجاع ذي بأس شديد ولكنه سكران فاقد لتوازنه بحيث يتمكن طفل صغير ان يؤدي به الى التهلكة ... فيقوده نحو طريق خاطىء او نحو الحفرات والمهابط ، وهكذا فالجيش الذي يزحف دون

استكمال المعلومات الأساسية اللازمة ، لا بد وأن يصبح جيشاً قلقاً ولو كان عظيم العتاد ، والاستعداد والشجاعة ... وعظيماً في معنوياته أيضاً ...

فهو لا بد أن يعتريه القلق إذا توقف ليلاً ... وفي مكان لا يعرف ما يحيط به من أرض ومن حشرات سامة او قرى ومدن ...

إن اية حركة أو صوت في ظلام الليـــل ، سيخلق للجيش الزاحف ، في منطقة مجهولة ، قلقاً عظيماً يسلب النفس بعض شجاعتها ...

ولذلك فمن الخطأ الفادح أن نزحف على ارض العـدو من غير ان نلم الماماً كاملاً بكل أوصافها وأوضاعها وطاقاتها ومواطن الضعف فيها .

فالعدو ، في ارضه، هو أدرى منا، بمدى ابعاد الطرق والمسالك، ووعورتها أو سهولة السير فيها ... وهو أدرى منا بطبيعة مدنه وقراه ومواطن الغـذاء والمياه الصالحة لحاجات الدفاع أو لحاجات الزحف .

ان العلم سيادة يؤثر جداً على الشجعان الذين يعتمـدون على عضلاتهـم أو سلاحهم ويستهزأون بعضلات الفكر وأسلحة العلم والمعرفة .

تستند الحرب ، أول ، ما تستند ، إلى الخدعة ... فإذا تحركت من أجل القتال فلتكن حركتك من أجـل اقتناص مزية تعتقـد انها متوفرة لك ... وافتعل مواقف وظروف تفسد على العدو طاقته على معرفة نواياك .

لتكن غزواتك كالنار تلتهم كل ما في طريقها ... إذا اخترت الغزو من أجل التأديب وزعزعة الثقة في صفوف العـــدو او اكتشاف مواطن الضعف والقوة فيه ..· ولتكن كالرعب أو الصاعقة تضرب فجأة في لمح البرق وتلحق أعنف الأذى بالخصم وفي اقصر وقت ممكن .

فإذا تعمدت هذا النوع من الغزو ، فتعمد ان توزع قوتك الضاربة على اكثر من منطقة واحدة ... ثم أضرب يميناً وشمالاً وأترك أعظم الاذى في نفس العدو وفي أرضه .

وليكن هذا الغزو مستنداً إلى دراسة مبكرة للاهداف التي تريد هدمها ولا تكون كالاعمى الذي يتخبط ولا يعرف اين يتجه وكيف يعود إلى قواعده .

فالذي يتقن الكر والفر والضرب المباشر وغير المباشر سيحقق لنفسه النصر .

***

قيل في القديم :

ان صوت الحناجر ضعيف في ساحة القتال ولذلك تستعمل الطبول ... وان عين المرء عاجزة عن صحة الرؤيا لجميع آفاق المعركة ، وهذا ما يحمل على استعمال الأعلام والارشادات العسكرية للمواصلات الفكرية بين مختلف وحدات الجيش.

فالتضليل والتمويه واستعمال الاسرار والرموز في هذا النوع من المواصلات الفكرية يعتبر من جواهر الفنون الحربية الحديث منها والقديم ... ومن المفروض في هذه الوسائل ان تضبط سلوك الجند في ساحة الميدان وما وراء الميدان ... وكلما اتقنت القيادة حسن التخاطب في أعطاء الأوامر وتلقي التقارير مع وحدات الجيش ، كلما تكاملت الطاقة الشاملة للجيش بكامله ...

وبذلك تتعادل مختلف وحدات الجيش وتسند بعضها البعض ، فلا الشجاع يندفع بدون امر ولا الجبان يتراجع بدون امر ، بل ما يحدث هو ان الشجاع الشجاع يسعف الجبان اذا ما تعرض هذا الأخير لضغط قوي من العدو .

***

تتألف التشكيلات العسكرية من تشكيلات صغرى ... وكذلك يتألف المعسكر الحربي كله من معسكرات حربية اخرى صغيرة داخل المعسكر الكبير ...

فهناك معسكرات صغيرة في المؤخرة والمقـــدمة والجناح الأيمن او الجناح الايسر ، ترتبط كلهـــا في المواصلات مع المعسكر الرئيسي الذي يضم قيادة الجيش العامة .

ربما كان الجيش على اتم الاستعداد والضخامة من الرجال والعتاد ، وكانت قيادته تعيسة فاقدة للنباهة والشجاعة ومعنوياتها من ادنى المستويات .

ففي الحروب يصبح مصير الملايين من الانفس في يد شخص واحـــد هو القائد ... فهو اليد التي تطلق سهم القوة كلها للقوات العسكرية وهو الروح التي تعبر عن كل طاقات الجيش ...

فاذا كان القائـــد ضعيفاً في معنوياته وثقافة العسكرية فسيعكس ذلك الضعف على القوات المسلحة كلها والتي تقع تحت امرته .

واذا فقد الجيش معنوياته ما استدعى ذلك ايضاً انهيار المعنويات في قيادة الجيش فالقلب السليم هو الجهاز الوحيد الذي على القائد ان يستملكه ... وان الشجاعة والجبن والنظام والفوضى كلها امور ذات صلة وثيقة بجهاز القلب الذي هو القائد ...

فالقلب السليم يستطيع أن يتحكم في أجمـــل الظروف وان يتحكم أيضاً في أتعس الظروف ... وهـــذا ما يمكنه من خلق الشقاق والفوضى في صفوف العدو ... كما انه قادر على أن يجعـــل من القوة المتواضعة قوة بأس ومناعة شديدة ... وان يفرض على الأعداء الأذى ويستنفذ طاقاتهم حتى ولو كانوا أشد عدة وأكثر عدداً ...

ان الجنود اذا ضبطهم نظام معقول فهم كفيلون بخلق الفوضى في صفوف العدو ... واذا كانت أحوالهم آمنة اقبلوا على القتال بحماس وعزم ... وكل هذا يتوقف على ضبط المناخ الفكري للجندي ... فحين تسود الطمأنينة قلبه وفكره ، لم تعد الأحداث تحطم معنوياته مهما تفاقمت ...

ان مسؤولية القيادة الفردية عن مليون من الجند البواسل ضد عدو يملك نفس العدد ، انها لا شك مسؤولية عظمى ، وتتمازج فيها المزايا مع المتاعب .

تستوجب هذه المسؤولية من القائـــد ان يأمر وينهي ويفرض على الجند التضحيات ... ولا يخفى مـــا في ثنايا هذه المسؤولية من حاجات الى الشدة والقسوة والمرونة والحكمة ... ويقظة القائد لكل الفرص والامكانيات التي تساهم في تحقيق النصر .

فاذا لم يكن القائد ثابت القلب ، حديدي الاعصاب ، بعيد النظر ، عميق الحكمة وذا مقدرة ومعرفة أصلية في فنون الحرب وفي طبائع النفس ... فان تصرفات القائد واحكامه وتدابيره سيعتريها القلق وتفتقر الى القرار السليم .

فاذا لم يتملك القائد هـــذه المزايا فانه سيفقد الصبر اذا واجه المتاعب المتراكمة ... ويفتقر الى الرصانة اذا كثرت عليه مسؤوليات الحل للمشاكل المتـــلاحقة ... ويساوره الخوف اذا داهمته المصائب ... ويعتريه القلق اذا جابهته جميع هذه الأوضاع الخطيرة والتافهة ... وهي من الأمور التي تواجه القائد دائماً في مسؤولية التصريف لأمور الجيش .

ان هذه المسؤولية القيادية تفرض على اهلها ان يكون الجند الذين تحت امرتهم على اتم الاهبة حين يواجهون عدواً ينصب لهم شباك الهلاك ... وعليهم ان يكونوا اسرع منه بالوصول الى ميدان المعركة ليترقبوه وهم مطمئنون الى

سلامة مواقعهم ... شرط ان يكون غذاؤهم موفوراً ، وحاجياتهم الحربية متوفرة اكثر مما عند العدو .

لا ترتجل القيادة الماهرة الأوامر العسكرية ارتجـــالاً ودون فحص دقيق لطاقات العدو ، وهل تلك الطاقات مكتملة في تشكيلات عسكرية متقنة ، أم انها متناثرة وفي تشكيلات عسكرية يعوزها النظام ؟

فاذا كان العدو يستحكم في مرتفعات لها مزايا التحكم المنيع بطبيعة الارض وفي ميدان المعركة ، فعلى القائد ان يتفادى الاشتباك معه ...

واذا كان العدو يستحكم في مواقع تحمي ظهره فيها هضاب منيعة فيجب الا يهاجمه ... واذا تظاهر العدو بالفرار وهو يملك القوة على المهاجمة ، فالامتناع عن ملاحقته والجري وراءه افضل ... وكذلك بالنسبة للاشتباك مع الصفوة الممتازة من وحداته العسكرية .

ومن يدري فقد يكون العدو يعد مصيدة ويضع الطعم على الصنارة ...

***

ان محاصرة العدو من جميع الجهات واغلاق جميع المنافد عليه ، يعتبر أمراً ضاراً بالجيش المهاجم ...

فاذا انت اطبقت الخناق على الوحوش الضارية ، فانها ستستميت في تنازعها على البقاء مهما كانت القوة التي تحيط بهـــا قوة غاشمة ... وتنطبق نفس هذه الحقيقة على الإنسان أيضاً ... فاذا أدرك العدو واقتنع بأن لا منفذ له من أية جهة ، فانه سيستميت في الدفاع ولو كان جباناً ... ويعمد الى جميع وسائل الدهاء ليكسر الطوق الذي يخنق انفاسه حتى ولو كان العدو قليـــل الذكاء والمهـارة .

ان ما قدمناه هو أهم القواعد العامة لفن الخداع العسكري في استعمال القوة العسكرية أفضل استعمال وفي أفضل الظروف بغية تحقيق مجالات النصر العسكري في حاجات الدفاع أو حاجات الهجوم .

●

ميادين القتال وانواعها

على القائد العسكري ان يراعي الأمور العسكرية التالية :

أ ـ ألا يعسكر في منخفض جغرافي من الأرض .

ب ـ الا يهمل الدقة في المواصلات المستمرة مع القوى المتحالفة وخاصة اولئك الذين يترقب منهم تعاوناً أو مساندة مباشرة في حملته .

ج ـ الا يبعثر طاقاته في جبهات حربية ليس لها مزايا عسكرية بعيدة عن أرض العدو الفعلي ...

د ـ ان يتفادى تركيز معظم قواته الحربية في أرض تافهة الموارد وفقيرة في المواصلات السريعة لم تجر عليها استعدادات وتدابير تمهيدية معقولة تضمن للجيش الزاحف الركائز الضرورية على الحركة العسكرية السريعة في أرض غير مأهولة بالسكان ... والتي شاءت ظروف المعركة ان تكون مثل هذه الأرض المقفرة ميداناً رئيسياً للقتال !!

هـ ـ وعلى القائد نفسه ان يستميت في القتال اذا ما وجد فوق أرض ميدان تحيط به مواطن الخطر والهلاك من كل حدب وصوب .

ومن الخطأ الفادح استعمال الصفوة الممتازة من الوحدات العسكرية كطعم صنارة للاشتباك مع العدو . ولا نفع من هــــدر قوات ومناطحة صخور دون فائدة ... فالافضل الابتعاد عن مثل هذه الأنواع من الاشتباك ... وهناك حالات يحق فيهـــا للقائد العسكري أبان المعارك الحربية أن يغض النظر عن تعليمات الحكومة البعيدة عن الميدان والتي لا دراية لها بأوضـــاع الحرب وتطوراتها . وهذا لا يعني العصيان على الحكومة وانما ضمان الحرية للقائد في ان يتصرف كما تستوجبه مسؤولية الحرب في الميدان نفسه ، وهو ميدان تكتنفه ظروف وتطورات لا تدركها الحكومة في العاصمة الادراك الفني الصحيح .

وهكذا نرى انه يجوز للقائد العسكري ما لا يجوز لغيره من ذوي السلطات، فان معارك الحرب والاسلحة هي أشياء ذات بأس شديد ... والقصد منها هو القيام بمهام قد لا ترضى عنها الفضيلة ... كما ان مهمة الحرب مهمة مقدسة ... ولا يجب انتظار الاوامر من أعلى في كل خطوة يخطوها الجيش وقائده ... فهو المسؤول الوحيد عما تحت اقدامه وامام ناظريه من اخطار وتحديات ... فلا يستطيع الجيش ان يهاجم مشيئة العدو من الامام ، وتردد الحكومة من الخلف في لحظات تستوجب على القائد انينصرف فيها الى ظروف الميدان وتطورات المعركة ...

وهناك تسعة أنواع من ميادين القتال يتحتم على القائد ان يجيد معرفة خمسة منها وهذا ما يطمئن الدولة اليه ويزيد ثقته بنفسه ...

اما الأنواع الخمسة المطلوبة فهي :

١ — **الطرق**: ليس من الضروري ان تكون افضل الطرق والمسالك اقصرها لغايات الحرب والتسلط على ميدان المعركة .

٢ — **أوضاع الجيش** : ومعنى هذا انه لا حكمة في الهجوم على جيش العدو اذا كانت أوضاعه اوضاع يأس او حصار ان يكون مثل هذا الوضع مدعاة لأن

يقدم العدو على الاستماتة والاستئساد للتنازع على البقاء . فالأفضل ان تترك للعدو منفذاً واحداً وان ترابط انت في مكان قوي في ذلك المنفذ ...

٣ – **اختيار المواقع** : وهذا يعني انك تضيع جهداً بمهاجمتك لمدن او مواقع معزولة عن الجسم العام للقوة العسكرية في صف العدو ... الا اذا كنت تعتقد بأن في تلك المدن والمواقع بأساً شديداً للعدو وان خسارتها له هي خسارة عتاد وارزاق وقوة عسكرية يعوّل عليها ...

وربما حدث وجاء هجومك على هذه المواقع النائية مدعاة الى استفزاز العدو فيضربك انت في مناطق ومواقع عزيزة عليك ...

٤ – **موقع الأرض** : ويعني هذا ان بعض المواقع الجغرافية في الميدان العام للحرب لا تستوجب القتال العسكري للسيطرة عليها وخاصة اذا عرف القائد بأنه حتى ولو احتل تلك المواقع فان مقدرته على الدفاع عنها ستكون مقدرة محدودة جداً ومرهقة ولا تعطيه ... كما انها لا تعطيه مزايا كبرى في المخطط العام للحرب في كل ميدان .

٥ – **اوامر الدولة** : يجب ان يطيع القائد هذه الأوامر كواجب به ... ويجوز له غض النظر عنها اذا تيقن بأن ظروف المعركة وملابساتها غير معروفة بدقة لدى الدولة البعيدة عن ساحة القتال .

وتعود هذه الورطة الى عدم قيام القائد في الجبهة باعلام القيادة العليا او الحكومة بكل تفاصيل المعركة وظروفها وملابسات الميدان أولاً بأول .

لا يمكن الحكم على مثل هذه الظروف سلفاً أو من مكان بعيد عن أرض المعركة الفعلية ... والقائد الحكيم هو الذي يشرح للدولة سلفاً ما يمكن وما لا يمكن القيام به من احتمالات النجاح في الميدان .

والحكمة كذلك في القيادة العسكرية هي في ان تدرك المخاطر التي تنطوي عليها المعركة ، وان تدرك ايضاً المزايا التي قد تتوفر في الموقف الخطير ...

فإذا استطاع القائد أن يدرك ويراعي المزايا والعوامل النافعة ، وإذا استطاع ان يدرك ويراعي كذلك بواطن الشر والاذي والعوامل السيئة في ميدان المعركة ، فانه يستطيع بذلك ان يتغلب على مختلف المشاكل الطارئة ...

فانا عندما اريد أن استغل لنفسي المزايا العسكرية ضد العدو فاني لا افكر فقط في النفع الذي سيحصل لي من هذا الاستغلال بل افكر أيضاً في الاذى والاضرار التي قد تحصل لي اذا استغللت تلك المزايا أو إذا فشلت في السعي لاستغلالها .

والمعروف أن المنافع والاضرار في العمليات العسكرية متمازجة ومتشابكة مع بعضها البعض ، والعسكري النبيه هو الذي يبذل الجهد الفكري في موازنة كلا العاملين : أي عامل النفع وعامل الضرر ... فالذي يرهب جيرانه ويرعبهم وهو غير قادر على اخضاعهم ، فانه في عمله الأهوج هذا سيخلق لنفسه الأذى ويجلب على نفسه الاضرار ... وليس هناك طريقة واحدة فقط او مشروع واحد أو خطة واحدة لالحاق الاضرار بالعدو ... فاذا انفرد ولي الأمر باجتهاده الخاص في وضع الخططات للتغلب على الأعداء وأبعد عنه المستشارين وأهل الرأي الذين هم لا يوافقونه على اجتهاده ومخططاته ، فانه سيعجز في اغلب الحالات عن تحقيق النصر المرتجى . فهناك وسائل عديدة للفتك بالعدو ، ليس لبعضها علاقة بالعمل العسكري المباشر .

فهناك مثلاً السعي لعزل العدو عن مستشاريه وعن حلفائه الذين ربما استنجد بهم في الساعات الحرجة . وهناك أيضاً طريقة زرع الفساد وبث التيارات الفكرية والسياسية الهدامة في مجتمع العدو وصفوفه العسكرية ... او طريقة

التسرب الى صلب الادارة والاقتصاد لتحطيم طاقاته الاقتصادية والسياسية والادارية ...

يضاف الى ما سبق قبوله طريقة الدسيسة في مجتمع العدو والتي تخلق تهالكاً على الترف واسرافاً في الملذات واقبالاً على البذخ بحيث تذوب الثروة المالية للبلد او تعتريها الفوضى أو تصيبها المشاكل العويصة ، فتضعف السياسة المالية والاقتصادية وتتراكم المشاكل على الدولة وتتفشى الآفات الاجتماعية بين الامة وتفسد الاخلاق في بيئتها، فيميلون الى الغناء والطرب والرقص والتسلية والترفيه وينصرفون عن مسؤولية القتال والنضال العسكري الأصيل .

حاول أن تشغل اعداءك بامور تستنفذ طاقاتهم وتشغلهم عن اليقظة والاستعداد لتحديك تحدياً عسكرياً خطيراً ...

فمن أهم عقائد الحرب والفنون العسكرية هي الا تنتظر انت من العدو أن يبادر بالعدوان عليك بل ان تستعد للمبادرة بكسر شوكته واستعداده للدفاع والهجوم ...

فالمفروض في الاعداء أن يكونوا قوماً اختلسوا حقك أو يعدون العدة لاختلاس ذلك الحق ...

وعلى الدولة والجيش ان يبادرا دائماً ويتيقظا للرد والفتك بالعدو سريعاً .

***

فاذا كان العدو قد اختلس حقك فمن الواجب عليك بالهجوم عليه لاستعادة ذلك الحق ...

وإذا كان يهدد حقك وسلامتك ، فعليك ان تكون دائماً على اهبة الاستعداد والعدة لاحباط هجومه ...

والرجل الشريف ، في أيام السلم ، يحتفظ بالسيف في متناول يده .

الخصال السيئة في الرجل العسكري :

هناك خمس خصال سيئة في الرجل العسكري :

١ ـ اذا كان طائشاً فانه سيلاقي حتفه بسرعة ..

ومن المصائب الكبرى ان يكون الرجل العسكري شجاعاً وغبياً في آن واحد ...

فقد جرت العادة عند الناس ان تقاس خصال الرجل العسكري بشجاعته .. ولكن هذا الأخير يعتبر الشجاعة خصلة واحدة يجب ان تصاحبها خصال اخرى . فالعسكري الشجاع لا يعتمد على شجاعته فقط في ملمات القتال والا اعمت ابصاره عن مواقف وملابسات ولحظات الحكمة فيها أن تضبط الشجاعة وتستعمل الذكاء ، فهي لوحدها ، بدون ذكاء ، تصبح طيشاً لا يرافقه الا الأذى المحتم .

٢ ـ اما اذا كان جباناً فانه سيقع في الاسر بسرعة ...

فالرجل الذي يعشق نفسه الى درجة الجبن سيتردد دائماً في فهم اصول الدفاع عن النفس، وهذا التردد هو الذي يسلب الرجل طاقة التنازع على البقاء، فيقع فريسة سهلة في ايدي الاعداء .

٣ ـ أما اذا كان احمق ، فانه سيرتكب غباوة تؤدي به الى التهلكة ... فالرجل الأحمق تستفزه اتفه التحديات وتثير فيه الغضب ... والغضب الأحمق يسلب الرجل مقدرته على التفكير السليم ويجلب له المساوىء .. فهو لا يستطيع ضبط أعصابه ولاتفكيره ولا التحكم بالموقف والظروف ولا المقدرة على استغلالها .. فأفضل المزايا في الرجل العسكري هي الثبات والولاء .

٤ – اذا كان مرهف الاحساس لدرجة تفقده التوازن المطلوب في الرجل العسكري . وهذا الاحساس الرقيق المرهف سيجلب عليه نفسه وعلى مسؤولياته اشنع الأذى والتبعات في كثير من الحالات .

فكلما كان الرجل العسكري مرهف الاحساس النفسي ، فكلما تعامى عن حقائق ومخاطر وانواع من الشرف العسكري أهم بكثير للسمعة العسكرية من كلمة نشاز تصدر عن زميل أو صديق ... فالرجولة العسكرية لا تكترث بالاحساسات الرخيصة التافهة .

٥ – واذا كان رحيم القلب ، فان للرحمة حدوداً في طبيعة المسؤولية العسكرية ... فالطبع الرحيم في الخلق العسكري لا يعني سرعة الأسف على كثرة الضحايا في ميدان المعركة ...

فالمسؤولية العسكرية تستوجب في بعض الحالات تضحيات دموية غالية في الأنفس والأرزاق . ولكن مقاصد الحرب هي صيانة أرواح أخرى وأنفس أخرى للأمة كلها والتي يتولى الرجل العسكري شرف الدفاع عن مصالحها وكرامتها ...

ان هذه الخصال الخمس في طبائع الرجل العسكري ، هي مواطن اذى في نفسه وكذلك على المسؤولية العسكرية في القيادة وأبان المعركة وفي فترات الاستعداد للعمليات العسكرية أيضاً .

لذلك يجب مراعاتها والعمل على عدم تفشيها ، كي لا تؤذي القيادة وبالتالي الجيش نفسه .

***

الهجوم

اعتاد الجيش المهاجم ، أثناء زحفه ، ان يعسكر في مرتفعات تجاورها الوديان ... فاذا فرض عليك القتال وأنت معسكر في مكان مرتفع ، فلا تضطر الى الصعود عالياً لقتال العدو .

أما في السهول ، فحاول ان تعسكر على مسافة معقولة من مجرى الأنهار بعد أن تعبرها ... وحاول أن تتفادى جيش عدو زاحف ، وأنت على حافة نهر أو بحر ، والأفضل أن تترك العدو يعبر النهر وتحـــداه أنت ... وإذا اخترت أن تكون أنت البادىء بالاشتباك مع العدو ، فلا تشتبك معه والنهر من ورائك ... بل دعه هو يعبر النهر ليواجهك او ليتراجع عبر النهر ذاته...

فهذه حالات تتعلق بالزحف والقتال بجوار المياه والانهر ... أما عندمـــا يضطر الجيش الزاحف الى عبور مستنقعات من المياه الاسنة ، أو المياه المالحة ، فليكن عبورها سريعاً بدون تباطؤ او استراحة ...

فاذا هاجمك العدو وانت في المستنقعات فاسرع لاختيار مواقعك قريباً من الأعشاب والحشائش بحيث تحمي الأشجار مؤخرة جيشك ...

أما في الأرض المنبسطة فعلى الجيش الزاحف ان يختار مواقع بحيث تسهـــل عليه منها سرعة الحركة ويجب ان يكون هناك مرتفعات جبلية تحمي مؤخرته وكذلك يجب ان تتوفر الحماية لجناحه الأيمن اذا أمكن .

هذا فيما يتعلق بالمواقع واختيارها في الأرض المنبسطة . والمزايا السابقة التي ذكرناها هي أفضل النواحي من حيث اختيار المعسكر له .

قد يجـــد الجيش الزاحف نفسه احياناً في مناطق فيها مستنقعات تعلوها الحشائش الطويلة ، او غابات فيهـــا اشجار كثيفة ... او بساتين يكتظ فيها الزرع والشجر الباسق فعلى الجيش ان يتعمـد الحذر مثل هذه الأماكن ، لأنها عادة اماكن يستعملها العدو للقتال المفاجىء ولمباغتة الجيش الزاحف او لأعمال التجسس والمراقبة ...

وحين تدرك ان جيش العدو قريب منك ، ولكنك لا تعـــلم بالضبط اين مكانه الحقيقي ، فأكبر الظن انه يمتلك مواقـــع جغرافيـــة مواتية له وفيها مزايا طبيعية يريد العدو استدراجك انت اليها ويضعك في موقف يساعد العدو على الفتك بجيشك .

فاذا حاول ان يشتبك معك وهو على مسافات بعيدة من معسكرك ، فاعلم بأن مقاصد العدو من ذلك هو اغراؤك بأن تقترب انت من اماكن اختارهـــا العدو اختياراً حسناً تساعده على الفتك بك .

فاذا لاحظت ان بعض الأشجار او الاعشاب تتحرك ، فاعـــلم بأن العدو يزحف ، او انه يغريك بالزحف الى مواقع يود ان يوقع بك فيها ...

واذا وجدت ان العدو قد انشأ بعد المصائد والمهابط لك في احدى مسالك جيشك الزاحف ، فاعلم بأنه يريدك أن تختار مسالك أخرى أعـــد لك فيها مهالك ومصائد أكثر خطراً وصعوبة ٠

ان مهمة وحدات الاستكشاف للجيش الزاحف هي ان تستطلـــع خفايا تحركات العدو من آثار اقـــدام الخيل والبهائم او عجلات العربات المسلحة او أحذية الجند او تصاعد الغبار من بعيد أو قريب ...

اما اذا صدرت عن العدو تصريحات متواضعة عن رغبة في السلم والوفاق،

وانت تعلم انه يتابع استعداده العسكري ، فذلك دليل على انه ينوي الهجوم عليك ..

وحين يتظاهر العدو بعنف التصريح والوعد والوعيد وأنت تعلم بأنه عاجز عن ترجمة القول بالفعـــل ، فمعن ذلك ان العدو يضمر في نفسه التراجع ولا ينوي القتال .

وحين يكون كلام العدو في تصريحاته ، او في رسائـــل مبعوثيه او في مفاوضات سفرائه كلاماً ناعماً مجبولاً بالمراوغة والتدجيل والاعتذار الزائف ، فاعلم بأن العدو لا يبتغي سوى فترة استجمام على حسابك لتعينه على مزيد من الاستعداد العسكري الذي لم يكتمل في صفوف العدو أبان المفاوضات ...

أما اذا طلب العدو منك الهدنة بلا سبب معقول ، فاعـــلم بأن شؤونه الداخلية مهددة بالأخطار وان بلاده في وضع داخلي سيء ، وان طاقاته مشتتة مبعثرة رغم مظاهر القوة التي يدعيهـــا ، او تلمسها أنت وتحسبها قوة وبأساً عنـــده .

تكون مقاصـــده في مثل هذه الحالة ، كسب الوقت واستجماع القوى أو هضم المكاسب التي تحققت له ، أو العمل لاستعداد عسكري جديد يضربك به على حين غرّة .

أو ان العدو يعلم ان طاقاتك على القتال أكبر من طاقاته ، رغم ما خسرته انت من معركة واحدة او من سلسلة من المعارك التي لم يصاحبك فيها النصر والنجاح ... فهو ، في هذه الحالة ، يريد صيانة مـــا كسبه منك ، وتعطيل الفرصة عليك للانتقام منه واسترجاع حقوقك أو الحاق الأذى به من أجـــل هذا فقط يطلب الهدنة منك .

اذا لاحظت أن جيش العدو قد تحركت عرباته المسلحة قبل أية وحدة اخرى من وحدات جيشه فهذا دليل على انه يعد الخطة لمبادرتك في القتال .

وإذا لاحظت أن العدو يزحف بسرعة ويستعرض سلاحه الثقيل في العربات المسلحة ، دون أن يشتبك معك ، فأكبر الظن ان العدو يتظاهر بالرغبة في الاشتباك الحربي معك ، ولكنه في الواقع يتوقع أن تصله الامدادات فقط .

أما اذا لاحظت ان نصف قوات العدو تتقدم والنصف الآخر ينسحب أو يتراجع ، فاكبر الظن انه يتعمد المراوغة والتمويه والتستر على مقاصد حربية ينوي ضربك المفاجيء بها .

وإذا لاحظت أن الجنود في صفوف العدو يتكؤون على سلاحهم ، فاعلم بأنهم خائروا القوي جياع او على عطش او في ضنك شديد .

وإذا لاحظت ان المسؤولين عن جلب المياه إلى معسكر العدو يتهالكون على شرب الماء قبل توصيله إلى المعسكر فاعلم بان جيش العدو يعاني أزمة في حاجاته للماء ... ان القصد من هذه الملاحظات كلها هو ان يراقب الجيش الزاحف كل خاطرة وشاردة وواردة ، في مناخ العدو مهما كانت تافهة ، لا تسترعي الانتباه عند الذين لا حذق عندهم في المراقبة العسكرية وهي مراقبة تحتاج الى سرعة الخاطر ، والنباهة الفطرية والاهتمام المتواصل بكل شيء والسعي لتفسيره في اطار المنطق العسكري المعقول .

أما إذا اظهرت القيادة عطفاً مفاجئاً ومتزايداً على الجند بدون مبرور ، فهذا معناه رشوة لعواطفهم وان القيادة هي على آخر رمق من طاقاتها العسكرية ...

وإذا أظهرت القيادة بطشاً مفاجئاً وقسوة متناهية في معاملة الجند فمعنى ذلك ان الجيش قد فقد قواعد النظام العسكري الصحيح في صفوفه ...

وفقدان الاعتدال عند القيادات ما هو الا دليل على الضعف في كلا الحالتين..

أما إذا مارس الضباط عنفاً متناهياً مع الجند فجأة وبدون سبب ، ثم بدا من الضباط أثر ذلك عطف متزايد ولا لزوم له ، فمعنى ذلك أن الجيش قد يتعرض الى فقدان النظام والثقة المتبادلة بين الجندي والقيادة المسؤولة عنه .

وإذا ادركت أن معنويات الجند مرتفعة وقوية جداً في صفوف العدو ، فالأفضل أن تتفادى الاشتباك الحربي معه في تلك الآونة ...

ويفضل أيضاً الا تتراجع أمامه .

ولعل أفضل الأساليب في موقف كهذا ، هو أن تتريث بعض الوقت حتى تتيقن من دوافع هذه الرفعة في معنويات جيش العدو وهل هي حقيقة أم مزيفة ...

ولا تعطي كثرة الرجال والعتاد في معامع المعركة مزايا عسكرية فاصلة .

والأفضل أن لا يكون اعتمادك في معارك الفصل العسكري على الضخامة وحدها ، بل على بقية العوامل الفنية وغيرها ... ولا تستوجب أهداف النصر العسكري وقواعده التنفيذية أكثر من الدقة في معرفة طاقات العدو وتشكيلاته والمناعة أو فقدان المناعة في مواقعه الجغرافية ، وما على الجيش الزاحف إلا أن يستجمع قواه فيضرب قوة العدو في القطاع الذي اذا أصابه أذى كبير ، شل طاقة العدو على الحركة والمقدرة العسكرية وأصبح النصر حليف الجيش الذي يجيد استعمال القوة العسكرية ، لا الذي يملك أضخم القوة العسكرية ، فالنصر هو للذي يتقن فن الحرب لا عدة الحرب فقط .

أما إذا انزل العقاب بالجنود الذين يسيئون السلوك العسكري من غير أن يضمن ولاؤهم مسلفاً . فإن العقاب سيدفع بهم إلى التمرد والعصيان .

وإذا فقد الجند الولاء ومالوا إلى العصيان ، فلا نفع منهم لأنفسهم ، أو للجيش والامة التي يدافعون عنها أو يبنون المجد لها ...

وإذا مارس الجنود الولاء الشديد للمسؤولية العسكرية ولكنهم ينفرون من العقاب الحق إلى خرق النظام العسكري ابان المعركة واثنائها وبعدها ، فلا يجدي هذا النوع من الجنود ولا يصلح لتحمل مسؤولية الدفاع عن الامة .

من أجل هذا كله فرض النظام على الجند ، وممارسة التأديب لمن يعبث بالنظام ، ويجب كذلك أن يدرك الجند بأن النظام والعقاب ضروريان لمصلحة الجندي نفسه ، فضلا عن مصلحة الامة التي تعلق عليه آمال الدفاع أو آمال القهر للعدو واستعادة الحقوق أو بناء المجد للأمة ... فالنصر محقق لهذا النوع من الجنود والقيادات .

تقع على الرجل العسكري مسؤوليات جسام ، ومنها مسؤولية الصيانة لحقوق الأمة التي هو جزء منها ويحميها من العدو ... وعليه كذلك تطبيق أصول النظام ومسؤولية القيادة تطبيقاً نبيهاً وعادلاً على بقية أفراد القوات المسلحة ، وهكذا تستقيم العلاقات بين الطرفين ، لكونهما شريكين في المسؤولية العسكرية ... فالضابط يقوم بواجبه في فرض النظام والجندي يقوم بواجبه بالأمثال لهذا النظام .

وفي مثل هذا التناسق والتعاون في المسؤوليات العسكرية تستقيم قوة الجيش الزاحف والجيش المرابط والجيش المدافع والجيش الذي يشن الهجوم ليهدد الأمة وسلامتها .

* * *

طبيعة المعارك الحربية

اذا قام الجيش باختراق بسيط لحدود العدو ، فان ذلك لا يستوجب معركة تتخذ طابع الجد العسكري ، واذا حارب الجيش على أرض المعركة ، وحيث تتعادل فيها مزاياه مع مزايا العدو ، فإن هذا النوع من ظروف المعركة يقرر معركة الفصل بين الجانبين .

واذا كانت أرض المعركة قريبة المنال لك ولجيش عدوك بنفس السهولة ، فهذا يستوجب الاشتباك اذ ان المسافات تتسع وتسهل الحركة ويستطيع كلا الجانبين الكر والفر واقامة استحكامات الدفاع وتدبير خطوات الهجوم.

اما اذا كانت احدى الولايات محاطة بالاعداء من ثلاث جهات ، فان ظروف المعركة فيها تستوجب المعارك الموجهة او المركزة والجيش الظافر بالتغلب في هذه المعركة الموجهة سيشتد ساعده ويبسط سلطانه .

قــــد يتمادى الجيش في زحفه الى صميم ديار العدو تاركاً وراءه مدناً وقرى آهلة بالسكان المعادين له ، فان ظروف معركة من هذا النوع هي ظروف خطيرة تخلق للجيش الزاحف متاعب ومشاكل أكثر من أن تعد وتحصى .

واذا عبر الجيش الزاحف جبالاً وغابات ومنخفضات او مستنقعات ووديان ومزالق وعرة كثيرة ، فان وعورة هذه الارض تجعل ظروف المعارك صعبة جداً ... وفيها يسهل نصب الكمائن وممارسة الغدر بالاعداء والحاق الهزائم بهم.

ومن الافضل الا تطيل وتماطل في حرب المطاردة ، داخل بلادك . وان لا

ترابط طويلاً على التخوم بين بلادك وبـــلاد العدو في ظروف القتال ... كما لا تترك مجالاً لوحدات جيشك ان تفترق عن بعضها البعض بدون ضابط استراتيجي، واتصال دقيق وارتباط عسكري كثير الاتقان، سريع الحركـــة متماسك في جميع أطرافه .

حاول، ما استطعت، أن تكسب لنفسك دائماً، احلافاً وانصاراً في الولايات المجاورة ... واذا اضطررت للحرب داخل أرض العدو وتسلل جيشك اليها وتوغل في مسافات بعيدة فـــلا تمارس البطش بالسكان والا خلقوا لك المتاعب في هذه الارض التي تكتنفها ظروف المعارك الصعبة ...

واصـــل الزحف في الارض الصعبة ... واعمد الى الدهاء العسكري في الارض المطوقة ... واياك ان تتأخر لحظة عن الاستشهـــاد في الارض التي تستوجب الاستماتة .

اما في ارض المطاردة فالواجب الاول هو الالتحام بين القـــادة والجند لتوطيد العزم على قهر العدو او تشتيته ... لا بد من التريث حتى ترتبط مؤخرة الجيش بمقدمته وجناحيه ارتباطاً متيناً ... ومعنى هذا انه اذا كان العدو يعتمد على تفوقه العددي للسيطرة على ارض المعارك الفاصلة، فمن الواجب حشد اكبر قوة عسكرية للتسلط على المؤخرة . وهكذا تكون قد سبقت العدو الى المركز الذي يصلح للمعارك الفاصلة .

من قواعد النصر العسكري الاصيل ان تتعمد في عملية المحاصرة والتطويق لجيش العدو، ترك منفذ له لينهزم، حتى لا يقطع العدو الامـــل من اي تراجع وهزيمة، فسيستأسد في الدفاع ويستميت في السعي لفك الحصـــار ... فاذا استعمل العدو هذا المنفذ الذي اتركه له، فاني اعد العدة سلفاً، لاضرب فلوله المنهزمة من ذلك المنفذ ...

واذا كنت انا في ارض مطوقة يحاصرها العدو من كل الجهات ، ووجدت بان العدو يترك لي عمداً منفذاً للهروب او للتراجع ، ليغريني باستعمالهـــا ، فان علي ان اغلق بنفسي هذا المنفذ الذي تركه لي، حتى ارغم الجند في صفوفي على الاستماتة وفك الحصار عنهم ... وذلك بعد ان اقوم بافهامهم بان لا امل بالحياة ما لم يقاتلوا . ويزداد الجنود في مواقف اليأس امتثالاً للأوامر واقبالاً على القتال ، واستنباطاً لكل اساليب التغلب على حصار العدو ...

فعلى القيادة العسكرية ان تكون مرنة جـــداً في كل الحالات التعيسة من ظروف المعركة . وهذه المرونة تستوجب المراعاة الدقيقة لتلك الظروف وهي لا تتم الا بعد دراسة وافية لجميـــع ملابسات القتال .

فقد وصف القدماء المهارة العسكرية بانها المحاولة الناجحة لفصل مؤخرة العدو عن مقدمته ، والحيلولة بين وحداته القوية حتى لا تلتحم بالوحدات التي هي اقل منها قوة ... فالجند القوي او الشجاع او ذو التجارب والمران ، يسعف من هم اقل منهم مقدرة او تجربة او شجاعة ... كما ان المهارة هـــذه تقضي بافتعال عدة جبهات اشتباك مع العدو ... فتخلق الفوضى والارتباك في صفوفه .

ان السرعة هي عامل جوهري في ايام الحرب ، فاغتنم فرصة عدم الاستعداد في صفوف العـــدو ، ولتكن تحركاتك من طرق غير مألوفة أو مرتقبة ... واضربه في أماكن او محتشدات لم يفطن لتحصين الدفاع عنها ، لأنه لا يترقبك منها في غير الطريق المألوف ...

فالسرعة هذه هي زبدة الدهاء العسكري ... وهي منتهى الحذق في القيادة العسكرية... وأشد ما يعتز به القائد المحنك المقدرة على الحركة السريعة . ومن المبادىء العامة للجيش الزاحف هي أنه اذا تمادى زحفه الى داخل أرض العدو ، ازدادت نزعة الجند والضباط على التلاحم والتماسك وارتفعت معنوياتهم ، فانهب

أرض العدو اذا تمادى زحفك فيها واذا كانت تلك الأرض غنية وخصبة حتى تزيد مؤونتك وعتادك على حساب العدو . ضع قواتك في مواقف لا يسهل معها الفرار ... حتى ولو واجهوا الموت ... فإذا كان الجند عازمين على الموت فلن يقف في طريقهم أي عائق روحي أو قوة متصاعدة ... فالاستماتة هي السلاح المعنوي الوحيد في هذا الموقف ... عندئذ تلتحم روابط الضباط بالجند ويبذل كل طرف أقصى ما عنده من مهارة وطاقة وشجاعة وعزم ... ويذوب اليأس في حالات الخوف ...

وكلما أمعن الجيش في زحفه داخل أرض العدو ، كلما ازدادت روابط الألفة والتلاحم والاخوة بين القوات المسلحة الزاحفة ... وأصبحوا يشعرون ان لا مفرلهم من هذا التلاحم والتكافل ، ولا بد لهم من الاستبسال في مجابهة العدو في وحدة عزم وتماسك ومعنويات متصاعدة .

ولن يحتاج الجنود في مثل هذه الحالات الى من يـذكي في نفوسهم الحماس ، او من يتشدد في مراقبة النظام او فرض الطاعة العسكرية عليهم ... وتصبح احتمالات النصر معقولة أكثر ...

واذا كانت مقاصـــد الجند والضباط هي الغنائم والاسلاب والعلاوات والترقيات فقط – فلن ينفعوا لحاجات الدفاع عن الغرض ، وستكون أهدافهم الاحتفاظ بأرواحهم لاسحق أخطار العدو ودحضه .

واذا وجد الجيش نفسه في موقف لا يتحمل الفرار فان الشجاعة ستتغلب عليه وتستملكه نزعة الخلود وترتفع معنوياته الى أعلى درجات الشجاعة والعزم والتنازع على البقاء المشرف .

تهدف الادارة العسكرية الى تنمية المعادلات في الطاقات بين مختلف وحدات الجيش ، وتنسيق ذلك بحيث تستطيع القيادة ان تستغل طبيعة ارض المعركة

فتستعمل أقوى الوحدات عندها في تناسق مع الوحدات الأخرى . ومن هذه المرونة والتناسق تستطيع القيادة ان تحظى بأكثر ما توفره طبيعة الارض من مزايا وما يمتلكه الجيش من طاقات .

فاذا تمكن القائد من التحكم بطبيعة الارض . فمجال النصر محتمل حتى ولو كان جيشه يعاني بعض الضعف في الرجال والعتاد ...

ومن واجب القائد ان يتحلى بالهدوء وان يترفع عن الشوائب ، وان يتعمد الانصاف وان يضبط اعصابه ... وهذا ما يوفر للجيش سرية المخططات وسرية الحركة ... ورفعة المعنويات في آن واحـــد ، كما يحقق لجيشه الدقة في فرض النظام .

والقائد الذي يضبط أعصابه ينتزع الثقـــة من الجنود قاطبة ... فهؤلاء يشاركون في نشوة النصر ، ولكنهم لا يسوغون المخططات ... فذلك ليس من مسؤولياتهم .

***

على القائد ان يمنع الجنود من التحدث حول المعجزات والمعتقدات التي لا اصول لها في طبيعة الاشياء ... وبذلك يبعد عن المسؤولية العسكرية مصادر الشك ومصادر القلق والشعوذة .

والقائد الماهر هو الذي يتعمـد التمويه في مخططاته والتعـديل في ظواهر الاشياء، حتى لا يترك لاحد مجالاً في دقة التعرف على مقاصده ونواياه ... عليه كذلك ان يدخل تعديلات مستمرة على بعض اصول العمل العسكري وبهـذا يكسب لجيشه ولنفسه مزية التجديد، ويمنع العدو من دراسة ما سبق له ونفذه من عمل . .

ولا يتم هذا التجديد الا في حاجة القائد الى تغذية فكره تغذية متواصلة

بالمعارف والعلوم وقبول النصائح وعدم الاستهتار بما عند الآخرين من اجتهاد أو نصح أو مشورة .

على القائد أن يعين سلفاً مراكز تجمع وحداته من مختلف الاتجاهات ويعين كذلك مراكز الكر والفر في نطاق المخطط العسكري ... وبمعنى آخر فان القائد الماهر يترك الجند تصعد إلى اعلى ...

* * *

تستوجب الحملة العسكرية على عدو قوي التدبير المتواصل لمنع هذا العدو من تجميع طاقاته ... وتجميع الانصار والاحلاف والمؤيدين له ... فالحرب تتبع الدهاء السياسي ، والسياسي الفاشل هو قائد عسكري فاشل ايضاً ... ولا تكون السياسة الا بخلق الاعداء على كل الجبهات وجمعهم من مختلف النماذج .

إذا قررت بت الامور مع عـــدو قوي ، فواجبك ان تحول بينه وبين مقدراته على الاحتماء باصدقاء أقوياء او طلب النجـدة منهم ، وهذا يستوجب حكمة سياسية تهادن بها أصدقاء أقوياء لتمنع عدوك من ان يستنجد بهم ... وعلى الدولة ، أيضاً ، ان تحاول مساومة أصدقاء ذلك العـــدو على نوع من المهادنة والتودد وتوفير المزايا لاولئك الاصدقاء حتى يميلوا الى جانبها أكثر من ميلهم الى جانب العدو .

ولا تكون الاحلاف مع قوي ليس لها رسوخ في المبادىء ولا مواثيق في النجدة عند الحاجة ...

وتعني الاحلاف أيضاً أن تتعمد افساد احلاف العـــدو مع قوى اخرى في امكانك مهادنتها واستمالتها إلى جانبك بشتى المغريات .

والسبيل الى ذلك هو اكتساب احترام القوى الخارجية والثبات على التعامل المضبوط معهم وليس التحايل والابتزاز ...

فالقائد الذي يعتمد على طاقته العسكرية فقط ، فيخلق المشاكل السياسية على كل الجبهات الداخلية والخارجية، فهو قائد فاشل لا محالة ، ويكون همه الأول اشباع مآربه من شهوة الحكم والسلطان وهذا النوع من القيادات لا تسعفه القوة العسكرية مهما كثرت في ترسانته أو في عدد جنوده او في وفرة عتاده...

ان قواعد الاخلاق في كل شيء في السياسة وفي القضاء وفي الحرب تستوجب الجزاء والعقاب — فإذا انصفت في ذلك واسرعت في تنفيذه وصمدت على تلك النظرة والسلوك المنصف ، عندئذ تستطيع أن تستملك ثقة الناس .

اوضح للجنود مسؤولياتهم دون ان تطلعهم على كل التفاصيل في مخططاتك . استعمل طاقاتهم العسكرية كما يستوجبها الموقف ، من دون أن تشرح لهم الاخطار الجسام التي قد تترتب عن ذلك . وادفعهم الى مواقف الخطر الذي تستلزمه صنعة الحرب وحاجات النصر . وسيثبت الجندي أن تنازعه على البقاء يستوجب عليه قهر العدو — وليس الفرار منه .

وإذا رميت الجنود في طريق الموت فلا تظن ذلك سبيل مجد شخصي لك ، بل هو واجب التنازع على البقاء الشريف للامة ... والجنود جزء اصيل من هذه الامة ، ومن نزعة الجندي أن يكسب المجد وأن يدافع عن روحه وعن كيانه، وهو كيان الامة أيضاً.

فلا تسيء استعمال الجيش لغاياتك الشخصية أو لسياستك الخاصة بل لسياسة الامة ومصالحها ، وستجد الجيش في هذه الحالة ينتزع النصر من انياب الموت .

أما أساس الفكر العسكري فهو ان تتعقب ما يجول في خاطر العدو بشتى اساليب الاستقصاء . ومن هذه المعرفة الدقيقة التي تتوفر لك تستطيع ان تتحكم في مصير المعارك .

***

القسم السابع

تحولات جذرية

اثر الصناعة في تطور الحرب

ان عودة الطبقات الارستقراطية إلى تسلم القيادة اعادت القوات المسلحة الى مفهومها القديم ، الا وهو ما نعني به مفهوم الاحتراف والمرتزقة ، مما قضى على نظام الجماهير الذي عرفته اوروبا في الفترة النابولونية ، وقــدر للحروب التي نشبت في المستعمرات خلال القرن التاسع عشر ، أن يكون القسم الأكبر منها بقيادة الارستقراطيين ونفر قليــل من الاختصاصيين الذين قضت الحاجة باستدعائهم لاستعمال الأسلحة الجديدة ، ونفر آخر من ذوي الخدمة الطويلة في الجيش كالذين قاتلوا في روسباخ و كوبيك وممر القديسين .

ولهذا يمكننا ان نقول بان الجيوش التي زحفت إلى مكسيكو سنة ١٨٤٦ ، والى القرم سنة ١٨٥٤ ، كانت في وجوه كثيرة أقرب إلى قوات سنة ١٧٧٥ التي قاتلت في اميركا ، أقرب منها الى جيوش سنتي ١٨١٤ أو ١٨١٥ التي حاربت في أوروبا ...

***

ولكن اذا كان نجم الثورة الديموقراطية قد افل على الصعيــد الحربي والعسكري ، فان نتائج هذه الثورة قد فسحت المجال لثورة اخرى اعمق أثراً وأبعد مدى في حياة الشعوب ... انها الثورة الجديدة ، الثورة الصناعية .

فقد انطلقت هذه الثورة من اختراع الآلة البخارية التي استعملت في بادىء الأمر لضخ المياه من مناجم الفحم الحجري في بريطانيا ، وذلك منذ اوائــل القرن الثامن عشر ، وقبل اندلاع الثورة الاميركية بعشر سنوات ... وفي ذلك

الحين كان المدعو جيمس واط قد عمل على تحويل تلك الآلة البدائية الى جهاز قوي يصح استعماله في امور عديدة اخرى .

ويجب أن نشير هنا الى أن محاولات سابقة بذلت لاستعمال هذه الآلة البخارية في الشؤون العسكرية . فمنذ سنة ١٧٤٣ ، اكتشف عالم الرياضيات البريطاني الشهير روبنز مبادىء القذافة وهي آلة تساعد على تسديد الرماية بدقة . وفي عام ١٧٧٦ ، وضع المقدم الاسكتلندي فرغسون النموذج الأول للسلاح الناري الذي يتم حشوه من اسفله .

وقبل ان تنتهي حروب نابوليون كان مصنع برونل قد باشر انتاج بكرات السفن الحربية كما أن مصنع واروتني بدأ ينتج بنادقه بالجملة ، وهكذا اصبح من الامكان أن تطبق الامكانات الجديدة على العمليات الحربية .

وبعد مرور أقل من سنتين على معركة « الطرف الأغر » التي تعتبر من اعظم المعارك بين السفن الشراعية المصنوعة من الخشب ، كان أول قارب بخاري تجاري في العالم ينطلق على مياه نهر هدسن، فاتجهت الانظار فوراً إلى استخدام القوة البخارية الجديدة في السفن الحربية وغيرها من الآلات القتالية .

ولعل من ابرز العمليات الحربية التي ظهر فيها تفوق الاجهزة الحديثة في تلك الآونة هو استيلاء السفينة البريطانية شانون على سفينة شيزابيك الاميركية سنة ١٨١٢ .

وكانت شانون مسلحة بمدافع جديدة ومبتكرة لها مناظير لتسديد الرماية وكان بحارتها يتقنون استعمال تلك المدافع .

وطرأت تطورات عديدة على الصعيد التقني في الحروب البرية وكان اهمها استعمال القنبلة المجوفة الشديدة الانفجار عوضاً عن الكرة الكثيفة الممتلئة التي كانت تقذفها المدافع ...

ان أول غواصة في العالم هي « الحمامة » ومن صنع الأميركيين ومخترعها هو بوستل ... وقد تم استعمالها ضد البريطانيين في ميناء نيويورك، ولكنها لم تنجح اثناء الثورة الاميركية . كما تم بناء أول سفينة حربية تسير بقوة البخار في عام ١٨١٢ وظهرت الى حيز الوجود قبل معركة واترلو . انما لم تستعمل للقتال على الاطلاق ... وكانت جميع هذه المحاولات بمثابة تمهيـــد واستعداد للأعمال الكبيرة .

وفي هذه الاثناء اهتـــدى الربان بروك إلى تحسينات على جانب كبير من الأهمية ، فطالب بتثبيت مدافع السفن على قواعدها لتصبح الرماية بها اسهـل تسديداً ، ولكن الاميرالية لم تقم لاقتراحه وزناً ، لانها لم تجد فائدة ما في دقة التسديد ، ما دامت السفن مختلفة الانواع والمعارك الحربية لا تحتاج الى دقـــة الاصابة بقدر ما تحتاج الى بعد المدى .

وحتى سنة ١٨١٥ لم تكن بوادر الثورة الصناعية قد انجلت بعد مما جعلها قليلة الأثر في الاساليب الحربية، وكان السلاح البري، حتى ذلك الحين، مقتصراً على البنادق القديمة التي تحشى من فوهتها بالقداحة والصوانة ، وعلى المدافع التي تحشى بالعصي ومن فوهتها أيضاً.

اشتهر نابوليون بتفوقه في استعمال سلاح المـــدفعية والمعروف ان الصناعة الفرنسية زودته بمدافع خفيفة صالحة للمناورات في الميدان، فتثبت على مركبات متينة ، ثم تحولت من سلاح مساندة في عمليات الحصار الى سلاح فعـــال أثناء الاشتباك في المعركة . وكانت المدافع من قبل ، وحتى منتصف القرن الثامن عشر ، تجرها الخيول التي تصادر او تستأجر محلياً في منطقـــة القتال ويسوقها اناس مدنيون، وتغير الوضع في سنة ١٨١٥ وأصبحت الخيول من صلب وحدات المدفعية يسوقها الجنود ويركب رجال المدفعية في عربات الذخيرة .

وهكذا غدت المدافع من أسلحة الميدان كسهم في القتال إلى جانب الفرسان

والرجالة على السواء بفضل قدرتها على الانتقال السريع من مكان الى آخر .

***

أحـــدث ظهور البنادق الحديثة مشكلة تكتيكية ، واختلفت الآراء بين توزيعها على أفراد معينين في مختلف الوحدات ، أو تأليف وحدات مستقلة من حملتها لاطلاق نيران مركزة في الميدان كلما دعت الحاجة .

وعندما ظهرت القنبلة اليـــدوية في أواخر القرن السابع عشر ، كان من المألوف اختيار ثلاثة رجال أو أربعة من ذوي الاجسام الضخمة في كل وحدة لتدريبهم على استعمال هـــذا السلاح ... وما أن أطل القرن الثامن عشر حتى كانت كل فرقة تضم حضيرة لرمي القنابل .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ، اعلنت القيادة العليا في الجيش البريطاني أن مساندة رماة القنابل اليدوية عديمة الجدوى ، ولكن هذا النوع من السلاح استعاد قيمته في الحرب العالمية الاولى بعـــد أن بلغت القنبلة حداً مرموقاً من الاتقان ، واصبح جميع الجنود يحملونها ويتدربون على الرمي بها .

***

كانت معركة واترلو آخر المعارك الكبيرة في مأساة طويلة حفلت بالعواطف والآلام والوحشية والحمق . فقد اختلط فيهـا القديم بالجديد ، والتحمت بقايا الماضي ببوادر المستقبل، ونزل الجيشان المحتربان الى ميدانها لبلوغ نتيجة حاسمة، فإذا بها تسفر عن غروب شمس وشروق شمس جديدة . ولم تحدث بعدها معركة مثلها من حيث نهاية نتائجها الكبيرة . فقد اريقت أنهار من الدماء في الحرب الأهلية الاميركية ، ولكن لا معركة انتيتام ولا معركة جتسبرغ ولا معركة كولدها ربر اسفرت عن مثل ما اسفرت عنه معركة واترلو ، ولم تكن معركتنا

فردان والسوم سوى كابوسين رهيبين من جملة كوابيس الحرب دون ان تكون لهما نتائج نهائية تضع حداً للحرب . كما أن معركة ستالنغراد ، ومعركة العلمين ، ومجزرة شواطىء نورمانـــديا ، لم تكن الا نقاط تحول باتجاه الحرب العالمية الثانية .

كان ميـدان العمليات الحربية لا يتجاوز ثلاثـة أميال أو أربعة طولاً ، وميلين عرضا . وفي هذه الحلبة الضيقة كانت تتمركز الخطط الحربية بما فيها من المهارة التكتيكية والبراعة الاستراتيجية حتى سنة ١٨١٥ . وفي معركة واترلو كان في الجيشين المتقابلين جنود من امم مختلفة ، بينهم المحترفون والارستقراطيون والفلاحون المأجورون ، والمتطوعون الملتهبون حماسة والمرتزقة الطامعون بالكسب . وكان وراء الجيشين سياسيون شعبيون ، وصحفيون حديثو العهد ، وكل من الجانبين يدعو لمبادىء تناقض مبادىء الآخر .

انتظر نابوليون حتى تجف ارض الميدان كي يسهل عليه التجمع والمناورة ، وخصوصاً تنقل مـدفعيته الحـديثة . فكان قتال ضار مرير ، وكانت غارات الفرسان الكاسحة ، ثم برزت كتائب ولنغتن المتراصة من الرجالة ذوي المعاطف الحمر الذين احرزوا النصر الكبير الأخير . كانوا يسيرون تحت وابل من الرصاص وكأنهم يقومون بنزهة ، حتى اذا اصبحت المسافـة بينهم وبين العـدو خمسين ياردة ، بادروا الى اطلاق نيرانهم . لم يزعزهم قصف المـــدفعية ، ولم تفرّقهم غارات الفرسان الكاسحة ، فثبتوا في المعركة متجمعين ، متراصين ، حتى كان لهم النصر .

بعد هذا ، جاءت التطورات التكتيكية الناجمة عن الثورة الصناعيـــة ، فتضخمت الجيوش واتسعت ميادين القتال ، وقل الاصطدام المباشر بين المقاتلين ، حتى لتبدو معركة واترلو ، رغم ما جاءت به من التطورات العسكرية الحديثة في حينها ، كأنها من معارك الاسكندر أو قيصر ، ومثلها مثل معركة «الطرف الأغر»

البحرية التي تعود الى مجموعة معارك الرومان او الارمادا الاسبانية .

ومن البديهي ان هذا الأمر لم يكن واضحاً لرجال السياسة في ذلك العصر خصوصاً اولئك الذين كانوا يسيرون في شوارع واشنطن غير المعبدة عام ١٨١٥. وكانت الحرب الاميركية الصغيرة قد انتهت كما انتهت الحروب الكبيرة ، فكانت ردة الفعل في الداخل خلافاً سياسياً بشأن مصير الجيش . وكان من الضروري ان يتم تسريح الجيش عملاً بنص الدستور ، فدفعت رواتب الجنود وبيعت السفن ، ولكن الدولة ادركت انه لا غنى للبلاد عن الاحتفاظ بقوة دفاعية ، لأن الزمان قد تغيّر ...

ففي ربيع سنة ١٨١٥ ، جرى تخفيض عدد الجيش النظامي ، الذي كان قد بلغ خمسين كتيبة أي حوالي ثمانية وثلاثين الف مقاتل ... وتم وضع تصميم جديد لانشاء قوة بحرية وبوشر تنفيذه سنة ١٨١٦ ، وكان يقضي ببناء ثلاث وحدات بخارية لخفر السواحل ، و ١٢ بارجة مسلحة بمدافع عيار ٤٤ مم و ٩ سفن قتال مسلحة بمدافع عيارها ٧٤ مم . كما تم تعيين لجنة من الخبراء والمهندسين لوضع تصميم شامل للتحصينات الدفاعية على السواحل .

وكانت الغاية من هذه التدابير انشاء قوة عسكرية ذات وزن في الميزان الدولي . ولكن سرعان ما خمدت الهمم ، وغرقت ذكريات ١٨١٥ و ١٨١٦ في النسيان ، كما غرقت ذكريات الحروب السابقة في حقبة من الراحة الطويلة والرخاء وسعة العيش . ورأى المشرفون على الشؤون العامة ان التصاميم العسكرية باهظة النفقات ، فخفضت الاعتمادات البحرية الى نصفها ، وهجرت السفن الثقيلة التي كان قد تم بناؤها ، وصرفت اعتمادات السفن التي لم تكتمل على شراء الخشب وتجميعه ، على ان يؤجل البناء حتى تدعو الحاجة الى مباشرته .

* * *

كان تصميم التحصينات الساحلية بطيئاً ، فبدأ متأخراً وكان تنفيذه محفوفاً بالعراقيل ، وتم تلزيم بناء قلعة مونرو البحرية سنة ١٨١٧ ، وهي السنة التي انتخب فيها الرئيس مونرو ، ولكن القلاع الاخرى لم يباشر بناؤها الا بعد مدة طويلة .

كانت الدراسة التي وضع بموجبها التصميم العام كانت سطحية وناقصة ... وعندما طلب الكونغرس سنة ١٨٢٠ الى وزير الحربية ان يخفض عدد الجيش الى ستة الآف رجل ، اضطر ان يطرح شؤون الجيش برمتها على بساط البحث وذلك من أجل وضع دراسة جديدة بشأنها .

ومهما يكن من أمر فقد تبين ان البلاد بحاجة الى اعادة النظر في الاسس التي تقوم عليها قواها الحربية . ففي نظر العسكريين المجربين، امثال ونفيلد سكوت وجاكوب براون ، كانت الميليشيا التي يفترض فيها أن تكون العمود الفقري للقوات الدفاعية ، عديمة الجدوى على الصعيد العسكري الصرف ، وكان الجيش النظامي ، وقوامه عشرة آلاف رجل ، لا يكفي لحراسة الحدود ، ولا للقيام بالعمليات الحربية ضد الهنود ، فكيف اذا انخفض عدده الى ستة آلاف رجل كما ارتأى الكونغرس ذلك ؟ !

حاول وزير الحربية أن يجعل من الجيش قوة قابلة التوسع والتضخم كلما دعت الحاجة ، ولكن هذه المحاولة لم تكن من ابتكاره ، فقد عثر بعض المحققين على وثائق عسكرية تثبت ان هذا الرأي يعود إلى جورج واشنطن ونوكس . ولكن ضرورة تطبيقه لم تظهر في ايامهما بقوة كما ظهرت ايام وزير الحربية كالهون التي تفاقمت فيها مساوىء ازدواجية السلطات .

كان الجيش الموسع الذي أراده وزير الحربية يتألف من المتطوعين ، لأن الخدمة الاجبارية لم تكن واردة . وعلى هذا الجيش أن يقوم بمهمتين حماية القلاع

ومراكز الحدود لابعاد شر الجيران الطامعين والاستعداد الدائم للحرب تحسباً للطوارىء . واذا كانت المهمة الاولى يكفيها عــدد قليل من الجنود ، فالمهمة الثانية تتطلب الاحتفاظ ، في ايام السلم ، بقوة كبيرة العدد ، حسنة التدريب على مستوى الأحوال الدولية . وقد كتب الوزير في هذا الصدد يقول :

« يجب الا نترك جزءاً من قواتنا في بداية الحرب دون ان نعيد تدريبه ... ونخلقه من جديد . فالفرق الوحيــد الذي يجوز وجوده في الجيش بين حالتي الحرب والسلم يجب ان يكون مقتصراً على العدد .

وكان من المنتظر ان يؤدي هذا الاتجاه الى اتخاذ التدابير اللازمة في ايام السلم لايجاد هيكل الجيش . ومتى نشبت الحرب تمكن هــذا الهيكل من الاكتمال والاتساع بسرعة حسب الخطة الموضوعـة له . مثال ذلك ان الفصيل في أيام السلم ، يتألف من ٣٧ رجلاً ، ولكنه قابل للزيادة وربما يصبـح ٧٠ رجلاً اذا دعت الحاجة . وعندما يشتد الخطر ، تنقسم كل سرية إلى قسمين ويصبح لكل قسم منها قوة توازي قوة السرية بكاملها ، وبهـذه الطريقة ترتفع قوة الجيش النظامي تلقائياً من ٦ آلاف رجل إلى ١١ الفاً أو ١٩ الفاً في الأحوال الشديدة الخطورة .

وكان من المفروض أن يبادر المتطوعون إلى سد الثغرات الناجمة عن هذا التقسيم ، دون ان تتغير ملاكات الضباط الدائمــة التي تؤلف هيكل الجيش الاساسي . أما تدريب المتطوعين فيجري بسرعة على يــد المجندين الدائمين في صلب الهيكل . وبذلك تكون الامة لنفسها قوة عسكرية لا تمس حقوق حكام الولايات فيما يتعلق بالميليشيا .

فشلت خطة الوزير لانها قامت على اعتبــارات مقتبسة عن اساليب القرن الثامن عشر الحربية ، ولأن الأحوال الجـديدة اوجبت انشاء جيش في مستوى

الامة وعلى اتساع نطاقها، فظلت المشكلة قائمة تتخبط بين تنظيم الميليشيا وفرض الخدمة الاجبارية ، وتحديد صلاحيات الحكومة المركزية وحقوق الولايات . الا أن هذه المشكلة بدت طبيعية يومئذ فانصرف الكونغرس عن معالجتها ، وحدد القوات المسلحة بستة آلاف رجل ...

وهكذا لم تطبق وجهة نظر وزير الحربية مطلقاً ، مع أن عواملها واسبابها باقية في أساس السياسة الحربية الاميركية ، وهذا ما اتضح عندما اعتمدت السلطات نظام القرعة الاجبارية سنة ١٩١٧ ، وعندما انتهت الحرب بين اميركا واسبانيا .

* * *

وجملة القول ان القوات المسلحة النظامية في الولايات المتحدة استقرت على ٦١٨٣ رجلاً مدة زمن طويل ، وكثيراً ما كانت تنقص ويتعذر ملء الفراغ .
وكانت مهمة الاسطول الأميركي مقتصرة في البدء على القيام بدوريات للمراقبة والحراسة ، ثم استطاع اخضاع القراصنة وحماية سفن صيد الحيتان ، ولم تكن الغاية من انشائه أن يكون سلاحاً في حالة نشوب حرب ما .

* * *

واستتب السلام في العالم ، واضمحلت جحافل نابوليون الجرارة ، وتفرّقت سفن اساطيله ، ولكن الحروب الأوروبية اكملت الثورة الأميركية ، فثبت أن الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة المسيطرة في غربي المحيط الاطلنطي ، لأن الامبراطورية الاسبانية هناك كانت على وشك الانحلال ... ومما رسخ دعائم الدولة الجديدة واكسبها قوة ومناعة هي اتفاقية « رش باغوت » التي وقعت عام ١٨١٧ وازالت الصفة العسكرية عن الحدود الكندية ، فلم يبق هناك تهديد بالغزو أو بالتدخل في شؤون الدولة الجديدة من قبل القوت الأوروبية

المرهوبة الجانب . ثم كانت اتفاقية الحدود سنة ١٨١٨ ، فنقلت الحد الشمالي وجعلته على خط العرض التاسع والاربعين وحتى جبال روكي .

وكذلك تم الاستيلاء على فلوريدا ، ولم تحدد مساحة لويزيانا في الاتفاقية التي عقدت بشأن شرائها ، فاطمأنت البلاد الى وضوح كيانها الجغرافي . وفي سنة ١٨٢٣ أعلن الرئيس مونرو مبدأه الحيادي الشهير الذي يحمل اسمه ، وذلك بعد أن ضمن تأييد الاسطول الملكي البريطاني ، فازدادت الاوضاع الاميركية رسوخاً ومتانة .

جعلت هذه المقومات مركز الولايات المتحدة في غاية المناعة ، لأنها بسطت سيادتها التامة على امبراطورية غريبة بكر مفتوحة للاستثمار ، ولها منفذ طبيعي للتجارة عبر البحر الذي لا تسد طرقه ، ولم يبق هناك ما تخشاه سوى خطر الهنود الحمر الزهيد والمتضائل يوماً بعد يوم ، وخطر آخر بعيد قد يعرقل مواصلاتها التجارية بحراً اذا نشب نزاع سياسي .

إن نزول الطاقة البخارية إلى ميدان العمل أوجب اعادة النظر في تصاميم الأساطيل البحرية وتشكيلاتها ، فاتخذ الكونغرس قراراً بانشاء ثلاث وحدات بخارية للدفاع عن السواحل سنة ١٨١٦. وسنة ١٨٣٥، كان في الولايات المتحدة حوالي سبعمائة مركب بخاري يملكها المواطنون ومعظمها مراكب نهرية أو عاملة في البحيرات . والأهم من ذلك هو أن عدد مصانع الحديد القادرة على بناء السفن البخارية كان يزداد بسرعة مدهشة، بينما كانت التجارت مستمرة في اوروبا لبناء سفن حربية تسير بقوة البخار .

وصحب نزول الطاقة البخارية الى الميدان تطوّر ثوري كبير الأهمية، ففي سنة ١٨٢٢ نشر ضابط فرنسي من سلاح المدفعية يدعى هنري جوزف بيهان ، نشر اطروحة دعا فيها إلى تسليح الاسطول الفرنسي بمدافع تقذف القنابل المجوفة

المحشوة بالمتفجرات ، بينما كانت القذائف التقليدية كروية مكتنزة تحدث في السفن المعادية ثغرة تتسرب منها المياه. أما القنبلة الجديدة فتدمر وتحرق وتبيد وخصوصاً اذا اصابت سفينة تحمل خشباً أو مواد سريعة الالتهاب .

كان عنوان تلك الاطروحة التاريخية : « السلاح البحري » . وكان واضعها يهدف إلى تزويد فرنسا بسلاح جديد يجعل اسطولها قادراً ، رغم قلته ، على مواجهة الاساطيل البريطانية الوافرة العدد، وعلى انتزاع السيطرة البحرية منها.

ولكن الزعيم مني بالخيبة ، فقد رفضت المراجع الفرنسية الأخذ بوجهة نظره ، وبادرت بريطانيا إلى صنع القنبلة المتفجرة ، مما ساعدها على استمرار سيطرتها على البحار ، وكانت نتيجة هذا التطور انصراف الدول الى بناء السفن المصفحة بالصلب لمقاومة السلاح الجديد الذي يفتك بالسفن الخشبية فتكاً ذريعاً .

وكانت السفينتان الأميركيتان « ميسيسبي » و « ميسوري » من الخشب ، الا أن مدافعها كانت تطلق قنابل متفجرة .

وفي سنة ١٨٤١ قابل الربان الاميركي روبرت ستوكتن المهندس السويدي جون اريكسون في بريطانيا ، واهتم بتجربة ارخميدوس ، أي المروحة الدافعة في السفن . ولما عاد إلى اميركا حصل على ترخيص يخوله بناء هذا النوع الجديد فاتصل على الفور بالمخترع السويدي ودعاه الى اميركا. وأكب الرجلان على العمل لاخراج السفينة الجديدة الى الوجود . فكانت « برنستن » أول سفينة حربية تسير بقوة الدفع الناجم عن المروحة . وقد حصل اريكسون على الجنسية الاميركية وأقام في الولايات المتحدة حيث واصل اعماله بنشاط ونجاح كبيرين.

وحلت المروحة المشكلة الكبيرة التي خلقتها العجلات الجانبية ، فإذا بالقوة

الدافعة محمية تحت الماء واذا بالآلات المحركة تستقر في قعر السفينة ، وتستقر المدافع على السطح .

***

ومن نتائج هذا الاختراع الكبير انه اعاد إلى السفن الحديثة ميزات السفن الشراعية مضيفاً اليها القوة الآلية الدافعة التي تسمح باجتياز المسافات الشاسعة

وقد تبين أن استعمال المروحة والاشرعة معاً في سفينة واحدة هو خير ما يمكن الوصول اليه يومئذ ، للتغلب على الصعوبات المختلفة .

وبقيت هناك مشكلة واحدة وهي أن وزن المحرك الثقيل كان يوجب التقليل من عدد المدافع ، مما اعاد إلى الاذهان اطروحة الزعيم الفرنسي بيهان ، لأن القنابل المجوفة أقل وزناً من القنابل المكتنزة .

وكانت مدافع السفن على اختلاف انواعها ، متحركة : اي انها كانت تطلق نيرانها ثم تسحب من مكانها لتحشى من جديد . ولم يتوصل المخترعون الى صنع المدافع المركزة التي تدور على نفسها وتصوّب فوهتها الى جميع الجهات إلا في عام ١٨٦٠ .

صمم اريكسون مدفعاً حملته الباخرة « برنستن » أما النوع الآخر من المدافع فكان نسخة عنه نقلها ستوكن ... وفي رحلة قامت بها السفينة « برنستن » سنة ١٨٤٤ في نهر بوتوماك ، اطلق المدفع الثاني قذيفة على سبيل التسلية . فانفجر المدفع وقتلت شظاياه وزير الحربية الاميركية ووزير البحرية وغيرهما . وقتل في الحادث دافيد غاردنر صاحب جزيرة غاردنر المحاذية للونغ ايلند ، وكان الملك البريطاني شارل الأول قد وهب هذه الجزيرة لآل غاردنر سنة ١٨٤٠ .

ونجت ابنة غاردنر من الحادث واصبحت الزوجة الثانية لرئيس الجمهورية تيلر .

ولم تكن تلك المأساة عديمة الفائدة ، فقد حفزت الخبراء نحو العمل لتحسين المدافع والقذائف ، فتبين أن الوسيلة الفضلى لاتقاء خطر انفجار القنبلة هي تصفيح السفن بالواح من الصلب . وحصر الخبراء همهم في تصفيح القسم الظاهر من السفن فوق الماء .

وفي سنة ١٨٤٢ ، عقد الكونغرس مع روبرت ستيفنس اتفاقاً على بناء سفينة حربية كاملة التصفيح ذات محركي دفع وجاء في نص الاتفاق انه يجب أن تكون هذه السفينة قادرة على مقاومة القنابل المتفجرة .

ولو قدر لهذه السفينة أن يتم بناؤها وتظهر الى حيز الوجود ، لكانت باكورة الاساطيل البخارية المصنوعة من الصلب في الأزقة الحديثة .

ومهما يكن من أمر ، فان بناء هذه السفينة كان خطوة تقدمية لا يستهان بها . فقد ادخلت عليها تعديلات كثيرة وتوسيعات مختلفة ، فكانت طاقة محركاتها توازي طاقة « غريت ايسترن » . ولكن الأموال المخصصة لها نفذت قبل انجازها ، مما اضطر السلطات الى اتلاف الآلات وتفكيك ما كان قد بني منها واستعمال الحديد في شؤون اخرى سنة ١٨٧٥ .

***

ان السنين الخمس والعشرين التي تلت معركة واترلو كانت حافلة بالتطور التقني العظيم ، ولكن هذه الحقبة لم تشهد الا فترات قصيرة من الحروب الصغيرة ، ولم يتسن خلالها للخبراء ان يجربوا الأجهزة والاعتدة الحربية الحديثة التي يدور الشك حولها . الا أن بعض الاختراعات العديدة كان ناجحاً ، ولم يعد هناك من

حاجة الى تجربته . فمنذ أوائل هذه الحقبة ظهرت البنادق الصالحة للاستعمال ، حتى تحت المطر والثلوج ، وذلك بفضل اختراع البارود الجديد . وقد انتجت المصانع الأميركية آخر دفعة من البنادق القديمة سنة ١٨٤٢ ، اي قبل حرب المكسيك ببضع سنوات . وبوشر انتاج البنادق الجديدة التي يستعمل فيها البارود الحديث ، وهكذا أصبحت بندقية الولاعة والصوان من مخلفات العصور القديمة .

وفي سنة ١٨٣٠ كان الباحثون عن بندقية عسكرية سهلة الاستعمال قد اهتدوا الى طريقة مجدية ، اذ اقترح ضابط فرنسي آخر يدعى دلفين ، العمل على اساس مبدئين : الأول جعل الرصاصة مستطيلة وبيضوية الشكل ، لا كروية كما كانت ، والثاني جعل هذه الرصاصة صغيرة الحجم لتكون سهلة الانزلاق في ماسورة البندقية ، بشرط أن يتضخم اسفلها بفضل ضربه حتى تملأ الماسورة ويصبح اطلاقها ممكناً . ولكن هذا المبدأ ظل ، نظرياً ، صعب التطبيق حتى اواخر العقد الخامس من القرن التاسع عشر ، أي حتى اخترع الفرنسي « منـّي » الكرة المعروفة باسمه ، وقد اسهم اختراعه هذا اسهاماً كبيراً في قتل بضعة آلاف من الشبان خلال الحرب الأهلية التي نشبت بين الولايات الأميركية .

وبعد سنوات قليلة اصبحت البنادق الجديدة بدورها من العاديات القديمة . وابرز ما في هذه الحقبة من التاريخ أن القواعد العامة التي تطوّرت على اساسها الصناعة والأساليب التقنية لم تكن ذات هدف حربي ، سواء اكان في الولايات المتحدة او البلدان الاخرى .

فالصناعة الاميركية نمت وازدهرت على اساس الحاجات المدنية ، كالسكك الحديدية والمحركات والزوارق ومصانع توليد الطاقة الآلية ومعامل النسيج . ولكن الحاجات العسكرية لم تكن مهملة ، فقد ظلت وثيقة الارتباط بالتقدم الصناعي الذي تحقق على الصعيد المدني .

والدليل الواضح على هذا الترابط هو أن الاكاديمية الحربية الاميركيــة « وست بوينت » ظلت بالفعل ، وطوال سنين عديدة ، المعهد التقني والعلمي العالي الوحيد في الولايات المتحدة ، وكثيراً ما كان خريجوها بين قادة التطور العلمي والتقني والهندسي في البلاد .

وفي سنة ١٨٢٤ ، تخرّج في « وست بوينت » شاب من ولايــة انكلترا الجديدة ، هو روبرت باروت ، فعهد اليه بقيادة الوحدة المدفعية الثالثة . ولم تمض عليه سنوات حتى انصرف الى الاهتمام باللوازم والاعتدة الحربية ، فاستقال سنة ١٨٣٥ ليصبح مديراً مسؤولاً عن مصنــع وست بوينت في كولدسبرنغ من ولاية نيويورك، وهي المؤسسة التي صنعت محركات السفينة « فولتن » الثانية بعد سنة واحدة .

وفي تلك الأثناء التزمت المؤسسة نفسها صنع محركات السفينة ميسوري ، فاكملت عدتها واصبحت في مقدمة المؤسسات الصناعية الأميركية .

ولم يقتصر نشاط باروت على ادارة هذه المؤسسة ، بل وجه اهتمامــه الى اعتــدة الجيش ... وقبل نشوب الحرب الأهلية ، كان قد انجز مدفع باروت الشهير والذي اصبح من اهم اسلحة الميدان في الحرب الأهلية بعد أن صنعت منه المئات من مختلف العيارات ، وقدر له ان يسهم ، هو الآخر ، في قتل الالوف من الشبان الامركيين .

***

جمعية السلم الاميركي

نشأت اولى جمعيات السلام الاميركية في نيويورك وانكلترا الجديدة واوهايو في سنة ١٨١٥. وبواسطة هذه الجمعيات التي تعددت وانتشرت فيما بعد، راح رجال الدين المتحمسون للسلم والتجار وأصحاب دور النشر يسعون لاطلاق حركة سلم شعبية منظمة، فتم لهم ما ارادوا، وتألفت سنة ١٨٨١ «جمعية السلم الامريكية» التي كانت تمثل حركة واسعة النطاق، كبيرة الانتشار في جميع الولايات. وعقد أول اجتماع لحركة سلم دولية، في لندن سنة ١٨٤٣، واستطاع شارل سمر تزويد دعاة السلم بسلاح عاطفي فعال عندما وقف يخطب في ايلول سنة ١٨٤٥ قائلاً، يتحدى الأزمات: هل في عصرنا سلم لا يكون شريفاً، وهل هناك حرب يمكن ان تكون غير شريفة؟ وقال أخيراً ان نزع السلاح هو الشيء الوحيد الذي يقره العقل.

وبهذا المنطق فرض انصار السلم انفسهم، فلم يبق لدعاة الحرب مناص من اخذ هذه الحركة بعين الاعتبار.

وعجزت ادارة الرئيس تيلر سنة ١٨٤٢، عن الحصول على نفس المبلغ الذي حصلت عليه في السنة السابقة، ولم يتسن لها تنفيذ المشروع الضخم الذي وضعته. وقد يعود سبب اخفاقها إلى مقاومة دعاة السلم، أو الى مساعي المطالبين بتخفيض النفقات الحربية، أو الى أنصار العزلة الامريكية، أو الى تنافس المتزاحمين على الالتزامات، او الى هذه العوامل كلها مجتمعة.

ولم تكن جميع الاقتراحات التي قدمت عام ١٨٤١، لم تكن كافية لتسليح البلاد تسليحاً يجعلها قادرة على الصمود في وجه بريطانيا اذا نشبت الحرب. اما

اذا اعلنت الولايات المتحدة الحرب على المكسيك ، كما كان يلوح في الافق ، فان الأسطول يصبح عديم الجدوى ، ولا يكون تنفيذ المشروع الذي وضع بشأنه الا ضرباً من الالهاء لزيادة عدد السفن العاطلة عن العمل .

وعلى الرغم من هذه الاعتبارات وهذه الصعوبات المتراكمة ، ظلت المراجع المسؤولة تهتم جداً بالشؤون العسكرية . وبينما كانت الانظار منصرفة كلياً عن الاستعداد للحرب راح سنتانا ، رجل المكسيك القوي، وقائد قواتها المسلحة، يقوم بحركات عدوانية تمس حرية تكساس ، وتدخل في اعمالها التجارية عنوة ، وحرّض بعض انصاره فيها على التخريب والتقتيل واشاعة الذعر والفوضى . وفي سنة ١٨٤٤، قدم الرئيس تيلر إلى الكونغرس مشروع معاهدة لضم تكساس الى الولايات المتحدة . ولسوء الحظ ، اصطدم هذا المشروع باعتبارات تتعلق بحرية است[illegible]ام الرقيق ، فرفضه الكونغرس .

وفي خريف ذلك العام تمكن بولك ، وهو الرجل العملي الحازم جداً ، من الفوز برئاسة الجمهورية فرفع فوراً شعار الحرب .

وكان عليه أن يواجه احتمال نشوب القتال على جبهتين : الجبهة البريطانية والجبهة المكسيكية ، وأصبح من المرجح ان تنشب الحرب على هذه الجبهة لأن تيلر كان قد وقع معاهدة ضم تكساس من قبل أن يغادر منصب الرئاسة .

ومن الواضح أن بولك كان يعلم ما يريد ، ويدرك نتائج ما يفعل ، فلم يتوقع مطلقاً الاشتباك في قتال مع بريطانيا ، بدليل انه لم يقم بأقل استعداد في هذا السبيل . وحتى على الجبهة المكسيكية ، لم يكن يريد الحرب ، ولكنه انتهج سياسة حكيمة اتسمت بالصبر واليقظة ، وحاول ضم تكساس دون اللجوء إلى القتال .

والجدير بالذكر ان الحرب لم تكن في نظر بولك ومعاصريه كارثة كما كانت

في نظر الذين خرجوا من الحروب النابولونية ، بل كانت خادمة للسياسة وذات مدى محدود وثمن محدود .

اننا لا نستطيع ان ندرك اليوم العوامـــل الخفية التي جعلت بولك يواجه الأحوال الحرجة والأزمات الخطيرة بذلك الاطمئنان العجيب الذي تجلى في تصرفاته ، حتى كاد ان يكون نوعاً من اللامبالاة .

ففي كانون الاول ١٨٤٥ ، عندما رفع اليه وزير الحربيـــة تقريره الشهير الذي ينذر بنشوب الحرب بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، خلال اسبوعين ، والمطالب باتخاذ التدابير اللازمة للدفاع عن البـــلاد ، اجاب الرئيس ببرودة مذهلة : « اذا استمر السلام فلن يذهب ما ننفقه الآن هدراً . اما اذا وقعت الحرب فيصبح اتخاذ التدابير الدفاعية امراً لا مناص منه ».

وبالفعل ، فلم يأمر باتخاذ التدابير الوقائية تحسباً للطوارىء ، لأنه لم يشعر بضرورة الاستعجال ، فالمواصلات كانت طويلة وصعبة ولم يكن في وسع العدو ان يباشر القتال في وقت قريب .

***

بعد انتهاء حرب المكسيك ، دخلت سياسة أميركا العسكرية مرحلة من الاستقرار الرتيب الذي لا يختلف عن الركود. وخلال هذه الحقبة كانت تتفجر في البلاد طاقات وامكانات جديدة وآمال واسعة لم يخطر في بال احد ، انها ستؤدي الى نتائج خطيرة على الصعيد العسكري .

اتجهت أفكار الناس وجهودهم إلى حقول العمل الجديدة التي فتحت امامهم ، وهي مترامية الأطراف ، زاخرة بثروات هائلة لا ينضب معينها ، ومنها فتح

المناطق الجنوبية الغربية ، والوصول الى شواطىء المحيط الهادىء والاندفاع الجنوني الى مناجم الذهب في كاليفورنيا ، واتساع شبكة خطوط السكك الحديدية وتوفير المواصلات البرقية ، وتطوير الصناعة الآلية في معامل الصلب والنسيج وفتح اسواق اليابان سنة ١٨٥٤ وقد كانت من قبل مغلقة في وجه العالم ، وتوسيع المسامك وتجارة صيد الحيتان ، وازدهار الأعمال التجارية بين كاليفورنيا والصين ، واستخدام السفن البخارية في الانهار الغربية من البلاد . فكان من الطبيعي أن ينصرف الناس الى السعي وراء المكاسب متناسين شؤون الحرب والدفاع .

وفي سنة ١٨٥٤ ، نشبت في اوروبا حرب القرم ، فلم تعرها الجمهورية الاميركية الفتية اهتماماً يستحق الذكر ، وأعرب كثيرون من رجال السياسة الاميركيين عن ارتياحهم لأن هذه الحرب قد شغلت الاوروبيين في شؤونهم الداخلية وابعدتهم عن التطلع الى القارة الأميركية التي كانت تتطور بسرعة مدهشة لكثرة ما فيها من امكانيات التقدم والثراء ورغد العيش .

ولكن الولايات المتحدة الناهضة ، القوية ، الغنية بالنشاط والموارد ، كانت تتمخض بشر مستطير ، وبفتنة داخلية مخيفة تهددها بالتفكك والانهيار ، وتجرها الى كوارث ونكبات أشد وادهى من تلك التي انزلتها باوروبا حروب نابوليون ، ولم تكن هذه الفتنة الا الحرب الأهلية التي اندلعت نيرانها من قضية منع الاتجار بالرقيق وتحرير العبيد .

وعلى اثر انتهاء حرب المكسيك ، سرّح المتطوّعون وخفض عدد الجيش النظامي بالتسريح والمكافآت حتى اصبح عشرة آلاف رجل . وبعد اخذ رد طويلين احتفظ بوحدتين من مدفعية الخيالة ، واربع وحدات من مدفعية الميدان . وكانت مهمات هذه القوة تقتصر على حراسة الحدود ومقاتلة بعض قبائل الهنود الحمر . وابقي كذلك على الكتيبة النظامية من القناصة ، وهي

الكتيبة التي سمح الكونغرس بانشائها سنة ١٨٤٦ ، على ان تتولى أمرها ولاية اوريغون . وكان قتال الهنود الحمر يحتم الاحتفاظ بقوة كافيـة من الخيالـة ، فبادرت القيادة الى تعزيز هذه القوة في بعض المناطق .

لم يكن الاسطول الاميركي يومئذ صغيراً وقليل الأهمية ، بل كان يضم عشر سفن حربية مختلفة تراوح من حيث الضخامة والقوة بين « بنسلفانيـا » الجبارة المسلحة بماية وعشرين مدفعاً وقد بنيت سنة ١٨٣٧، وبين « كولمبوس » المسلحة بثمانين مدفعاً ، وقد بنيت عام ١٨١٩ .

والى جانب هذه الوحدات الكبيرة كان الاسطول يضم ايضاً ١٣ بارجة مسلحة بمدافع عيارها ٥٠ مم ، ومعظمها على اتم الاستعداد للعمل، وست بوارج بخارية بينها البارجة « فرانكلين » التي كانت من الطراز القديم ثم حوّلت الى سفينة بخارية وتركت البوارج الخمس القديمة على حالها .

اما البوارج الست التي قرر الكونغرس بناءها فلم تكن كافية لدرء خطر الاسطول البريطاني الضخم . وقد تبين فيما بعد انها لا تصلح حتى لخوض حرب صغيرة في البحر الكاريبي ، لان الجزء الغاطس منها تحت المـاء لا يسمـح لها الا بعبور المياه العميقة . ولذلك تعذر عليها دخول الموانىء الواقعة على خليـج المكسيك التي كان من المقرر ان تكون قواعد لها .

وفي شهر كانون الاول ، سنة ١٨٥٤ ، قدم وزير الحربية دوين مشروعاً جديداً يطلب فيه بناء سفن خفيفة تستطيع التحرك في المياه القليلة العمق ، ولكن حماسة الرأي العام لتعزيز الاسطول كانت قد تلاشت في ذلك الحين ، فطرح المشروع على المناقشة ودار بشأنه جدل طويل استمر حتى نهاية دورة المجلس في آذار ١٨٥٧ ، وعندما اقر المشروع بفضل تأييد نواب الجنوب ، لم يدر أحد ما هي فائدة تلك السفن الخفيفة ... ثم ظهر فيما بعـد انها من أفضل الاسلحة التي اسهمت في قهر الجنوبيين الذين طالبوا ببنائها .

ولم تكن المراجع المسؤولة بحاجة في تلك الفترة ، الى اعادة النظر في النظام العسكري العام . فبين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٦١ أضيفت الى الجيش وحدتان جديدتان وارسلتا الى مناطق الحـــدود لابعاد الهنود الحمر عنها وللقيام بمهمات الحراسة العادية ، وبقيت الميليشيا على حالهـــا . اما تعزيز الاسطول فكان ذريعة لخلق المنازعات السياسية المحلية ووقوع المشادات بين الموالين والمعارضين.

كما ان العقد الخامس من القرن التاسع عشر تميز بموجة من الاهتمام بالشؤون العسكرية فتألفت بضع وحدات نظامية في مختلف الولايات . ثم نشأت الفرقة ٧١ الشهيرة في ولاية نيويورك سنة ١٨٥١ . وعمدت ولايات اخرى الى تدريب قواتها تدريباً حسناً وتزويدها باسلحة جديدة ، ولكن هـــذا الاهتمام تلاشى بانتهاء ذلك العقد.

* * *

حرب الشمال والجنوب

انطلقت الحرب من فوضى الخداع والمراوغة وسوء التقدير ، ولم يكن احد من الجانبين قد استعد للقتال او اخذ بعين الاعتبار القوة العسكرية التي سيواجهه بها خصمه ، او فكر بنتائج ذلك الصراع المجرم وما ينزله بالبلاد من اهوال . وكان على الامة ان تتحمل الدمار ، ومرارة الآلام ، وافدح الخسائر في الأرواح والممتلكات . وان تدفع لتلك الحرب ثمناً باهظاً جـــداً بالنسبة الى الأسباب التافهة التي أدت الى الانفجار . ولا تزال الآراء متضاربة حتى الآن بشأن الأسباب التي دفعت الشمال والجنوب الى مثل ذلك التناحر الفظيع .

ويقال ان مبدأ « ديموقراطية الحرب » الذي اعلنته الثورة الفرنسية ونشرته

الحروب النابولونية هو من الاسباب الرئيسية لتلك الكارثة . ولكن الواقع التاريخي الأكيد هو أن الشعب الاميركي لم يكن يريـــد تلك الحرب في كلا الجانبين ، فقد ظل الجنوبيون حتى اللحظة الأخيرة يؤمنون بالوصول الى حل سلمي عن طريق المناورات السياسية واصر الشماليون على معارضة الصراع المسلح ، حتى وجدوا انفسهم أمام الأمر الواقع عندما انهالت قذائف الجنوبيين على قلعة سمتر . اذاً كيف اتخذت الحرب ذلك الطابع الجماهيري المخيف ؟

تلك هي طبيعة الديموقراطية في تطوّرها وانتشارها ورسوخ مبادئهـا . فالسياسيون ورجال الصحافة ومحترفو الدعاية اسهموا جميعاً في اثارة الشعور الوطني وتحريك جماهير الشعب ، فكان ذلك التهافت الجماعي على الانخراط في صفوف المقاتلين سواء اكان في الشمال ام في الجنوب .

وما كان لتلك الحرب أن تجري بمثل الضراوة التي عرفت بها لو لم تتوفر لها تلك العوامل التي الهبت الصدور حماسة . وقد امعن الجانبان في البطش وسفك الدماء بلا هوادة حتى تملكهما الخوف وحلت الانهزامية والرغبة في الاستسلام محل الجرأة والاقدام .

ولا بد من الاشارة إلى ان الثورة الصناعية كانت قبيل الفتنة قد ترعرعت وشبت فقدمت الأدوات والآلات الحربية المختلفة وافسحت المجـــال لنشوب القتال فجأة دون ان يتوقعه احد ، ولوقوع تلك المآسي التي اتسمت بها جميع المعارك . ولولا وجود خطوط السكك الحديـــدية والتلغراف لما بلغت شدة الصراع ما بلغتـــه من الوحشية والعنف ، ولما استطاع الجنوب ان يبادر الى جمع مجالس ولايته ، وتأليف حكومته ، وحشد جيوشه في مراكزها المعينة ، ثم اصدار الأوامر التي فجرت الأزمة .

وعندما ادرك الجانبان ان الحرب ستقرر مصيرهما اجتمع كونغرس الشمال

وقرر استدعاء خمسمائة الف رجل لحمل السلاح . وقرر كونغرس الجنوب حشد أربعمائة الف مقاتل لنفس الغاية . ولم يسمع قبل ذلك الحين بمثل هذه الأعداد الضخمة الا عندما جنـّد نابوليون اوروبا الغربية وزحف الى روسيا سنة ١٨١٢. ولا بد لحرب تبدأ بمثل هذه القوات الهائلـــة من اللجوء الى عنف يكون في مستوى طاقاتها وامكاناتها ، وقد ساعدت الآلات البخارية على الاسراع في العمل ، مما جعل الكارثة اعمق اثراً وافدح شراً . ويقول المؤرخون ان الشمال حشد لهذه الحرب مليوناً وخمسمائة الف مقاتل ، بينما لم يحشد الجنوب سوى تسعمائة الف فقط . ولسنا بحاجة الى ذكر ما تحتاج اليه هذه القوات من الجهود والنفقات لتزويدها بالأسلحة والذخائر والملابس والاعتدة ولتأمين مواصلاتها ، وتموينها بالمواد الغذائية . أما الشمال فقد استطاع أن يواجه هذه الحاجة بتوسيع صناعته وزيادة انتاجها ، بينما اضطر الجنوب الى خلق صناعة جديدة واستطاع تزويد جيوشه بكل ما تحتاج اليه طوال ايام الحرب .

استمرت هذه الحرب الأهلية سبع سنوات ، فكانت معاركها وعملياتها الحربية المختلفة سلسلة متصلة الحلقات ، بدأت كموجة هائلة تجتاح كل شيء ... وبعد اربع سنوات اخذت كفة الشمال ترجح ، وكانت الخسائر التي كابدتها البلاد افدح مما حل بفرنسا سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ ، ولكن انتصار الشمال التام صان وحدة البلاد ، ووطد دعائم الحكومة المركزية وجعل نشوب الحرب بين الولايات من الامور المستبعدة .

***

ثورة العلم

في أواخر صيف ١٩٣٣ ، نشر لورنس ستالنغس كتابه التاريخي المصوّر تحت عنوان : « الحرب العالمية الأولى » ، فاعتبرت هذه التسمية نكتة مريعة ، لانها تعني ضمناً ان حرباً عالمية ثانيـــة ستنشب . وكان ادولف هتلر ، في ربيع ذلك العام ، قد تسلم زمام السلطة في المانيا ، بينما كان موسوليني يلقي خطبـــه النارية ، داعياً الى حرب .

وقبل سنتين، اي عام ١٩٣١، كان اليابانيون قد احرزوا انتصارهم المعروف في موقــدن وباشروا الزحف والتوسع في القارة الآسيوية لانشاء امبراطورية كبرى ، فأصبح من الواضح ان مأساة الحرب العالمية الاولى لم تكن الا حلقة في سلسلة حروب طاحنة، وان الآمال التي عقدت على بناء سلم دائم كانت وهمية لا يجوز التعويل عليها .

ابى المتفائلون التسليم باحتمال نشوب حرب جـــديدة ، ولكن ثمة بوادر عديدة كانت تدل على أن نوبة اخرى من العنف وسفك الدماء تقترب رويداً رويداً لتنتاب العالم .

وكان التراجع واللجوء الى الحياد هو رد الفعل الاميركي أمام الخطر المتفاقم. فمبدأ العزلة والابتعاد عن العواصف كان متأصلاً في الاذهان منذ عام ١٩١٥ . وعلى الرغم من التهافت على التسلح والاستعداد للحرب ، كانت الرغبـــة في سلامة البلاد من الكوارث اشد من الميل الى العمل على الصعيد الدولي لاجتناب الانفجار .

وانهار نظام تحديد القوات البحرية سنة ١٩٣٤ ، وبوشر بناء السفن الحربية للاسهام في بعث نشاط اقتصادي جديد، لأن الولايات المتحدة كانت تجتاز مرحلة من الركود، ولسد بعض الحاجات الاستراتيجية على الصعيد العسكري . ولكن الكونغرس عجز عن توفير مبالغ كبيرة من المال ، فظل بناء السفن محدوداً لا يفي بالمراد .

وفي هذه الاثناء كانت لجنة « ناي » تشن حملتها الشديدة على الذين سمتهم « تجار الموت » وهم منتجو الاسلحة والاعتدة الحربية ، فزعمت انهم يشجعون الدولة على الحرب ليبيعوا سلعهم ويجنوا ثروات طائلـــة . فسادت الرغبة في البقاء خارج القتال ، عوضاً عن مواجهة المشاكل السياسية والعسكرية المعقدة التي قد يتسبب بها نشوب الحرب في أمريكا نفسها .

بلغ تيار الانعزال ذروته في سنة ١٩٣٧ ، واصبحت الحرب في نظر السواد الأعظم من الأميركيين عملاً مقيتاً ، وانصرف الاهتمام الى وقاية الولايات المتحدة من وباء الحرب الذي يهدد العالم من جديد .

وفي حفلة خطابية اقيمت في شيكاغو في شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٧ ، حاول الرئيس روزفلت التأثير في الرأي العام والقضاء على القول بأن الحرب وباء ، فخاطب الناس قائلاً بأن وباء الفوضى العالمية آخذ بالانتشار ، وان على الولايات المتحدة أن تجعل الشعوب الموبوءة في محجر صحي لتنجو من العدوى ، عوضاً عن أن تبحث عن محجر لتأوي هي اليه . واستقبلت الصحافة هـــذا التصريح بامتعاض بالغ مما اضطر الرئيس الى التراجع عنه وسحبه بعد يومين .

وكانت الامة الأميركية ، خلال العقد الثالث من القرن العشرين ، أعمق تقديراً للشؤون الدولية منهـــا سنة ١٩١٦ ، وأرهف شعوراً بقوتها ، ولكنها كانت أشد حذراً لادراكها الاحتمالات الرهيبة التي لا بد أن يسفر عنها استعمال هذه القوة .

وهكذا اتضحت السياسة الامريكية وزال عنها الغموض الذي كان يكتنفها قبل عشرين عاماً ، فأصبح على الرئيس أن يختار أحد أمرين : التدخل الخطر الذي لا مفر منه في الميدان الدولي ، أو القبول بالاوضاع الراهنة التي يصبح معها بقاء الامة الأميركية مستحيلاً في مستقبل قريب .

وهكذا احتدم النقاش في اميركا بين فئتين متناقضتي الآراء ، لم تتمكنا من الاتفاق على شيء ، لأن خطر التدخل وخطر العزلة بقيـــا مبهمين ، ولم تتوفر لاحدهما البراهين الكافية ليرجح رأيه على رأي الآخر ، فظلت هذه المشكلة الأساسية معلقة وبلا حل حاسم يمكن الدولة من وضع خطة سياسية حربيـــة واضحة ومجدية .

واستمرت الأحوال في هذه الغمرة من التردد والشك حتى وجه روزفلت دعوته الجديدة إلى التسلح في رسالته الى الكونغرس في شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٨ . كانت الدعوة رصينة هادئة ، جاء فيها : « في عالم من التوتر الشديد والفوضى في ظروف تهدد الاستقرار الحضاري ، يجب على كل امة أن تناضل من أجل السلم ... وأن تكون قوية .

***

وكانت اليابان آنذاك تواصل احتلال الأراضي الصينية منذ سنوات . وقد شهد عام ١٩٣٥ وحده ، هجوم موسوليني على الحبشة ، وانهيار نظام تحديد القوات البحرية ، واعادة تسليح المانيا ؛ دون أن تكون هناك قوة في الجانب الآخر تستطيع القيام برد فعل يوقف ذلك التيار الجارف .

وفي سنة ١٩٣٦ ، عندما رأى هتلر أن القوات الغربية عاجزة عن مقاومته ، احتل مقاطعة لوكسمبرغ في بلجيكا ... وفي أوائل سنة ١٩٣٨ تبين ان صناعة

الحرب أصبحت مخيفة في حادثة جيورنيكا لاسبانية ، ثم في مجزرة شابيه في شنغهاي .

وفي ٢٨ كانون الثاني قال روزفلت بصراحة في رسالة وجهها الى الكونغرس: « ان التسلح يزداد اليوم ازدياداً خطيراً لا مثيل له ... وهذه حقيقة تنذر بالشؤم . ومن المؤسف حقاً أن يكون ربع العالم منغمساً في صراع وحشي لا يعرف الرحمة . فالجيوش تحارب في الشرق الاقصى وفي اوروبا ، وهناك الوف من المدنيين طردوا من بيوتهم ، وقصفتهم الطائرات بالقنابل المبيدة . وأمام هذه الأحوال أرى أن دفاعنا الجوي غير كاف لضمان سلامة البلاد ، وانه يتطلب الزيادة والتعزيز .

كان التحذير قاسياً ، ولكن التدابير المطلوبة كانت زهيدة ، فقد اكتفى روزفلت بطلب زيادة القوات البحرية بنسبة ٢٠ بالمئة ، أو بناء اسطول للمحيطين [١] ، فبلغت جملة الاعتمادات الاضافية في ميزانية السنة المالية التالية ٢٨ مليون دولار ، على أن يخصص نصف هذا المبلغ لتطوير السفن الخفيفة ، وطلب روزفلت اعتمادات اخرى قليلة لمباشرة بناء بارجتين هما الوحيدتان الجديدتان منذ عام ١٩٢١ ، كما طلب ١٤ مليون دولار لتزويد الجيش بمدافع اضافية مضادة للطائرات ، وأقل من مليوني دولار لشراء ذخيرة حربية احتياطية .

وقد تحدث الرئيس فيما بعد ، عن هذه الزيادات الطفيفة ، فوصفها بأنها كانت « بداية برنامج هائل لاعادة التسلح ، ولا ريب في أن هذا العمل كان بداية ولكنها بداية بعيدة كل البعد عن ان تكون هائلة كما قيل فيها ، الا انها تضمنت

---

(١) الاطلنطي والهادىء .

طلب تشريع جديد يحول دون استغلال الحرب وجني الأرباح من بيع الاسلحة، ويوزع أعباء الحرب بالتساوي بين جميع المواطنين .

وعندما سئل الرئيس روزفلت عما اذا كان يعني بطلبه تجنيد القوى البشرية ورؤوس الأموال والمصانع ، اجاب مستنكراً هذا التفسير ، وقال : « اني لا استحسن كلمة تجنيد . فوقف احد الصحفيين واقترح كلمة « تعبئة » . فوافق الرئيس عليها بقوله : « هذا ما اعنيه »

وعلى اثر هذا الموقف الاميركي الرسمي بدأت بوادر المستقبـــل تتضح ، ولكنها بقيت على شيء من الغموض . ففي شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٨ ، كانت الجيوش الأميركية الثلاثة عبارة عن هياكل عظمية بالنسبة الى ما تتطلبه الحرب الحديثة من قوات كبيرة في الاعتدة والرجال . غير أن الطيران كان قد احرز تقدماً طفيفاً .

واذا القينا نظرة على الماضي القريب نرى أن المنظمة العسكرية الاميركية التي كانت في خريف ١٩٣٣ بقيادة الجنرال هو . درم ، كانت قد اقترحت حلاً جديداً للمشاكل التي تعانيها القوة الاميركية ، وهو فصل قوات الطيران عن جيش البر ، والحاقها مباشرة بالقيادة العامة ، فتحصل هذه القوات على قليل او كثير من الاستقلال الذاتي .

وقبل مباشرة العمل بهذا الاقتراح ، برزت قضية البريد الجوي ، وخلاصتها أن الرئيس روزفلت الغى في شتاء سنة ١٩٣٤ ، المراسيم التي تمنح الحكومـــة بموجبها اعانة مالية لشركات الطيران التي تنقل البريـد الجوي المحلي ، وكانت حجة الرئيس في اتخاذ هـــذا التدبير ، ان تلك المراسيم صدرت بموجب اتفاق سري لا يخلو من الغش والتواطؤ . وقد عهد الى الطيران العسكري بنقل البريد عوضاً عن الشركات الخاصة . ولكن الحوادث الجوية التي وقعت في هذه الاثناء

اثبتت ان الطيران العسكري عاجز عن القيام بالمهمة المسندة اليه ... وهذا ما دعا وزارة الحربية الى انشاء مجلس خاص برأسه وزيرها السابق د . بيكر للنظر في قضية الطيران، فتقرر أن يكون سلاح الجو مستقلا ومرتبطاً ارتباطاً مباشراً بمجلس الأركان العامة ، وتبنى هذا المجلس الآراء القائلة بان اميركا ليست مهددة جواً ، وبأن الوسيلة الفضلى لتأمين الدفاع عنها هي تقوية الاسطول ، وان الهجوم على الولايات المتحدة لا يكون خطيراً إلا اذا شن عن طريق البحر ... اما الجيش فهو العامل الفاصل والنهائي في الحرب بمساندة اسرابه الجوية .

كان هذا القرار القاضي بالحاق القوات الجوية بمجلس الاركان العامة اقل بكثير مما كان يحلم به قادة الطيران من الاستقلال واتساع النفوذ ، ولكنه على كل حال أفضل لهم من الخضوع الكلي لجنرالات القوات البرية . وهكذا ظهر في اميركا في أوائل شهر شباط سنة ١٩٣٥ ، سلاح جوي مستقل ومرتبط مباشرة بمجلس الأركان العامة ، بعد تجريد فرق الجيش من طيرانها . وقد جمعت الطائرات التي تألفت منها هذه القوة الجديدة في لانغلي فيلد بولاية فيرجينيا وغيرها من الولايات وعين الجنرال فرانك اندروس قائداً لهذا السلاح ، فكان مسؤولاً أمام رئيس مجلس الأركان العامة وحده في ايام السلم ، وتابعاً لقائد عمليات الميدان في ايام الحرب.. وبذلك تحقق للطيارين الاميركيين استقلالهم الذي حافظوا عليه خلال الحرب العالمية الثانية .

وبعد عام ١٩٣٥، كانت القوات الجوية المساندة للجيش أقل رغبة في تعديل النظام الاساسي للدفاع الوطني منهـا في ايجاد مشروع واسع الطموح يرمي إلى تطوير قاذفات القنابل لتصبح سلاحاً قاهراً لا يقاوم .

وقد تم التطوير المرتجى فكانت الطائرات الشهيرة من طراز بوينغ بـ — ١٧ التي جرت تجربتها الأولى سنة ١٩٣٥ . وفي منتصف العقد الرابع ، كان يتعذر تطوير القاذفات من جديد ، لتصبح قادرة على العمل عبر المحيطات ، في اوروبا

وآسيا ، ولكن المغرمين بالجدل الدعائي لكسب الشعبية ، تذرعوا بأن هـذه القاذفات الجبارة ضرورية لصد هجوم بحري ، ولحماية الشواطىء الجنوبيـة في نصف الكرة الغربي ، وذهب آخرون إلى القول بأن تقوية سلاح الجو ضرورية لحماية الاسطول الذي يعهد اليه ، في حال نشوب حرب ، بصد الهجوم البحري اذا شنه العدو .

وانطلاقاً من هذه الاعتبارات جرى تصميم طائرات ب ــ ١٧ التي انيطت بها مهمات كبيرة كالبحث عن الوحدات البحرية العدوة في عرض البحر غيره . وكان على ربابنة هذه الطائرات ان يجتنبوا المدافع المضادة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وان يستعملوا مناظير دقيقة للقنابل تساعدهم على ضبط التسديد واصابة الاهداف من ارتفاع كبير . وكانت هذه الطائرات مزودة بمدافع دفاعية قوية تحميها من المقاتلات التي تحميها السفن ، لأن هذه المدافع البعيدة المدى تستطيع أن تقيم بقذائفها سداً للوقاية من غارات الطائرات .



فهرس

القسم السابع


عيسى يوسف اللويشي